علي بوشوشة : حياته وآثاره

المؤلف : علي العريبي (دراسة ومختارات)
تاريخ النشر : 2008
الناشر : وزارة الشؤون الثقافية، المركز الوطني للاتصال الثقافي
مكان النشر : تونس
اللغة : العربية
الوصف المادي للوثيقة : 240 ص. ؛ 21 سم.
ردمك (ISBN): 978-9973-910-32-5
السلسلة : ذاكرة وإبداع ، عدد29
الموضوع : أعمال وتراجم علي بوشوشة
تصنيف ديوي العشري : 920.5
المفاتيح : علي بوشوشة، أعمال، تراجم، أدباء تونسيون، الحداثة، النهضة الأدبية والفكرية في تونس، الحركة الوطنية، جريدة الحاضرة، مقالات علي بوشوشة، الخلدونية الرقمية، الانسانيات الرقمية.

وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

علي بوشوشة

حياته وآثاره



دراسة ومختارات

د. علي العريبي

سلسلة "ذاكرة وابداع"



المركز الوطني للإتصال الثقافي



وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

المركز الوطني للاتصال الثقافي

سلسلة "ذاكرة وإبداع"



علي بوشوشة
حياته وآثاره

دراسة ومختارات

د. علي العريبي

وزارة الثقافة والمحافظة على التراث

سلسلة "ذاكرة وإبداع"

الكتاب عدد 29

سلسلة فصلية ينشرها

المركز الوطني للاتصال الثقافي

إدارة: أ. أبو بكر خلوج

يشرف عليها: أ. عبد الوهاب الدخلي

يتابعها: فتحي اللواتي

العنوان: علي بوشوشة: حياته وآثاره

دراسة ومختارات

د. علي العريبي

الطبعة الأولى: 2000

ديسمبر 2008

د.م.ك: 5-32-910-9973-978

الإهـــــــداء

إلى روح علي بوشوشة باعث النهضة الأدبية والفكرية بتونس ورائد الحركة الإستقلالية بها وإلى إبنتيّ عفاف وعفيفة اللتين وعدتا بالسير في نفس الدرب باحثتين ودارستين... أهدي هذا الكتاب

إن إفريقية (تونس) التي أخلص لها علي بوشوشة إلى آخر رمق من حياته لن تنسى ما هي مدينة به إليه، كما أن الأجيال الصاعدة ستحتفظ بذكره باعتباره أحد الباعثين الرئيسيين لنهضتها.

(الصادق الزمرلي: أعلام تونسيون تعريب وتقديم حمادي الساحلي ص 140)



علي بوشوشة

في رسم نادر

بـدايـــــــة

تزخر تونس الأرض والحضارة والتاريخ بالأعلام في شتى فروع المعرفة، منذ أقدم العصور حتى اليوم، وقد خدم هؤلاء الأعلام تونس خدمة جليلة: إذ ساهم كل حسب جهده وتخصصه في رسم شخصية تونس، وهويتها الثقافية، ومعالمها الحضارية، ولا بد من الاعتراف بفضلهم والتنويه بشأنهم، من باب إعطاء كل ذي حق حقه، وليس من باب التمجيد الفارغ، أو الثناء الكاذب، ومن هؤلاء الأعلام نذكر عميد الصحافة الوطنية علي بوشوشة، صاحب أول جريدة وطنية في القطر التونسي، وهو علم في حاجة إلى التعريف به، وبالأعمال التي قدمها، في إطار حركة النهضة بتونس وفي مسار الحركة الاستقلالية ، منذ انتصاب الحماية حتى قيام الحرب العالمية الأولى.

وقبل أن نمر إلى التعرف إلى حياة بوشوشة نشير إلى أن انتصاب الحماية(1881) كان إعلانا عن دخول تونس في عهد جديد من تاريخها الحديث، فقد كانت تحت نظام البايات الذي أدمى اللحم، ونخر العظم، وأصبحت في ظل نظام، يمتص بذكاء موارد الرزق، ويدمر برفق الذات والكيان، واعتقد السكان، وحتى بعض المثقفين، في البداية أن هذا الوافد الجديد سيطيح بظلم البايات، ويقضي على شوكة أعوانه من جباة الضرائب القساة، وإذا بهم يرون هذا القادم الجديد يقتطع الأراضي الخصبة، لمعمريه في شمال البلاد ووسطها، ويسوق أصحاب الأرض سوق العبيد، لخدمة هؤلاء الفلاحين الجدد، الذين يطلقون الرصاص على كل من تحدثه نفسه بالتعدي على أملاكهم، ولو كان المأخوذ بخسا [1] فقويت شوكة هؤلاء المعمرين، واشتد بأسهم، ولم يحرك هذا النظام الجديد ساكنا إزاء ما كان يصنعه البايات فيما

1) ذكرت الحاضرة أن تونسيا قتل بأبي فيشة من أجل سرقة عنقود من العنب، وحكم على القاتل في محكمة سوسة الفرنسية بشهرين سجنا، وبخطية متواضعة جدا، انظر الحاضرة ع 881 المؤرخ في 17 فيفري 1906

يخص دفع المجابي والأعشار التي كان يئن من وطأتها سكان الإيالة، بدعوى بقاء الحال، كما هو عليه قبل الاحتلال.

وفي مدن المملكة امتلأت الإدارات الجديدة بالفرنسيين، ولفيف من الشوام، وبعض التونسيين، الذين لم يروا بدا من الانضمام إلى خدمة الإدارة الجديدة، ووجدت الجاليات الإيطالية والمالطية واليهود حظوة لدى النظام الجديد، فقدموهم في الوظائف الإدارية، والأشغال العامة على أهالي البلد، واشتد الصراع بين هذه الجاليات من جهة، وبين سكان البلاد من جهة أخرى، انعكس صداه في الصحف الصادرة في السنوات الأولى من انتصاب الحماية، ولئن كانت أصوات الفرنسيين واليهود والإيطاليين والمالطيين عالية من خلال صحفهم، فإن صوت الأهالي كان غائبا، فالرائد التونسي تحول منذ سنة 1883إلى صحيفة رسمية، تنشر القرارات والقوانين لا غير.

وظهرت الحاجة إلى صحيفة تونسية في انتفاضة أفريل 1885 المعارضة لقرارات البلدية، الخاصة بدفن أموات المسلمين [2] هنا أحس القائمون بهذه الانتفاضة بالحاجة الملحة إلى صحيفة وطنية، تعبر عن مواقفهم، وتوضح رأيهم من قرارات الحماية، وقوانينها الجائرة، ويذكر أنهم رفضوا الإدلاء بتصريحاتهم للصحف الأجنبية، حول أحداث أفريل المذكورة، لأنه سبق لها أن شوهت أقوالهم، فاضطروا إلى أن تكون لهم صحيفة وطنية، تنطق بلسان الأهالي وتدافع عن مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وتبرز بوضوح حقوق الأهالي في بلادهم التي أصبحوا فيها رعايا لا مواطنين، وكان من المتحمسين لإصدار صحيفة وطنية في تونس المرحوم علي بوشوشة.

وتعد هذه الفترة من أحلك الفترات في تاريخ تونس، فقد انتصبت بها إدارة جديدة غريبة على أهل البلاد، كانت أشد قسوة على السكان

---

2) راجع في خصوص هذه الانتفاضة: محمد السنوسي: خلاصة النازلة التونسية تحقيق محمد الصادق بسيس ط الدار التونسية للنشر تونس 1976

من حكم البايات، خاصة بعد أن سهلت هذه الإدارة الاستعمارية لمعمريها الاستحواذ على أهم الأراضي الخصبة، وسخرت الأهالي لخدمة المعمرين، كما ذكرنا، حتى ينعموا بإقامة سعيدة في المملكة التونسية.

وإزاء هذا الحيف، كان لزاما على النخبة المثقفة أن تتحرك للدفاع عن مصالح الأهالي، في علاقاتهم بنظام الحماية، ولم تجد غير الصحافة وسيلة لصد هجمات المعمرين، وتكالبهم على الأراضي الفلاحية الخصبة، ونهشهم لأعراض الأهالي ـ كما يسمونهم استخفافا ـ ومن جهة أخرى العمل على تبصير الأهالي بحقوقهم في بلادهم، وواجباتهم نحوها، فكانت الصحافة لدى النخبة المثقفة وسيلة للتنوير والإرشاد إلى أقوم السبل، وحمل لواء التنوير جماعة (الحاضرة) وفي مقدمتهم علي بوشوشة، هذا الصحفي والكاتب الذي قال عنه علال الفاسي: " إنه أبرز هؤلاء الشبان (جماعة الحاضرة) وأقواهم شخصية (...) استطاع أن يجمع من حول الجريدة كتلة قوية من أصدقائه وغيرهم" [3]

وهو رجل يستحق أن يحتل مكانته في تاريخ تونس الثقافي، للخدمات الجليلة التي قدمها في سبيل الحفاظ على أسس الثقافة الوطنية ومقوماتها، فمن هو علي بوشوشة ؟ وما هي آثاره حتى يذكر بيننا، ونعترف له بالجميل ؟

3) علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ص42

علي بوشوشة حياته وآثاره

لا يعثر الباحث على دراسة وافية عن علي بوشوشة، تكشف عن جوانب شخصيته، وإنما يجد نتفا وإشارات [1] يمكن أن يجمع بينها، ويكون منها ترجمة كافية ـ وإن لم تكن وافية ـ لهذا الرجل الذي خدم وطنه بصحيفته (الحاضرة)التي دافع من خلالها عن مقومات تونس الثقافية والحضارية قرابة ربع قرن، ولم يأل جهدا في تقديم النصيحة لأبناء وطنه، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم وخير بلادهم، ودعوتهم إلى اليقظة، والعمل على تحرير بلادهم من الاستعمار الفرنسي الذي انتصب ببلادهم قصد الاستحواذ على موارد القطر، وترك أهله في خصاصة وفقر وجهل.

ولادتـه ونشأتـه

علي بوشوشة من أصل جزائري فر جده من مدينة جيجل بالقطر الجزائري، بعيد احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830، واستقر بجهة بنزرت، واشتغلت أسرته بالفلاحة، بيد أنها لم تبخل على أبنائها بتعليمهم، فحالما بلغ الابن علي المولود سنة 1859 سن التمييز دخل الكتاب، وتمكن من حفظ القرآن أداء وترتيلا،إلى سن الثالثة عشر [2] ثم قصد جامع الزيتونة، فحضر حلقات بعض الشيوخ والمدرسين، ولما فتحت المدرسة الصادقية أبوابها في أوائل سنة 1875 انخرط في

1) نذكر فيما يلي بعض المراجع الأولى التي تعرضت لحياة بوشوشة ومنها:

Lambert (Paul): Choses et gens de Tunisie Dictionnaire illustre deLa Tunisie Tunis 1912 p 71

جريدة الزهرة ع 2989 بتاريخ 14 أوت 1917 (بمناسبة وفاته)

Arrous (Albert): Livre d' or figures d' hier et d'Hui aujourd Tunis 1923p 42

ومن الذين عاشوا معه، وكان صديقا له، نذكر :

Zmerli (Sadok) Les Successeur p 33 42 MTE Tunis 1967

انظر بقية المراجع في بحثنا : الحاضرة ط تونس 1995 ص 75 ـ 85

2) كما أشار هو في إحدى الافتتاحيات التي تحدث فيها عن الكتاتيب، انظر ع 640 الصادر بتاريخ 26 مارس 1901

الصفوف الأولى [3] فأقبل بجد واجتهاد على الدرس والتحصيل، وكان له ميل خاص إلى تعلم اللغات الأجنبية، فتسنى له حذق اللغة الفرنسية والانجليزبة والتركية والإيطالية، وعندما تولى إصدارجريدة (الحاضرة) ساعدته معرفة هذه اللغات على تعريب الكثير من المادة الإخبارية والثقافية للجريدة.

ويروى عنه" أنه حرصا منه على التفوق على رفقائه المتقدمين عليه في اللغة الفرنسية بذل كل ما في وسعه لاستظهار القاموس الفرنسي خفية على ضوء السراج الليلي الذي كان يلقي أنواره الخافتة على أرجاء بيت النوم، وقد كان يأوي عشرين تلميذا من التلامذة الداخليين، كان هو أحدهم"[4]

وكان نظام الصادقية حسبما سنه الوزير خير الدين يقتضي إرسال بعثات إلى أوروبا، لاستكمال الدراسة بها، فتوجه بوشوشة، صحبة نفر من زملائه، إلى بريطانيا لمواصلة تعلم اللغة الانجليرية بها[5] وبقي بانقلترا ثلاث سنوات أتقن خلالها اللغةالانجليزية، ويقول ابنه فتحي بوشوشة: إن والده عمل في الصحافة بانقلترا، ووفر شيئا من المال اشترى بها قطعة أرض، مما يدل على أنه كان يفكر في خدمة الأرض أكثر من الوظيف الذي كان الشغل الشاغل لبقية رفقائه، وكانت عائلته تريد أن يبتعد ابنها عن الحياة الريفية، لما فيها من أتعاب ومشاق، وكأنها نسيت أنها بثت " في نفسه منذ نعومة أظفاره حب الأرض والأشغال الفلاحية الشاقة والمنعشة في نفس الوقت، فلم يمض وقت طويل حتى أظهر الطفل الموهوب استعدادات فطرية مبكرة لنوع من العمل، قد يراه غيره من الأطفال الذين هم في سنه ومن وسطه مهينا أو على الأقل مضنيا، لأنهم لم يتعودوا مثله على تلك

---

3) أفادنا المرحوم حمادي الساحلي أن جهة بنزرت اختارت ثلاثة تلاميذ، وجهوا إلى المدرسة الصادقية، عند افتتاحها، وكان من بينهم علي بوشوشة.

4) الصادق الزمرلي: أعلام تونسيون تعريب حمادي الساحلي ص 134

5) ملف الصادقية عدد 752 كارتون 64 خزانة ع6 وثيقة رقم (12) الأرشيف الوطني التونسي

الحياة القاسية والحرة" كما يقول صديقه ورفيق عمره الصادق الزمرلي[6]

وبينما كان البشير صفر ورشيد بوعمود وعلي بوشوشة مقبلين على الدراسة في أوروبا وتركيا بشغف ولهفة، كانت فرنسا تخطط لاحتلال تونس، وانتصاب نظام إداري وعسكري وفلاحي، يرمي من جملة ما يرمي إلى هيمنة المعمرين[7] على الأراضي الفلاحية في شمال البلاد ووسطها.

كان وقع الاحتلال شديدا على هؤلاء الفتية: إذ أحسوا أن آمالهم في اقتلاع الشهائد العلمية قد تبخرت، وشعروا أن الطريق قد سدت أمامهم، فعند رجوعهم إلى بلادهم لقضاء العطلة الصيفية (1881) بها منعوا من العودة إلى أوروبا، بدعوى احتياج الإدارة الجديدة إلى شبان يحسنون اللغة الفرنسية، ولم ير علي بوشوشة وصحبه بدا من الرضوخ للإدارة الجديدة، فالتحقوا بمكاتبها، يزاحمهم في هذه الإدارة بعض اللبنانيين، الذين جلبتهم سلطة الحماية للعمل في الإدارات بتونس.

علي بوشوشة مترجما بالكتابة العامة

قضى علي بوشوشة أكثر من خمس سنوات مترجما بالكتابة العامة" وكان من خيرة المتوظفين الأولين في عهد الحماية، حتى أضحى من البارزين بتلك الإدارة التي كانت مثابة الإدارات العليا للحكومة التونسية، وترجع إليها بالنظر جميع المصالح والإدارات"[8] ويبدو أن نفسه لم تطمئن للعمل الإداري، والخضوع لأوامر السادة الجدد، خاصة وأنه تربى في بيئة ريفية تأبى الضيم، وتستنكف أن تقف في صف المظلومين، وكان من الممكن أن يبقى بهذا الوظيف الذي يوفر له عيشا رغيدا، خاصة وأنه يمكن أن يرتقي فيه، ويبلغ أعلى

6) الصادق الزمرلي: أعلام تونسيون تعريب حمادي الساحلي ص 134
7) يطلق عليهم التونسيون في بادئ الأمر بالنزلاء جمع نزيل، والنزيل الضيف والمشارك في المنزل والوطن، وهي تسمية لا تخلو من تلطف وأريحية من قبل المثقفين التونسيين
8) عمر بن قفصية : أضواء على الصحافة التونسية ص 54

الرتب، فهو ليس أقل جدا واجتهادا من غيره الذي ارتقى في وظيفته" ولكن علي بوشوشة المتسم بالأنفة والشموخ، والمعارض لكل ضغط، مهما كان مأتاه، قد فضل الحفاظ على حريته الكاملة، وتوجه من بين مختلف المهن المفتوحة في وجهه إلى الزراعة التي أظهر منذ أمد بعيد ميلا ملحوظا نحوها،ونحو الصحافة التي ستوفر له الأداة المثلى لخدمة بلاده، وذلك بتعويد مواطنيه على النظر في كل ما أثاره تغيير النظام ببلادهم من مشاكل عويصة" [9]

إصداره لصحيفة الحاضرة

وصادف في هذه الفترة صدور قانون جديد للصحافة، من قبل المقيم العام ماسيكو الصحفي القديم بالجزائر، وصدر هذا القانون بالرائد التونسي في 17 أوت 1887 ففكر البشير صفر وصحبه أن قد حانت الفرصة لمواجهة الخصوم من المعمرين الذي كان أغلبهم من المحكوم عليهم بالسجن والإبعاد، والذين فروا إلى تونس، وتمكنوا من الحصول على أراض فلاحية مثل المعمر فكتور دو كرنيار Victor de Carnieres الذي استقر بجهة سليمان بالوطن القبلي (ولاية نابل حاليا) وأصدر صحفا تدعو إلى إلحاق تونس بمستعمرات الجمهورية الفرنسية[10] عوض نظام الحماية على غرار الجزائر، وبعض المستعمرات الفرنسية الأخرى في إفريقيا وآسيا، ولا يوجد فرق يذكر بين الحماية والإلحاق، ولعل الاستعمار الفرنسي يغنم من نظام الحماية أكثر مما يغنمه من نظام الإلحاق، ولكن هذا موضوع آخر

أسند الجماعة إدارة الجريدة إلى علي بوشوشة، بعد أن قدم استقالته من الكتابة العامة للحكومة: إذ لايسمح القانون الجديد للصحافة أن يكون مدير الجريدة من الموظفين، وقام بوشوشة بأعباء الجريدة إدارة وتحريرا، قرابة ربع قرن إلى أن تعطلت بعيد أحداث

---

9) الزمرلي : مرجع مذكور ص 135

10) من صحفه التي تصب في هذا الاتجاه نذكر:

Annexion (و) Le Colon Français (و) La Tunisie Franaiçaise

الجلاز في 7 نوفمبر 1911 كما سنرى فيما يأتي.

المهم أن جماعة(الحاضرة) أرادوا مقارعة هؤلاء الخصوم بالحجة، والإقناع ما أمكن، وبيان لمن في حاجة إلى بيان، أن سكان البلاد ينتمون إلى حضارة عريقة، ولهم تاريخ وثقافة لا يرضون بهما بديلا.

علي بوشوشة يتزوج من امرأتين تركيتين

وقد رغب في الزواج، أو التأهل، كما كان يقال في عصره، إلا أنه لم يجد من سكان العاصمة من يصاهره، لأنه وافد على العاصمة، وعلى المملكة التونسية عموما، ويذكر أنه خطب فتاة من تونس العاصمة، فرفضت عائلتها طلبه، باعتباره غريبا عن العاصمة إذ جاء من بنزرت، ثم إن أصله من الجزائر، فهو من "الغرابة" كما صرح لنا ابنه [11]) فرحل إلى الآستانة سنة 1895 وتزوج بسيدة تركية، وقد جاء في الحاضرة: "عاد لهذا الطرف(تونس) صبيحة يوم الأربعاء الفارط(أي 23 أكتوبر 1895) قادما من الآستانة العلية، عن طريق مرسيليا، وطنينا الغيور السيد علي بوشوشة، مديروصاحب امتياز جريدة الحاضرة التونسية، فتلقاه على الرصيف جمع من أقاربه وأصحابه، ومن تاريخ ذلك اليوم تسلم أمور إدارته بسائر أنواعها، ومعلوم أن سفره كان لقصد التأهل، وهو أمر قد قضي، ولله الحمد والمنة، على أحسن وجه، وأكمل مطلوب، زيادة على الاستطلاعات والإفادات التي حصل عليها أثناء سياحته بالبلاد الأوروباوية والشرقية، وهي، لعمر الحق، إفادات وأخبار غزيرة، لا يجمع شتاتها إلا رحلة خصوصية، سيقع الشروع عما قريب، إن شاء الله، في تحريرها وطبعها خدمة للعموم، وعلى الأخص لأهل المملكة التونسية، شكر الله سعيه، وجعل عمله هذا خالصا لوجهه الكريم"[12]

---

11) فتحي بوشوشة التقينا به يوم 24 أفريل 1981 ببئر مشارقة بجهة الفحص من ولاية زغوان

12) الحاضرة ع 639 بتاريخ22 أكتوبر 1895

وقد أنجبت زوجته الأولى مصطفى وعليا، ولما توفيت هذه السيدة في بداية القرن العشرين رجع مرة ثانية إلى تركيا، واقترن بسيدة تركية ثانية، وكان ذلك في مطلع سنة 1906 وهي التي أنجب منها أولاده محمد البشير وفتحي والعابد ومحمد علي وعلية[13]

علي بوشوشة الفلاح والمزارع

وكان بوشوشة، إلى جانب إدارته للجريدة، يشرف على فلاحته بعين عسكر، من منطقة الفحص قرب العاصمة (تونس) وكان مزارعا من طراز عال، فقد عرف الأرض منذ كان يافعا، فتعلق بها شابا وكهلا، وكيف لا تطاوعه الأرض، وقد أعطاها كله، ومقالاته حول الفلاحة والزراعة تدل على ثقافته الواسعة في هذا الميدان، وإذا اجتمع حب الأرض، والتفاني في خدمتها مع الثقافة والعلم تلين الأرض، وتجود بالخير على صاحبها بالخير العميم، كما كان الشأن بالنسبة لعلي بوشوشة، الذي كانت الأرض مورد رزقه الوحيد، ولم تكن الصحافة في ذلك العهد تدر على أصحابها بالمال الوفير، وإنما هي صحف يصدرها هواة لهم صادق الرغبة في خدمة الوطن وأهله، وكثيرا ما ينفقون على الجريدة من قوتهم وقوت عيالهم، لتغطية نفقات الطبع والتوزيع، كما كان الأمر بالنسبة لبوشوشة.

تدريس اللغات

كما كان يقوم بتدريس الترجمة في الجمعية الخلدونية، وتعليم اللغتين الفرنسية والإيطالية بالمدرسة الصادقية، وكان، بالإضافة إلى ذلك، يقوم بتعريب الوثائق الإدارية في مقر (الحاضرة) لمن يقصده من الأهالي، وقد نوهت مجلة الفجر فيما بعد بحذقه للغات، ودعت الشبان التونسيين إلى الاقتداء به، قائلة:" كانت اللغة الايطالية

13) من بناته (علية) بفتح العين تأنيث لاسمه (علي) تزوجها مصطفى صفر بن البشير صفر، ثم تزوجها من بعده حسن حسني عبد الوهاب المؤرخ المعروف.

واللغة التركية مما يدرس بالمدرسة الصادقية، فنبغ فيهما المرحوم الصحفي الشهير علي بوشوشة"[14]

مشاركته في النشاط الاجتماعي والثقافي

وشارك مع رفقاء الدرب في إنشاء مشاريع ثقافية وتربوية، كان لها تأثير واضح في النهضة الحديثة بتونس، مثل الجمعية الخلدونية، والمدرسة الفلاحية بالأنصارين، والمدرسة القرآنية العصرية (بنهج سيدي بن عروس) وجمعية قدماء المدرسة الصادقية، والجمعية الجغرافية، وكان من التونسيين القلائل المنخرطين في جمعية قرطاج، وهي مؤسسة علمية، أنشئت على غرار المجمع العلمي الفرنسي، ولما أخذ هذا المجمع يدعو إلى تغيير الحروف العربية بأحرف لاتينية، وينادي بتعليم اللهجة العامية التونسية عوض العربية الفصحى غادره بوشوشة نهائيا، وأبرز على صفحات (الحاضرة) نوايا هذا المجمع العلمي المزعوم، وتجنيه على اللغة العربية وعلى متكلميها، يقول: "لا غرو أن قلنا إن مشيخة قرطا جنة نادي الفنون الظريفة والمستظرفات الأدبية أصبحت دار العجائب، ومستودع أسرار الغرائب، فمن ذلك أنه تداول قسم المستشرقين، وهو القسم الباحث عن آثار العالم الإسلامي ولغاته وآدابه شرقا وغربا، فتذاكر في مسألة اللغة العربية، وهل ينبغي العدول عن اللغة العربية الفصحى إلى اللسان البربري الدارج في الكتابة؟ وعن حروفها الأصلية إلى الحروف الإفرنجية ؟ وذهبت عقول مشائخ هذا المجمع العلمي في هذا الموضوع مذاهب شتى، ولا غرابة فمن جهل شيئا عاداه، وجهل بعض هؤلاء المشائخ بأسرار بلاغة لغتنا العربية، وعدم وقوفهم على حقائقها ودقائقها أفضى بهم إلى هذا الخبط والخلط، ولا غرابة، وإنما محل الغرابة في بعض شبان العصر من الذين يدعون النجابة والإصابة في ميدان العرفان، يجارون تيار هذا الخلط الجارف

---

14) حاجتنا إلى تعلم اللغة الفرنسية وبقية اللغات الحية، مجلة الفجر مجلد 1 ص 238

على لغة دينهم وملتهم، إلا أن يقال إنهم تجردوا عن كل إحساس ملي، فيحسنون اللسان البربري، ويفضلونه على اللسان الفصيح، حتى عارضهم في هذا الخطأ المبين بعض أدباء المسيحيين من المشارقة والمغاربة، وسجلوا هذه المجاراة خزيا ووصمة بذيل ترقي التونسيين في مدارك الأدب، والمس بكرامة لغة العرب، فحيا الله أنصار العربية، ولحى المقاومين لنهضتنا الأدبية، وكل إناء بالذي فيه ينضح، وكل من كانت بضاعة أدبه مزجاة لأقل إشارة يفضح "[15]

وهو التونسي الوحيد الذي وقع انتخابه في جمعية إحباء الأشجار، وهي جمعية أسسها الفرنسيون، لتكثير سواد الأشجار (حسب عبارة الحاضرة) بجهات المملكة، تحسنا للإنتاج، وترويقا للنظر، واستجلابا للعمران [16] فبعد هذا النشاط المكثف ـ وخاصة القيام بمهام جريدته من تتبع الأخبار من مصادرها ثم تحريرها ـ هل يبقى له من الوقت ما يرفه به عن نفسه؟

كيف يقضي أوقات فراغه

لا شك أن الرجل كان منظما في حياته، فقد قسم وقته إلى نصفين أحدهما لجريدته، ولنشاطه الثقافي في الخلدونية، وفي جمعية قدماء الصادقية وغيرهما، والآخر خصصه للترفيه عن نفسه، وها هو الصادق الزمرلي يحدثنا عن هذه الناحية في حياة بوشوشة، يقول: " ولكن لا ينبغي أن نتصور أن علي بوشوشة المشتغل بإدارة جريدته واستغلال مزرعته الشاسعة بعين عسكر استغلالا حكيما قد تخلى بسبب ذلك عن المشاركة في الحياة الاجتماعية، وما توفره له معاشرة أقرانه من مباهج ، ذلك أنه وثوقا منه بما يظفر به في صحبتهم من راحة بال ورفاهية داخل النوادي الخاصة بالعاصمة، فقد كان يتردد عليها سواء للاستراحة، أو للتمتع بالاستماع إلى قصيدة جديدة، أو

15) الحاضرة ع 1084 بتاريخ 3 جانفي 1911
16) راجع الحاضرة ع 983 بتاريخ 2 جوان 1908

قطعة موسيقية رقيقة، اختار صاحب النادي لأدائها بعض العازفين من بين أشهر الفنانين في ذلك العهد"[17].

ويتردد بوشوشة باستمرار أيضا على قصر الأميرة نازلي فاضل (توفيت 1913) زوجة خليل بوحاجب بقصرها بالمرسى، وفي صالون هذه الأميرة ربط علاقة ودية مع الأستاذ الإمام محمد عبده، مفتي الديار المصرية، في زيارته الثانية إلى تونس، وتعرف على بعض المغاربة وحتى أعيان الأوروبيين ، وبعض الأتراك من حزب تركيا الفتاة، هذا بالإضافة إلى رحلاته إلى اسطنبول وباريس وغيرهما من الدول الأوروبية، وكذلك رحلته إلى مصر صحبة صديقه عبد الجليل الزاوش[18]

حادثة إدارة العدل

عرف بوشوشة عن كثب ما يعانيه الشعب التونسي من إهانة ودوس للكرامة، وديست هو نفسه كرامته عندما أطرد شر طردة من قبل أحد الموظفين بإدارة العدل، وصورة الحادثة كما جاءت في ملف الحاضرة: أن علي بوشوشة توجه إلى الإدارة المذكورة للاسترشاد عن قضية مدنية تخصه، ولما دخل إلى المكتب المعني بالأمر، وكان مفتوحا، جاءه موظف فرنسي، ودعاه بصوت الآمر، وبكيفية غير لائقة للخروج من المكتب، بدعوى أنه محجر على العموم، وقد اتخذ هذا الموظف مسألة التحجير على العموم تعلة لإسماع علي بوشوشة ما يكره، قصد الإساءة إليه، أما السبب الحقيقي فيتمثل في طلب الموظف المذكور إدراج إعلان في جريدة الحاضرة، يتعلق بزوجته القابلة، وكيفية قبول النساء لديها، واستخلص عليه مدير الجريدة الأجر اللازم، وكان الموظف المذكور يريد إدراج الإعلان بجريدة الحاضرة بدون مقابل.

---

17) أعلام تونسيون ص 137

18) انظر نفس المرجع ص 138 ـ 139

استاء علي بوشوشة من هذا الأذى الذي لحقه، ولم يجد بدا من تقديم شكوى إلى الكاتب العام للحكومة برنار روا في رسالة طويلة عبر فيها عما لحقه من إهانة من أحد الموظفين الفرنسيين، ولكن الكاتب العام برر موقف الموظف الفرنسي بالطبع، وزعم مدير العدلية أن السيد علي بوشوشة لم ينتبه إلى اللافتة الملصقة على الباب، والتي تحجر الدخول على العموم، وكيف يرى اللافتة والباب مفتوح، وهكذا يكون الكذب الفاضح والظلم الواضح، والوثيقة التالية تلخص هذه الحادثة:

" **العمــالة التونسية**

الوزارة الكبرى

السيد علي بوشوشة مدير جريدة الحاضرة تشكى لجناب الكاتب العام من المسيو(...) المتوظف بالعدلية، حيث دعاه بصوت الآمر، وبكيفية لا تناسب للخروج من المكتبة المدنية، بدعوى وقوع التحجير على العموم الدخول للمحل المذكور، مع أنه لم يكن بالباب إعلام يستفاد منه ذلك، وكان دخول الشاكي للمكتبة لمجرد الاسترشاد عن نازلة تخصه هناك"

" وادعى السيد علي بوشوشة أن الداعي للمتوظف المذكور على ذلك هو حادث كان

وقع بينهما في شأن إعلان طلب المدعى عليه إدراجه بالحاضرة، واستخلص عليه مدير هاته الجريدة الأجر اللازم، وكان المسيو(...) يريد إدراج ذلك بدون أجر"

" ولما استفسرت العدلية على ذلك أجاب المسيو(...) بأن البحث الذي أجراه أيد جواب المدعى عليه، وهو الآتي بيانه أسفل هذا، وأن الإعلان بمنع الدخول للمكتبة موضوع على الباب، إلا أن هذا الباب مفتوح دائما، ولم ير به الداخل الإعلان، ولذلك لم يلاحظ السيد علي بوشوشة الإعلان المذكور عند دخوله للمحل، ولو امتثل من أول الأمر

لكلام المسيو(...) لما دعاه للخروج، أو بادر هذا الأخير بإعلامي بذلك، من دون أن يزيد في الإلحاح لما حصل هذا الحادث"

"أما السيد(...) فإنه يقول: إن ما صدر منه كان بمقتضى تعليمات جناب المدير، وأن باب المحل الذي دعا (هكذا) السيد علي بوشوشة للخروج منه ملصق به الإعلان بالتحجير على الافكاتية والوكلاء والعموم من الدخول للمحل (المكتبة المدنية) وذلك بعد إعلامه بالتحجير، وتمادي المشتكي على عدم الامتثال، وأنه لا يعرف المشتكي، ولم يخاطبه إلا في النازلة أعلاه" [19]

ذكرنا هذه الحادثة لنبرز مدى ما يلحق التونسي من أذى من قبل إدارة الحماية، ومن أعوانها الذين كانوا يرون أن الأهلي لا يحسن معه الرفق، ولا تنفع معه المعاملة الحسنة، وأنه لا يقاد إلا بالغلظة والقسوة، وقد استقال علي بوشوشة من وظيفه بالإدارة حتى لا يكون تحت إمرة فرنسي، يكون هو الآمر والناهي.

علي بوشوشة يداري الحماية

ولكن مقتضيات الأحوال قد تجبر الإنسان على الانحناء حتى تمر العاصفة، وكان هذا شأن علي بوشوشة، والكثير من رفاقه، كان يظن أن انتصاب الحماية على ما فيه من فقدان للسيادة، ربما فيه فوائد جمة للقطر التونسي، فقد وعدت الحكومة الفرنسية بتمدن البلاد، وتكوين إدارات تونسية قادرة على تسيير دواليب الإدارة، المهم بالنسبة إليه، وبالنسبة إلى الكثير من المثقفين في عصره أن تخرج تونس من دائرة الجمود والانحطاط والتخلف، ومن الركود الثقافي الذي تعاني منه، فتنتشر المعاهد في كامل المملكة، ويلتحق المتخرجون بالمدارس العليا في فرنسا، من هنا كان تقرب علي بوشوشة وأصحابه إلى إدارة الحماية، والتعاون معها، لتكون تونس في المستقبل القريب للتونسيين، وحتى تصل إلى هذه المرحلة لا بد

19) ملف الحاضرة وثيقة رقم 29

من الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، حتى يتسلم التونسيون قيادة بلادهم بأنفسهم، هكذا كان يفكر علي بوشوشة ورفاقه، وهكذا كان يكتب في الحاضرة، فهو يدعو مثلا أبناء بلاده أن يقبلوا على تعليم أبنائهم في المدارس الفرنسية العربية، لأن التعليم في رأيه هو السبيل الوحيد للخروج من ظلام الجهل إلى نور المعرفة، وبالتعليم تقدم من تقدم، وبانعدامه تأخر من تأخر، ولما أقبل التونسيون على تعليم أبنائهم في هذه المدارس، وامتلأت بهم فصولها وقفت بهم إدارة الاستعمار عند مستوى التعليم الابتدائي، وزعمت أن الميزانية المخصصة لإدارة العلوم والمعارف ـ وهي من خزينة الدولة التونسية ومن أموال الأهالي ـ لا تتحمل نفقات هذا الجيش من التلامذة في التعليم الثانوي، وتوفير قاعات لاستيعابهم، وأنه يستحيل على حكومة الحماية أن توفر لهم وظائف إدارية بعد التخرج، وكل ما تستطيع القيام به هو تعليمهم القراءة والكتابة والتاريخ (تاريخ فرنسا بالطبع) إلى حد يمكنهم أن يتكلموا باللسان الفرنسي، بقطع النظر عن مآلهم، حتى يتحكم فيهم النفوذ الفرنسي، ويجنحوا إلى موادة الأمة الفرنسية، خدمة للمصلحة الوطنية، ولا يبلغوا درجة من الاستكمال يزاحمون بها أقرانهم الفرنسيين من الأطباء والافوكاتية والتراجمة.

ووصل الأمر بإدارة الاستعمار في أواخر العشرية الأولى من القرن العشرين إلى إقرار الفصل، وعدم الجمع بين أطفال الحاكمين وأطفال المحكومين في فصول الدراسة، لماذا؟ لأن الطفل الفرنسي يهتم بالمعقولات، ويربى على حب العلم ، بخلاف الطفل الأهلي أو التونسي فإنه يجهلها جميعا، كما يجهل النظافة ومنفعتها، حسبما جاء في خطاب المقيم العام الابوتيت Alapetite وثانيا لأن أطفال الأهالي وجدوا ليتعلموا القراءة والكتابة ، ومبادئ اللغة الفرنسية، وهي منّة من إدارة الحماية، فلماذا هذا العناء في تعليمهم اللغة الفرنسية، التي لا يخلو نحوها من تعقيد بالنسبة للطفل الفرنسي، فما ظنكم إذا كان

المطالب به من يتعاطى الفلاحة من الأهالي.

عندها تفطن علي بوشوشة وغيره من مثقفي عصره إلى أن هذا التعليم يفتك بالنابتة التونسية: إذ يقضي الطفل أربع أو خمس سنوات، ثم يقف به عند هذا الحد من التعليم، فلا هو تعلم لغة بلاده وتاريخها، ولا هو تعلم حرفة تفيده في مستقبل حياته، فما قيمة هذا التعليم الذي يخرج جيشا من الشباب المتنكر لثقافة بلاده، وحتى لآبائه وأمهاته، فهو يرطن بكلمات وجمل فرنسية، ويعتقد أن أباه وأمه يجهلان هذه اللغة.

وحال هؤلاء الشبان كما يقول علي بوشوشة" كمن قصد وجهة، فأقعده مانع بوسط الطريق عن بلوغ وجهته، فلا هو باق على راحته فيستريح، ولا هو بالغ مقصده فينعم، شأن الأعمال البتراء، والتدابير الخالية عن السداد، وهذا الفريق ضره أقرب من نفعه، وخير منه من بقي على السذاجة، ولم يطرق أبواب مدارس التعليم، لأنه لا يدرك لحركات الدولاب الإداري معنى، ولا يتصور للترقيات الوقتية كنها" [20]

والحوار الصحفي الآتي يبرز موقف الحماية من تعليم الأهالي من جهة، وموقف النخبة المثقفة التونسية من التعليم من جهة ثانية.

محادثـــة مـهمـــة

نقول اليوم مقابلة أو حوارا بين شخصين حول بعض المسائل التي تشغل القراء، وسكان البلاد على السواء، أما علي بوشوشة فيسميه محادثة أو مباحثة، وقد جرت هذه المحادثة بينه وبين رئيس تحرير جريدة الدبيش تونيزيان LA DEPECHE TUNISIENNE الناطقة بلسان الإقامة العامة، تقول الحاضرة بعد أن قدمت للموضوع: "سألنا عن رأينا

في مسألة كلية، نرآها للشبان التونسيين حياتية، ولما لهذا

20) وجوب التعليم الحاضرة ع 466 بتاريخ 28 سبتمبر 1897

المبحث من الأهمية أردنا أن نلخص لحضرة القراء مضمون ما دارت عليه المباحثة، حتى يستدلوا من خلال سطورها على مقاصد هيئة تحرير هذه الجريدة نحو أهالي المملكة التونسية"

المحرر[21] ـ أيها الرصيف(يقصد بوشوشة) ما قولكم في المقالة التي برزت صبيحة هذا اليوم في جريدة الدبيش تونيزيان تحت عنوان (ما هي النسبة التي علينا أن نعلمهم ـ أي التونسيين ـ عليها؟) جوابا على مقالة في هذا الخصوص أدرجتها التونزي فرانسيز LA TUNISIE FRANCAISE [22] في الحث على حرمان أولئك التونسيين من نعمة التعليم العالي الموصل إلى النتائج الفكرية النافعة من طب وهندسة وخصام وتحرير، حيث رأى محرر هذه الجريدة أن نظام الحماية قاض بإبقاء التونسي دائما في دياجير الجهل، حتى لا يهتدي إلى الصواب والترقي الفكري سبيلا، يعامل معاملة البهائم، حتى لا يطمح إلى الاستقلال، ولا يتوصل إلى إنكار ما يلحقه من الأذى والمظالم .

الحاضرة ـ الرأي في هذه المقالة ما يراه كل عاقل متفقه في أسباب ترقي الشعوب وانحطاطها، فمن كانت له لمعة من نور العلم والتهذيب يسلم بأن الأمم لا تسعد ولا تهتدي إلى أسباب وجدانها إلا في ظل التعليم، وبنور المعارف التي أصبح تعليمها واجبا على كل فرد، فهل تنكرون أن الأمة الفرنسوية حلت بهذا القطر لبث أنوار العرفان، ونشر راية التمدن بين أهالي هذه المملكة، فكيف يمكن الجمع بين هذه الدعوة وبين قضية حرمان شبان التونسيين من التعليم؟

المحرر ـ نحن لم نقل بحرمان التونسي من كل تعليم، فإننا فضلا عن تلقيه مبادئ الفنون والأدب إلى درجة ابتدائية، نرى أنه لا بد من ترشيح أفراد للعلوم والدروس العالية، لكن بصفة استثنائية خاصة لا

---

21) هذا المحرر هو هنري تريدون Henri Tridon رئيس تحرير الدبيش تونيزيان ، ويعتبر من غلاة المعمرين والعضد الأيمن لزعيم المعمرين فيكتور دوكارنيار،إذ يشاركه في بغضه للأهالي وحرمانهم من كل الحقوق وخاصة في مجال التعليم، وتريدون هو مؤلف كتاب(كيف ستخسر فرنسا مستعمراتها) comment la France perdra ses colonies

22) الجريدة كما ذكرنا أعلاه لزعيم الحزب الاستئثاري (كما سمته مجلة الفجر فيما بعد)فيكتور دوكارنيار

عامة، لأن انتشار العلوم إلى درجة راقية من شأنه أن يثقف الأذهان، ويفتح البصائر، ويولد المطامح في الاستقلال بنفس المسلمين، لما هم عليه من صفات الرجولية والشجاعة وحب الجلاد والمحافظة على شعائرهم، بخلاف اليهود فهم لا وطن ولا مطامح سياسية لهم، وهم بكثرة تقليدهم وميلهم لمجانسة الأوروباوي كادوا أن يكونوا على صبغته، فنحن على خلاف رأي التونيزي فرانسيز نرى تقييد نشر العلوم العالية بخاصة الشبان لا حرمانهم بالكلية.

الحاضرة ـ كيف يسوغ ذلك التقييد والعلم نور ساطع لا يمكن إخماده، خصوصا لمن كان قادرا على اكتساب المعارف العالية من أفراد الناس، إذ في ذلك من إيغار الصدور، وجلب البغضاء ما لا يليق بدولة حرة قدوة الأمم في ميادين الترقيات الفكرية.

المحرر ـ لقد ضيق الانجليز من قبل دائرة ترقي شبان المصريين للعلوم العالية في مدارس الحكومة.

الحاضرة ـ ولكنهم لم يتمكنوا من منع النهضة المصرية التي أغنت الأمة عن مدارس الحكومة، بما أقامه أفراد نبهائها ونبلائها من المدارس في كل علم وفن، وعدلوا عن هذه السياسة في ممالك الهند، حيث قام أشراف القوم وسراتهم المدارس الكثيرة للعلوم العالية من قديمة وحديثة، وذلك لما أنهم رأوا هذه السياسة أكمل بالولاء وتعلق رعاياهم بحكمهم.

المحرر ـ بودنا أن لا نثقف أذهان عموم التونسيين بالعلوم العالية، ويتخرجوا أساتذة قادرين على النفع والانتفاع بتحصيلهم حتى نأمن مقاصدهم، ولا يسلكوا مسلك المكي كمون[23] في التحامل على الحكومة والنظامات التونسية.

---

23) المكي كمون، تلقى تعليمه بالمدرسة الصادقية، وسمي معلما، ولما أظهر عداءه للوجود الفرنسي بتونس فصل عن خطته، فا نتقل موظفا بإدارة الأوقاف، ثم غادر تونس واستقر بمصر ، وأخذ ينشر مقالات عنيفة ضد السياسة الاستعمارية بتونس، نشرها في جريدة المؤيد التي يمنع دخولها إلى تونس كلما نشر بها المكي كمون مقالاته، وكانت الأميرة نازلي فاضل متعاطفة مع كمون، فتوسطت له للحصول على وظيف بالإسكندرية، ولما سافر البشير صفر إلى مصر في أواخر سنة 1907 التقى مع قريبه المكي كمون، وكانت الشرطة الفرنسية بالمرصاد للبشير صفر، فسجلت لقاءه مع كمون في تقرير لها (انظر الحاضرة ص 358 وملف المكي كمون بالأرشيف الوطني رقم 1428)

الحاضرة ــ هذا كلام فيه نظر، فإن استكمال التعليم يقي النابغ من الأميال الباطلة، ويفرض عليه أن يسلك طريق الجد والعمل، فإن المكي كمون لو بلغ هده الدرجة لاعتكف على وظيفة العمل لصالحه، ولصالح عائلته وبلاده، ولم يتطرف في أقواله ولا أفعاله، وعليه فهو ثمرة ذلك التعليم الابتدائي الناقص الذين ترون تعميمه.

المحرر ــ فلو تجنس كل نابغ بالجنسية الفرنسوية لما أوجسنا منه أدنى خيفة، ولا ضربنا له حسابا، حيث يكون عضوا من العائلة الفرنسوية، يؤدي واجب الخدمة العسكرية من عهد الشبيبة.

الحاضرة ــ وهل تخوله هذه الصفة التساوي مع الفرنسوي في جميع الحقوق والمصالح بدون أدنى توقف، على أننا رأينا من خاصة الفرنسويين من لا يرى هذه المساواة مطلقا، ويعيب مجانسه بحداثة التجنس.

المحرر ــ ذلك لأنهم مع التجنس، وبعد أداء الخدمة العسكرية في الجيش، يعودون إلى عوائدهم، كلبس الطربوش، وربما لبسوه عثمانيا، وارتداء لباس البادية، والإقبال على الصلوات والأذكار.

الحاضرة ــ لعلكم تقصدون من التجنس ترك شعائر الدين، وتغيير الأزياء، ولو شاطركم المتجنس في أعز الامتيازات الوطنية، كمشاطرة اليهود لكم في الحقوق والمصالح الحياتية بتغييراتهم الصورية، فهل المخلص لكم من يتزي بأزيائكم، مع أن لبس الزنار لا يفيد الترهب، نعم هل تنطبق هذه الأفكار على حرية، إن لم نقل ترك التدين، ولو صدرت من مسلم لعدت من التعصب الذميم والتغالي الممقوت في عرف تمدن هذا العصر الذي ضيقت فيه الحكومة على مدارس الرهبان.

المحررــ نحن نقصد امتلاك القلوب، ولذلك نود لو يتنازل المسلم في الجنسية عن أحكام دينه الذاتية كالأنكحة والمواريث مما هو مصداق الحالة الشخصية.

الحاضرة ــ إذا كان القصد من التجنس هو تغيير الدين وأصوله الأساسية، بما يخرج المسلم عن دائرة دينه وملته، فهو مما لا يرغب

فيه مسلم ذو مروءة، لأن المارق عن دينه ممقوت عند الله، وعند الناس، ولو كان دخيلا فيهم، ثم أن التجنس بهذه الصفة قلب الهيئة الإسلامية بتغيير الأنساب والنسب في المواريث وحقوق الزوجية في التصرف ، إذ المرأة عندنا حرة لا تتوقف عن إذن زوجها في التصرف في مالها، بخلاف الفرنسوية فهي مقيدة بإذن زوجها، إلى غير ذلك من مسائل الأرحام والأنساب التي جاءت بها أحكام الشريعة الإسلامية المنزلة، فلماذا لا تتغير أحكام القانون الفرنسوي على معنى الأحكام الإسلامية؟

المحرر ــ الحق لكم في هذا المبحث، فإن نسبة المواريث مقصودة لإبقاء جل المواريث بيد الذكور، أعمدة العائلة، وهو ما قصده الانجليز من أحكامهم في هذا الباب، على أنه لا مانع من البحث عن طريقة للتوفيق بين مصالح الهيئتين الأهلية والفرنسوية، لدوام الألفة، وحسن المعاشرة، ونمو العمران في هذه الأوطان.

الحاضرة ــ ذلك أحسن مرغوب تتجه إليه المهج، وتنبسط له القلوب، ويا حبذا لو توسعت الجرائد المحلية في تحقيقه، غير أني أقول على وجه الإجمال: إن أكفل وسيلة لبلوغ هذه الأمنية هي حسن توزيع الفوائد والمغانم، وتقسيم المنافع المادية على صورة عادلة، توفر للأهالي حظا في فوائد القطر ومغانمه، حسية كانت أو معنوية، كالتوظف والمساعدات المادية والأدبية، والحث على الترقي في عالم التقدمات الفكرية ، مما هو مصداق المدنية[24]»

والناظر في موقف الإقامة العامة،التي تمثله الدبيش تونيزيان، وموقف المعمرين الذي تمثله لاتونيزي فرانسيز لا يرى كبير فرق، فهما متفقان على حرمان التونسي من التعليمين الثانوي والعالي، إلا لأفراد قلائل أظهروا حسن نواياهم للسلطة الاستعمارية، على أن موقف المعمرين كان واضحا وصريحا، وإن كان خاليا من اللياقة

24) الحاضرة ع 712 بتاريخ 9 سبتمبر 1902

والأدب مع الأهالي، أما الإقامة العامة فموقفها لا يخلو من مواربة وخداع ، كشأن السياسي الذي يظهر خلاف ما يبطن، ثم لا ننسى أن المعمرين كانوا فوق المقيم العام وأعوانه، وكانوا يتجهون رأسا إلى الدولة الفرنسية بباريس ، وكانت تعمل على تلبية مطالبهم، وكانوا عندها الطرف المدلل.

الحنق على الحماية

وإزاء حرمان الأهالي من نعمة التعليم، دعا علي بوشوشة الآباء إلى الكف عن إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، وتعليمهم حرفة أو صناعة يسترزقان منها في المستقبل، عوض هذا التعليم الذي لا فائدة ترجى منه، وهكذا تحول علي بوشوشة من طور التعاون مع الحماية لإنجاز مشاريعها الحضارية في تونس إلى طور الإعراض عن المشاركة في القيام بمصالحها الاستعمارية، وسيتحول هذا الإعراض فيما بعد إلى الحنق على هذا الوافد البغيض، والضيف الثقيل، ثم العزلة. وكيف لا يحنق، ويشتد غضبه وحنقه على سياسة الحماية، وسلوكها مع أبناء وطنه، ولم يجد في سياستها مصداقية ولا معقولية، فهي من جهة تمنع أبناء الأهالي من التعليم العالي، وكان هو من ضحايا هذا المنع، ثم من جهة ثانية تعلن أن المشاركة في الحياة السياسية من قبل أبناء الأهالي تستوجب كفاءة عالية في العلوم والمعارف، ودراية تامة بالمسائل التي تخص المصلحة العامة، فما السبيل للخروج من عنق الزجاجة ؟

لقد اتضحت الحقيقة أمام بوشوشة وأصحابه، لم يكن اسم الحماية التي بررت به فرنسا سياستها وحضورها بتونس سوى غطاء لين الملمس، أما في الواقع فهو استعمار واحتلال، ما في ذلك شك، وليس هناك كبير فرق بين احتلال الجزائر واحتلال تونس، ولعلها جنت من هذا الغطاء المخملي أكثر مما جنته من البلدان الأخرى التي استحوذت عليها، كما اتضح في الوثائق الرسمية لوزارة الخارجية الفرنسية التي نشرت في السنوات الأخيرة[25] فقد أكثرت

من الوعود، وأكثرت من التسويف، ثم أعلنها المعمرون صراحة، عندما قالوا على لسان زعيمهم فيكتور دو كارنيار: لم نأت إلى تونس قصد إعمارها، وإشاعة التمدن بين أبنائها، لقد دخلنا تونس فاتحين،ولا بد أن نجني ثمار هذا الفتح.

لم يندم علي بوشوشة على شيء في حياته كما ندم على تعاونه مع إدارة الحماية، كان يظن أن للحماية وجها واحدا، فإذا به يكتشف بعد ذلك أن لها وجهين، وجه تتظاهر به للتونسيين أنها حاميتهم، والمدافعة عن مصالحهم، وتعمل جاهدة على إسعادهم، ونشر الحضارة في بلادهم، ولا تريد بهم إلا الخير، وأن المقيم العام هو حامي جميع المتساكنين في هذا القطر، فاعتقد بعض المثقفين في سلامة نيتها، وحسن سلوكها مع الأهالي، ولكنها لا تستجيب لمطالبهم الخاصة بالتعليم، أو كف أيدي المعمرين على الاستيلاء على أراضي الاوقاف، أو حماية الصناعات الأهلية قمرقيا أو انتداب بعض ذوي الكفاءة من التونسيين في المصالح الإدارية، ووجه آخر حقيقي تبديه لمعمريها وجاليتها وحتى بقية الأوروبيين، وهو العمل على إرضائهم، وتوفير كل المرافق الضرورية، من بناء مدارس، ولو كان عدد الأطفال قليلا ـ حسب عبارة مدير إدارة العلوم والمعارف لويس ماشويل ـ وتعبيد الطرقات، لتسهيل الوصول إلى مزارع المعمرين، ومد السكك الحديدية لنقل إنتاجهم الفلاحي بين المدن، أو تصديره إلى خارج البلاد، ثم إنشاء برلمان صغير، يعرضون فيه على الحكومة المشاريع التي يحتاجونها، ويمنع على التونسي المشاركة في هذا البرلمان، وإن سمح لبعض التونسيين بعد ذلك بدخول هذا المجلس الشوري إلا أن هذا الدخول كان من باب تهدئة الخواطر، وإسكات الأصوات المنادية بالمشاركة السياسية للتونسيين أهل البلاد.

ولما تكشفت الحقيقة لعلي بوشوشة ورفقائه أدار ظهره لإدارة

---

25) راجع علي المحجوبي: انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ، تونس 1986 ص 163 (الملاحق)

الحماية، وسحب جريدته من المطبعة الرسمية، وشرع في تنبيه الأهالي إلى خطر الاستعمار على مستقبل هذه الديار، وأخذت الحماية تنظر إليه على أنه عدو للوجود الفرنسي بتونس، وأنه أصبح يمثل خطرا على سياستها، ولم يكفه ذلك بل أخذ يحرض قادة المغرب الأقصى على الوقوف صفا واحدا ضد الاستعمار الفرنسي، ويدعوهم إلى إنقاذ البلاد قبل فوات الأوان، وإلا فستقع في قبضة الاستعمار الفرنسي، كما وقع بالنسبة للجزائر وتونس، وعملت السلطة الاستعمارية على منع الحاضرة من الدخول للبلاد المغربية، ثم جاءت واقعة الجلاز فقضت على آمال بوشوشة، وعلى جريدته، وهكذا عرقلت الحماية مسيرة علي بوشوشة مرتين الأولى عندما حرمته من مواصلة تعلمه الجامعي بانقلترا، والثانية عندما قضت على الحاضرة، وخنقت أنفاسها إلى الأبد، وكانت هي المتنفس لديه للتفريج عن كربته، وصب جام غضبه على هذا العدو الجاثم على بلاده، بطريقة غير مباشرة في البداية، ثم لجأ إلى المواجهة في آخر الأمر.

ترحيب بالحماية وإعراض عنها، ثم الحنق عليها أخيرا، تلك هي قصة علي بوشوشة مع إدارة الاستعمار، وهي في الحقيقة قصة الشعب التونسي برمته، ولئن انزوى علي بوشوشة في مزرعته، بعد احتضار الحاضرة، وأخذ يقاوم عدوا جديدا سيقضي على حياته هذه المرة، وهو مرض السكري، فإن من أتى بعده سيواصل الحنق والغضب، وسيتحول هذا الغضب إلى مقاومة مسلحة، لأن من دخل بالقوة لا بد أن يخرج بالقوة، وهو ما وقع في تونس بعد ذلك.

وتبقى حياة علي بوشوشة وجريدته شاهدة على مدى المعاناة التي لاقاها المثقفون الذين لا حول لهم ولا قوة، على أن هذا لا ينفي أنهم وقفوا أمام العاصفة، بكل ما أوتوا من قوة، وأعلنوا حضورهم في الساحة، والوقوف والحضور في حد ذاته لون من ألوان المقاومة، وضرب من ضروب القيام بالواجب.

علي بوشوشة بعد احتجاب الحاضرة

إن الفترة الممتدة بين احتجاب الحاضرة ووفاة صاحبها (1911 ـ 1917) تكاد تكون مجهولة لدينا، فكل ما نعرفه عنه أنه اهتم بمزرعته في عين عسكر، وما لبثت أن قامت الحرب العالمية الأولى، هذا بالإضافة إلى أن البلاد كانت منذ سنة 1912 تعيش في حالة حصار، فالسائد في البلاد هو القوانين العسكرية، ومع ذلك فقد أمدنا ابنه فتحي بوشوشة ببعض المعلومات نذكرها هنا بشيء من الحذر والاحتراز، فالرجل لم يعرف والده، هذا أولا، وثانيا يبدو لنا من حديثه أنه لا يهتم بماضي أبيه، ولا يهمه في قليل أو في كثير، فالرجل لا تهمه إلا أرضه وفلاحته، قال لنا: إن والده كان يختفي بضيعة بجهة سكرة قرب العاصمة، تابعة لأحد أصدقائه، كلما أحس بأن السلطة الاستعمارية تطلبه، وعندما يتدخل الباي محمد الناصر لفائدته يعود إلى الظهور، وقال: إن الكاتب العام للحكومة عرض عليه خطة قائد بصفاقس، ليعيش من جراية هذه الخطة، كما فعل البشير صفر، فاعتذر عن قبول هذا المنصب ، وقال إنه يستطيع أن يعيش من الفلاحة، والحق أن إدارة الحماية كانت تعتبره من المناوئين لها منذ خروج الجريدة من المطبعة الرسمية، ومنذ بدأ يهاجم سياسة فرنسا في المغرب الأقصى، فكيف تعينه عاملا على صفاقس؟ وذكر لنا ابنه أن الشاعر عبد السلام البكوش (1871 ـ 1946) كان يقرأ له ببيته بالمرسى ردود علي بوشوشة على الكولون فرانسيز (Le Colon Français) وهي المنشورة على صفحات الحاضرة، ونذكر أن ابنه فتحي هذا توفي والده وعمره ثلاثة أشهر، فلا شك أن البكوش كان يذكره بأعمال أبيه ونضاله بالقلم ضد المعمرين.

وفــــاتــه

أقبل علي بوشوشة بعد توقف جريدته على أعماله الفلاحية، وفي أثناء ذلك أصيب بمرض السكري، كما ذكرنا، فقضى عليه هذا الداء الخبيث، وتوفي، وهو في السادسة والخمسين من عمره، يوم

السبت 11 أوت 1917 ودفن من الغد ـ يوم الأحد ـ أي يوم 12 أوت.

نعت جريدة الزهرة علي بوشوشة بقولها:" وبعد زوال أمس أيضا(السبت) استأثرت رحمة الله برصيفنا(أي الزميل في مهنة الصحافة) الفاضل الأكتب الوجيه السيد علي بوشوشة، وقد وافاه الأجل المحتوم عقب اشتداد مرض البول السكري به، وعند ظهر هذا اليوم(الأحد) يحتفل بتشييع جنازته إلى المقبرة، أكرم الله لقياه، وجعل الفردوس مأواه ومثواه، وألهم بنيه وذويه الصبر، ومنحهم وافر الأجر"[26]

ولم ينس مدير الزهرة أن يتحدث عن جنازة صديقه، فكتب محرر الزهرة يقول تحت عنوان (جنازة المرحوم السيد علي بوشوشة): " شيع يوم الأحد خلق عظيم من الوجهاء والأعيان، وفي مقدمتهم وزير القلم، وشيخ المدينة(...) وكلهم آسف لفقد هذا الفاضل، الذي هو من أعظم نبغاء التونسيين، الذين أنبتتهم رياض المدرسة الصادقية، كان برد الله ثراه كاتبا بليغا متضلعا من عدة لغات، قد خدم أمته وبلاده خدمة صادقة بجريدته الحاضرة نحو ربع قرن، مع محافظة تامة على الآداب الإسلامية وغيرة جنسية، وأوقف نفسه لإفادة أبناء جلدته بما ينفع في الدارين، وما زال ذلك ديدنه إلى أن اقتضت ظروف الأحوال تخليه عن وظيفته الصحافية، فانقطع يومئذ لأشغاله الخصوصية، وتنمية ثروته بكد واجتهاد بالرغم من تغلب مرض البول السكري عليه إلى أن حضره أجله المحتوم عن سن يناهز الستين(؟)" [27]

ولكن عمر بن قفصية يذكر أنه توفي يوم 18 أوت 1917 [28] ولا ندري من أين استقى زيادة هذا الأسبوع في حياة بوشوشة، وقد ذكرنا هذا التصويب، لأن بعض من عرفة عن قرب[29] وكذلك من عرف به مؤخرا، جاراه في هذا التاريخ[30]

---

26) الزهرةع2987 بتاريخ 12 أوت 1917

27) الزهرة ع 2989 بتاريخ 14 أوت 1917

28) انظر: أضواء على تاريخ الصحافة التونسية دار بوسلامة تونس 1972 ص 55

وهكذا ودعت تونس العاصمة ابنها علي بوشوشة، الذي أفنى شبابه وكهولته في خدمة وطنه، عن طريق جريدته أولا، ثم مشاركته في الجمعيات الثقافية والمؤسسات التربوية التي أنشاها مع أصحابه ثانيا.

وقد أوقف حياته وشبابه، وكل ما يملك من عواطف ومشاعر لجريدته،التي كانت منبرا يعرض فيه آراءه كل أسبوع، وينفث ما يجيش بصدره من حرقة على وطنه المغتصب بأهله وأراضيه، والعمل على المس بمقوماته الثقافية والدينية، ولم تكن وطأة الاستعمار هي وحدها التي تؤذيه، وإنما كان يؤذيه أكثر حال شعبه، وميله إلى الكسل والخمول، والرضى بالدون، والتمسك ببالي العادات، والاعتقاد في الأولياء والتمسح بقبورهم.

وقد رثاه محمد الجعايبي صاحب جريدة (الصواب) ومجلة (خير الدين) فقال (طويل):

رَحلْتَ وأنْتَ فِي حلْىَ الصدّْقِ رافلُ ... وربُّكَ بالإحْسَانِ كافٍ وكافِلُ
خَدَمْتَ بِلاَداً أنْبَتَتْكَ بِهِمَّةٍ ... تَدُكُّ الرَّواسِي وهيَ لاَ تتَضَاءلُ
تعشَّقْتَها طِفلاً وكَهلاً ويافِعا ... فَمَا لكَ مِنْ بَعْدِ التَّعَشُّقِ راحِلُ
ألَمْ تَرْضَ مَا قَدْ حلَّ فِينَا مِنَ الخَذَى[31] ... ورَاعكَ أنَّ الرأيُ فِي الشعْبِ فَائِلُ
فإِنْ كان هذا فلْتَعُدْ والذِي تَرَى ... يكُونُ وَكلُّ طوْعَ مَا آنت قَائِلُ
بلُى قَدْ رَحَلْتَ لاَ لِهذاَ وَغَيْرِهِ ... ولكِنْ لأمْرٍ دُونَهُ الفِكْرُ غَافِلُ
فَقَدْنَا بِكَ الإخْلاَصَ والقلَمَ الذِي ... هُوَ السيَفُ إلاَ أنَّهُ لاَ يُقَاتِلُ
فكَمْ قَدْ وَقَفْتَ فِي رِضَى الحَقِّ وقْفَةً ... رَوَاهَا لكَ التَّاريخُ والدَّهْرُ نَاقِلُ
سُطُورٌ علَى القِرْطَاسِ خُطَّتْ كأنَّمَا ... حُصُونٌ مِنَ الأفكَارِ فيهَا جَحَافِلُ

29) نعني الصادق الزمرلي، راجع : أعلا م تونسيون تعريب حمادي الساحلي ص 139
30) راجع أبو القاسم محمد كرو: حصاد العمر مج 2 ط دار المغرب العربي تونس 1998 ص 172 ومحمد حمدان:أعلام الإعلام ط تونس 1991 ص 49
31) الخذى: الضعف والذل

فقدناك يا شيخ الصحافة عندما تحكم فينا اليأس واليأس قاتل
وقدما عرفناك إلى الحق داعيا ولكن أمر الله لا يتثاقل
رثاؤك مفروض علينا وكلنا أسيف لسيف حكمته الغوائل
فنم في جوار الحق نوم مؤمل رضاه لتحظى بالذي أنت آمل
وقل رب زدني من عطاياك منحة فما خاب مضطر لديك وسائل[32]

صورة علي بوشوشة

إن النشاط الثقافي المتنوع الذي قام به علي بوشوشة، وخاصة إدارته للجريدة، وقيامه بفلاحته في مزرعته بعين عسكر، تدل على أن الرجل كان كثير الحركة والنشاط، ومالكا لروح المبادرة ، وكان له حسن القبول عند عارفيه، وقراء جريدته، فقد كان الرجل يقتلع غالبية أصوات الناخبين في الجمعية الخلدونية طيلة السنوات التي كان عضوا بها، ومدرسا لطلبتها ، وكان يتفوق على البشير صفر مؤسس الخلدونية من حيث عدد الأصوات، وكان الرجل يمتلك ثقافة واسعة، فإلى جانب حذقه لكثير من اللغات، كان مطلعا على الأدب العربي، وله باع في الثقافة الإسلامية لا يستهان به " ولعل هذه السمات هي التي جعلت النخبة التونسية تلتف حوله لإصدار أول جريدة إصلاحية تونسية، بعد جريدة الرائد التونسي التي تصدرها الحكومة"[33]

ويبدو من خلال الصور التي وصلتنا عنه أن الرجل يحمل هموما كثيرة وأن سحنته لا تخلو من حزن وكآبة، ولعل من عاش معه، وتعرف إليه عن قرب يستطيع أن يصف شخصه، ويبرز مميزات هذه الشخصية التي كانت فاعلة في عصرها، وبقي لها الذكر الحسن بعد عصرها، يقول معاصره وصديقه الصادق الزمرلي: " لقد كان الرجل

32) الزهـــرة ع 2989 بتاريخ 14 أوت 1917 (جنازة المرحوم السيد علي بوشوشة

33) حمدان : أعلام الإعلام ص 47

معتدل القامة، وكانت مشيته المتباطئة والمتصنعة شبيهة بمشية الرجال الأشداء الواثقين بأنفسهم، وكانت نظرته الساخرة والثاقبة مختفية وراء حاجبين بارزين قليلا، يظللهما حاجبان مشعان يخففان من حدة تلك النظرة وصبغتها الثاقبة، وكانت تعلو محياه ابتسامة وديعة، تحجبها شوارب مشعثة ومتدلية، فتلطف مما يبدو على وجهه من غلظة وعبوس»[34]

وكان الرجل يضع فوق رأسه الشاشية التونسية بالكبيطة أو الطربوش، وله تعلق بالعادات والعوائد التونسية باعتبارها تعبيرا عن الروح الوطنية التي تأبى الذوبان في الآخر.

34) أعلام تونسيون ص 133

آثـــــاره

إذا لم يترك علي بوشوشة بعد رحيله عن الدنيا سوى افتتاحياته لجريدة (الحاضرة) الناطقة عن حبه لبلاده، وتمحضه النصح لساكنيها، فيكفيه ذلك، ليخلد في تاريخ الحركة الأدبية والفكرية بتونس، ولكن قبل أن نتحدث عن هذه الافتتاحيات أوالمقالات نشير إلى أن لبوشوشة بعض الآثار الأخرى، كالترجمة من الفرنسية إلى العربية والعكس، فقد ترجم قصيدة محمد السنوسي في برح ايفل ومطلعها:

لَم يبْدِعِ أبدع مما كان مكان   بما أفادته أزمان وإِمْكَان

ونشرتها جريدة " لو فيغارو Le Figaro " الفرنسية، فقد جاء في جريدة الحاضرة قولها:"أدرجت جريدة الفيغارو، إحدى مشاهير الجرائد الفرنسية المنطبعة ببرج ايفل، ترجمتنا للقصيدة التي نظمها الشيخ محمد السنوسي في البرج المذكور، وترجم لكل من الناظم والمترجم بعبارات تشف عن مزيد استحسانه لتلك الأرجوزة، وما تضمنته من المعاني الرائقة والعبارات الفائقة، نشكر صاحب الجريدة على ذلك الشكر الجزيل"[1]

وكان بوشوشة ينوب الكتاب والصحافيين التونسيين في الترحيب ببعض الأدباء الفرنسيين الذين زاروا تونس في أواخر القرن التاسع عشر، مثل الأديب الفرنسي الشهير (غي دي موبسان Gy De Maupassant) فقد احتفت بمجيئه إلى تونس سلطة الحماية، وأقام له أعيان الفرنسيين بتونس وليمة حضرها أكابر الموظفين من تونسيين وفرنسيين، وأسمعوه كلمات التمجيد والتقدير، وخاطبه السيد علي بوشوشة مدير جريدة الحاضرة بعبارات لطيفة بالنيابة عن الشبان التونسيين[2]

---

1) الحاضرة ع 54 بتاريخ 6 أوت 1889

2) الحاضرة ع 25 بتاريخ 15 جانفي 1889

وقد ترجم جزءا هاما من كتاب البشير صفر (الجغرافية عند العرب) في (الحاضرة)[3] وذكر أبوالقاسم محمد كرو أ نه عثر على ترجمة لكتاب (مرض العينين والكحل عند العرب) للطبيب الجزائري قدور ابن العربي، قام بها علي بوشوشة، والكتاب رسالة جامعية أنجزها الطبيب المذكور، عند تخرجه من كلية الطب بباريس[4].

كما أن له بعض الأشعار، ومنها هذه القصيدة في تهنئة محمد الهادي باي عند ارتقائه إلى العرش الحسيني (1902) وهي (من الطويل):

تَنَبَّهَ جَفْنُ الدَّهْرِ مِنْ بَعْدِ مَا غَفَا ... وَفَاضَ مَعِينُ الفَضْلِ مِنْ بَعْدِ مَا جَفَا
وَنَادَى مُنَادِي البِشْرِ أنَّ مُحَمَّدًا ... علاَ دستَ هَذَا المُلْكِ واسْتَكْمَلَ الوصْفَا
وأَصْبَحَتِ الخَضْرَاءُ تَزْهُو بِذَاتِهِ ... وزَادَتْ مِنَ الأفْرَاحِ عَمَّا مَضَى الضِّعْفَا
وَسُرَّ عِبَادُ اللَّه طُرًّا بِبَيْعَةٍ ... شَرِبْنَا عليْهَا مِنْ كَمَالاَتِهَا وَصْفَا
وَنَارَ بِهِ كُرْسِيُّ الإمَارَةِ مُذْ غَدَا ... يَتِيهِ بِهِ عِزًّا فَابْشِرْ بِهِ ألْفَا
تَرَى حَوْلَهُ الأطوادَ دارَتْ كَهَالَةٍ ... وأنْتَ بِهَا بَدْرٌ تَكَامَلَ لَنْ يَخْفَى
فَأبسطَتْ لِلتَّقْبِيلِ كَفًّا كَرِيمَةً ... فَابْشِرْ بِهَا رَاحًا وأَنْعِمْ بِهَا كَفَّا
تَرَى النَاسَ فَرْضًا لَثْمَهَا اليَوْمَ وَاجِبًا ... وَمِنْ ذَلكَ التَّقْبِيلِ يَجْنِي الفَتَى قَطْفَا
وَلُحْتَ كَشَمْسِ الفَجْرِ فِي أفْقِ تُونِسَ ... تَرَى حَوْلَكَ الأقْمَارِ قَدْ ضَرَبَتْ صَفَّا
جُنُودًا كَسَاهَا الفَخْرُ أعْظَمَ هَيْبَةٍ ... حَمَتْ قَمَرَ الأُفْقِ الذي لَنْ يَرَى خَسْفَا
حكَمْتُ عَلَى نَفْسِي وإِنْ كُنْتَ قَاصِرًا ... بِأنْ هَنَاكُمْ مَا تَرَكْتُ لَهُ حَرْفَا
أَرَاهُ مِنَ الأمْرِ الذِي هُوَ وَاجِبٌ ... عَلَى كُلِّ مَنْ يُنْشِيءُ القَرِيضَ وَمَنْ كَفَّا
ولَكِنَّنِي مَا قُمْتُ بِالأَمْرِ كَامِلاً ... وَمِنْ بِهَنَاءِ المُلْكِ وَالمُلْكِ قَدْ وَفَّا

3) انظر الحاضرة ابتداء من العدد 791 الصادر يوم 26 أفريل 1904 وما بعده، وقد ترجمه حمادي الساحلي ونشرته دار الغرب الإسلامي بيروت 1984 وقد علقنا على ترجمة هذا الكتاب بجريدة الصباح بتاريخ 4 جوان 1985

4) أبو القاسم محمد كرو: حصاد العمر مج 2 ص172

وآخرُ قَوْلِي فِي هنَائِكَ سَيِّـــــدِي خِطَـــابٌ يلِي هَـــذَا وَيَسْتَكْمِلُ الظَّرْفَا
ألا أيُهَا الشَهْمُ الهُمَامُ مُحَمَّـــــــدٌ تَــدُومُ لنَا ملِكًـــا وتَبْقَى لنَا كَهْفَـــا[5]

أما أثره الذي خلد به اسمـه في تاريخ الثقافة الوطنية، وفي مجال الصحافة بالذات فهو جريدة.

الحـــاضرة

من حسن الصدف أن الصحافة التونسية بدأت على أيدي مصلحين كبار وكتاب مشهورين، وكلهم بلا استثناء يعتبرون من رموز النهضة في تونس، أرادوا النهوض بالمجتمع التونسي " على أساس قراءة صحيحة للإسلام، وتفتح على العلوم التي كانت سببا في تقدم الغرب، لذلك كان رواد الصحافة التونسية الذين ساهموا في تحرير الرائد التونسي، ثم في تحرير جريدة الحاضرة من النخبة المثقفة التونسية، تميزت بتوجهها الإصلاحي، وبتحملها لمسؤوليات إدارية في جهاز الدولة، كما كانت هذه النخبة موالية للسلطة العثمانية ومتفتحة على العالم الإسلامي خاصة، وعلى العالم الخارجي بصفة عامة، وكان رواد الصحافة يتقنون العديد من اللغات الشرقية والغربية إلى جانب انتمائهم للحركات الإسلامية الإصلاحية مثل جمعية العروة الوثقى، وتميز خلال هذه المرحلة الأولى من ظهور الصحافة رواد مثل الجنرال حسين ومحمد بيرم الخامس ومحمد السنوسي، كما كان علي بوشوشة والبشير صفر من مؤسسي جريدة الحاضرة"[6]

الحاضرة: البداية والنهاية

جريدة الحاضرة أسسها علي بوشوشة، مع رفقائه البشير صفر

5) الحاضرة ع 700 بتاريخ 3 جوان 902
6) محمد حمدان، أعلام الإعلام ص 29

ومحمد ابن الخوجة وخليل بو حاجب والمنوبي بوسن ويونس حجوج وغيرهم [7] ويعنون (بالحاضرة) مدينة تونس: إذ كانوا كلهم مقيمين بها،أو يترددون عليها باستمرار، وقد ساعدهم على ظهورها القانون الذي أصدره المقيم العام ماسيكو، وهو صحفي قديم كان يعمل بالجزائر، وهذا القانون يسمح للصحف، بالبروز مهما كان مشربها ولغتها[8] وهدف هذا المقيم من إصدار هذا القانون أن يطبع عهده ظاهريا بلون من حرية النشر والتعبير، ولعله كان يريد أن يتعرف على توجهات المثقفين التونسيين، ومواقفهم من الوجود الفرنسي بتونس، فصدرت جريدة الحاضرة بعد سبع سنوات من انتصاب الحماية، من قبل جماعة من الوطنيين المتخرجين من المدرسة الصادقية، وبمباركة من بعض شيوخ الزيتونة المتنورين، من أمثال سالم بوحاجب (توفي 1925) وبتشجيع من محمد السنوسي (توفي 1900)الذي كانت له خبرة في مجال الصحافة، من أيام إدارته للرائد التونسي بين سنتي 1876 و1881

والحق أن أول جريدة عربية غير رسمية، ليست (الحاضرة) ـ كما ساد في أذهان بعض الكتاب والباحثين ـ وإنما أول جريدة عربية هي(نتائج الأخبار) لحسين المقدم[9] فقد صدرت قبل الحاضرة بنصف سنة [10]

7) انظر بحثنا: الحاضرة ص 72

8) ألغى به القانون الذي أصدره المقيم بول كامبون المؤرخ في 14 أكتوبر 1884والذي يضيق الخناق على صدور الصحف إذ يشترط في فصله الثاني ضمانا ماليا قدره ستة آلاف فرنك بالنسبة للصحيفة السياسية، وثلاثة آلاف فرنك بالنسبة لغيرها من الصحف، راجع: الحاضرة ص 54

9) الحاضرة ص 61 وانظر البشير الفورتي: المرحوم حسين المقدم المجلة الزيتونية مج 5 ص 470

10) ظهر عددها الأول يوم 6 جانفي 1888 وعددها الأخير يوم 12 ماي من نفس السنة وهي صحيفة إخبارية تتحدث عن أغراض الحماية وتدافع عن مصالحها، فهي بهذا المعنى ليست بجريدة وطنية، وقد أخذنا هذه الملاحظات من الجذاذات الموجودة بمكتبة الخزينة العامة للدولة التونسية التي تحولت إلى الأرشيف الوطني، راجع حمادي الساحلي : حسين المقدم رائد من رواد الصحافيين الجربيين بتونس في آخر القرن التاسع عشر في أعلام من جزيرة جربة ص 174 ـ 186 ط تونس دون تاريخ

بينما صدرت (الحاضرة) في 2 أوت 1888[11] بعد أن تقدم علي بوشوشة بطلب في الترخيص له لإصدار صحيفة عربية في رسالة وجهها إلى الكاتب العام للحكومة برناررروا Bernard Royفي 13 أفريل 1888[12]

هذا من حيث بدايتها، أما تاريخ اختفائها فيحتاج إلى توضيح، فمن المعلوم أن(الحاضرة) قد توقفت عن الصدور نهائيا في شهر نوفمبر 1911 أعني أن آخر عدد صدر من هذه الجريدة كان بتاريخ يوم الثلاثاء 7 نوفمبر1911 (أي يوم واقعة الجلاز بالذات) وليس سنة 1910 كما ذكر زاد وسكي[13] وأخذت عنه دائرة المعارف الإسلامية[14] وليس كذلك سنة 1915 كما أشار الزمرلي[15]، والغريب في الأمر أن الزمرلي من جماعة الحاضرة، ومن أعضاء حركة الشباب التونسي، فكيف يخطئ في تاريخ اختفاء الحاضرة، وهو الذي كان يمدها ببعض مقالاته أو اختياراته الأدبية من خلال مطالعاته في الصحف الشرقية، وتهتم الجريدة من جهتها بنشاطه الثقافي، من دلك مشاركته في مؤتمر شمال إفريقيا الذي انعقد في باريس (أكتوبر1908) بتقرير حول تعليم المرأة المسلمة[16] وقد جاراه الكثير من الباحثين في هذا

---

11) اعتمدنا هذا التاريخ (أي تاريخ البداية: 2 أوت 1888) بالرجوع إلى العدد الأول أولا، ثم ما ذكره الفاضل ابن عاشور في: الحركة الأدبية والفكرية ط2 تونس 1972 ص 65 ومحمد الصالح المهيدي في مجلة الإذاعة ع فيفري ع 459 فيفري 1980ثانيا، ولا عبرة بما قاله بوفا Bouvat من أن الحاضرة صدرت سنة 1887(مجلة R M M أكتوبر1908 ص 343) ونقل عنه:

Lambert Dictionnaire p 71
Arrous: Livre d'or p 4
Sayadi (Monji): La première Association Nationale Moderne en Tunisie Al-jam yyaAl- khalduniyya (1896-1958) MTE Tunis 1974 p207

غير أن الصيادي عاد،فذكر التاريخ الصحيح في كتابه المذكور(ص 43) إلا أنه اخطأ في الشهر الهجري، فعوض ذي القعدة ذكر ذي الحجة.

12) انظر ملف الحاضرة سلسلة E كارتون 531 ملف 24 الصحافة التونسية الأرشيف الوطني وثيقة رقم 29

13)V. Zawdoski Index de la presse indigène de la Tunisie in Revue des Etudes Islamique (REI) Année 1937 cahiers IV p 358

14) فصل (جريدة) كتابة رئاسة التحرير ط جديدة مج 2 ص 482

15) Zmerli Sadok Les Successures p 41

16) الحاضرة ع 1005 بتاريخ 15 ديسمبر 1908

التاريخ - أي اختفاء الحاضرة سنة 1915 - [17]

والدليل على أن آخر عدد للحاضرة هو المشار إليه، ما نشره الرائد التونسي الصادر يوم 8 نوفمبر 1911 ونص القرار: " أما بعد فإنه بعد اطلاعنا على الأمر العلي المؤرخ في 14 أكتوبر 1884الواقع تنقيحه بالأمر العلي المؤرخ في 6 ماي 1893 وبما أن نشر الجرائد الأهلية، ربما يكون في الحالة الراهنة من شأنه إحداث تكدير للراحة والأمن العموميين أصدرنا قرارنا هذا بما يأتي:

حجرنا طبع ونشر وجولان الجرائد الأهلية بالحاضرة، عدا جريدة الزهرة اليومية"

وهكذا فإن الجرائد العربية الأهلية، بما فيها الحاضرة، قد اختفت باستثناء جريدة الزهرة المذكورة في هذا القرار [18]

الحاضرة تصدرها شركة مساهمة

اجتمع ثلة من الوطنيين، على رأسهم محمد البشير صفر، للنظر فيما يفيد البلاد، في عهدها الجديد، ففكروا في بعث صحيفة وطنية،على أن يشارك كل فرد بمبلغ من المال، بعنوان مساهمة، وتوزع الأرباح، فيما بعد، على المساهمين، وهم قرابة العشرين شخصا، منهم:على بوشوشة، والبشير صفر، ومحمد ابن الخوجة، وخليل بوحاجب، ورشيد بوعمود، وحسن بلوحشية، وغيرهم، ونصبوا علي بوشوشة مديرا لجريدتهم، بعد أن استقال من عمله بالإدارة: إذ لا يسمح قانون الصحافة للمتوظفين بإصدار الجرائد، كما ألمعنا أعلاه، ثم وضع الجماعة القانون الأساسي لجريدتهم، أو شركتهم، الذي يتكون من اثني عشر فصلا، وتتعلق هذه الفصول " ببيان دور المؤسسين، وتمويلهم للصحيفة، ومراقبة حساباتها

17) كرو : مرجع مذكور ص

18) نعم واصلت جريدة التونسي بالعربية ظهورها حتى منتصف مارس 1912 ولكن صاحب امتياز هذه الجريدة هو فرنسي

المالية، وتوزيع الأرباح"[19]
وبعد ثلاثة أشهر من تقديم الطلب، إلى الكاتب العام للحكومة [20] ظهرت جريدة الحاضرة يوم الخميس 24 ذي القعدة 1305الموافق 2 أوت 1888 وتواصل صدورها يوم الخميس من كل أسبوع لمدة شهرين، ثم اتخذت يوم الثلاثاء موعدا للصدور، إلى أن اختفت، وقد تبرز في غير هذا اليوم لأسباب طارئة.

أركـان الجـريـــدة

تتكون الجريدة من أربع صفحات كبيرة الحجم (قياس : 5،39 ط 55 صم) وذات أركان واضحة، فالصفحة الأولى للافتتاحية، ويحررها عادة علي بوشوشة، ويساعده من حين لآخر البشير صفر، ومحمد ابن الخوجة وغيرهما، وتكفل في بداية انطلاقة الحاضرة محمد السنوسي بكتابة مجموعة من الافتتاحيات، نشرها، فيما بعد، في كتاب سماه (الرياض الناضرة بمقالات لحاضرة)[21]

أما ركن الحوادث الخارجية فيتعلق بأخبار الدولة العثمانية عادة، وقد بقي هذا الركن، الذي هو من تحرير علي بوشوشة، منذ صدور الجريدة حتى اختفائها، نافذة يطل منها القارئ التونسي كل أسبوع على أخبار الدولة العثمانية، وصراعها مع الدول الأوروبية، وخصصت الركن الثالث للأخبارالمحلية، وهو باب يهتم بأحداث المملكة التونسية، في المجال السياسي والاجتماعي والثقافي، ويتعلق بصورة عامة بنشاط المقيم العام والباي والوزراء والعمال، ويحرره غالبا محمد ابن الخوجة، وأخيرا الإعلانات ـ أو كما يسميها علي بوشوشة الإشهار ـ وهي تهم مصنوعات تتعلق بالفلاحة

19) الحاضرة ص71 وانظر ملف الحاصرة سلسلة كارتون 531 ملف 24 الصحافة التونسية وثيقة رقم 342 بالأرشيف الوطني التونسي.وراجع للمؤلف : صفحات مطوية من تاريخ الصحافة التونسية مج الحياة الثقافية ع 21 سنة 1982

20) قدم الطلب كما أشرنا أعلاه يوم 13 أفريل 1888 راجع ملف الحاضرة الوثيقة رقم 129

21) وهو كتاب مفقود تسنى لنا جمعه ثم التقديم له والتعليق عليه، وقد نشر أخيرا في سلسلة (ذاكرة وإبداع)النابعة لوزارة الثقافة2001 بإشراف الأستاذ عبد الوهاب الدخلي

والصحة والفنون[22] والثقافة كالآلات الفلاحية والأراضي الزراعية[23] والأدوية والاسطوانات والكتب والصحف الشرقية خاصة(23م) وللإعلانات عائدات مالية تساعد الجريدة على توفير نفقات الطبع.

ووفرة الإعلانات في جريدة الحاضرة وكثرتها يدل على دخول المجتمع التونسي في منظومة المجتمعات التي تعتمد الاستهلاك، بعد أن كانت من المجتمعات التي تعتمد الكفاية : كما تدل هذه الإعلانات على كثرة البضائع والمصنوعات الأوروربية التي غزت تونس في اواخر القرن التاسع عشر

ومعلوم أن الجرائد في ذلك العهد، ومنها جريدة الحاضرة، تعتمد في ترويجها على الاشتراكات، ولا تباع مباشرة، إلا بالنسبة لأعداد قليلة، وكان المشتركون يتلددون في دفع ما بذمتهم للحاضرة، فتلجأ الجريدة إلى إسقاط أسمائهم، وهؤلاء إذا انقطع عنهم الاشتراك، ربما اضطروا إلى اشتراء الجريدة أسبوعيا[24] وذكر في التقرير الخاص بتجديد الحاضرة (سنة1900)

" أن غالب المشتركين لا يوازي إقبالهم على مطالعة الجريدة، إلا تقاعسهم عن دفع قيمتها الزهيدة "[25] وقد تذمر بوشوشة من هؤلاء الناس الذين يريدون أن تصلهم الجريدة مجانا[26].

---

22) مثال: تعلن ست عفيفة، درست فن الألحان بدار الفنون الملكية برومة، بأنها مستعدة لتعليم البيانو والرباب بأثمان مهاودة، فمن كان له غرض في ذلك فليسأل عنها في محلها الكائن بزنقة الحلوف، قرب سيدي المرجاني بتونس (ع 173 بتاريخ 1 ديسمبر 1891)

23) مثل: يعلن المسيو فورتوناتوان أن تحت يده عشرة الآف فرنك يريد قرضها لمن يريد أن يرهنه في ذلك هنشيرا صالحا للفلاحة بوطن تونس أو إفريقية، فمن له رغبة في ذلك فليخابر إدارة الجريدة بمحلها المعروف(ع158 بتاريخ 11 أوت 1891)

(23 م) حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي محرر بمصباح الشرق يطلب من صاحبه بالعباسية بمصر، وتعين المكتبة التي تباع بها مجلة المنار لمحمد رشيد رضا

24) انظر ملف الحاضرة وثيقة رقم 33

25) نفس الوثيقة

26) كان بوشوشة يشكو من قراء الجرائد في عصره عامة، ويتذمر من مشتركي الحاضرة خاصة، كأن يقول:" من الناس من يظن ــ وبعض الظن إثم ــ أن ثمن الجريدة ليس حقا واجبا عليه أداؤه، فتراه يسوف ويماطل ويتعلل ويحاول، فتمضي السنة والسنتان، أو أكثر، وهو يتناول الجريدة بشوق وارتياح، وإذا طولب بثمنها وعد المواعيد الفارغة، التي دونها مواعيد عرقوب، وغير خاف أن مشتركي الحاضرة هم من علية القوم وخواصهم، وأكثرهم لا يتأخر عن أداء القيمة... لكن هناك فئة من الناس تلذ لهم المماطلة والتسويف، وهضم الحقوق فيما يظهر، فنحن بكل أسف نخاطب هؤلاء القوم علنا، أن الجريدة في غنى عن كل مشترك، لا يرى ثمن الجريدة حقا واجبا عليه أداؤه، وأنها لا تكرم فيما بعد من لا يكرم نفسه، بأداء حقوقها، فهي تنشر بعد شهر واحد من هذا البيان اسم كل من لم يؤد القيمة، ليعرف الناس مبلغ احترام الحقوق"(ع1089 بتاريخ 7 فيفري1911).

المطابع التي طبعت بها الجريدة

وطبعت الحاضرة في أربع مطابع[27] وهي المطبعة العالمية (الأعداد الثمانية الأولى) والمطبعة الرسمية (913عدد) ومطبعة بيكار (10اعداد) والمطبعة العربية التونسية (180عدد) فيكون مجموع ماصدر منها من أعداد(1111) وقد صدر آخر عدد لها بتاريخ يوم الثلاثاء 7نوفمبر 1911 كما ذكرنا أعلاه.

مراجعة سير الجريدة

كان في الحسبان أن توفر هذه الشركة أرباحا للمساهمين فيها، إلا أنه تبين بعد أكثر من عشر سنوات على ظهورها (1900) أن المصاريف تجاوزت المداخيل، فحزمت أسرة الحاضرة أمرها، وشرعت في تجديد الجريدة، وإدخال بعض الإصلاحات الضرورية، حتى يستقيم أمرها ماديا، ولكن البشير صفر، رأى أن مدا خيل الصحيفة لا تكفي لدفع جراية المدير، و محتسب الحاضرة، وإزاء ذلك اقترح على الحكومة أن تأذن لإدارة الأوقاف أن تدفع نصف المبلغ الذي تدفعه هذه الإدارة للرائد التونسي شهريا[28] ولكن إدارة الحماية لم تلب هذا الاقتراح.

واتفق الجماعة على إسناد مرتب إلى على بوشوشة (مائتا فرنك في الشهر) " إذ لا يمكنه ترك أشغاله المعاشية، والانقطاع إلى خدمة الجريدة، إلا بمرتب مناسب"[29] كما رأوا ضرورة تعيين مستخدم خصوصي، يقوم بمسك دفاتر الجريدة، وضبط حساباتها يوما فيوما"[30]

ويبدو أن الجريدة استقام أمرها بعض الشيء، ولم يدم ذلك طويلا، فقد أخذت في التعثر، وعدم الانتظام في الصدور، فأصبحت

27) كان يطبع منها أسبوعيا ألف نسخة

28) انظر ملف الحاضرة وثيقة رقم 68 وعنوانها:
Projet de réorganisation du journal El Hadira

29) ملف الحاضرة وثيقة رقم 337

30) نفس الوثيقة

في سنواتها الأخيرة تختفي في الصيف، لانشغال علي بوشوشة بفلاحته، في جهة الفحص(بئر مشارقة) مما يدل على أنه أصبح يحررها بمفرده، كما أشار هو إلى ذلك في جريدته [31] ولعله انفرد بملكيتها، بعد أن رأى المساهمون أن لا فائدة في هذا المشروع ماديا

علاقتها بإدارة الحماية

أما علاقتها بإدارة الحماية، فقد مرت بمرحلتين: تمتد الأولى من أواخر سبتمبر 1888حتى أواخر ديسمبر 1906 وفي هذه المرحلة كانت الحاضرة تطبع بالمطبعة الرسمية، وتتلقى إعانة من الدولة، بالإضافة إلى مائة اشتراك في الجريدة، توزع على الإدارات، وهذه الإعانة من حكومة الحماية أوقعت جماعة الحاضرة في حرج وضيق شديدين، وخاصة بالنسبة لمديرها علي بوشوشة، فقد كان الناس ينظرون إليها في عصرها، وبعد عصرها، على أنها جريدة تخدم مصالح الحماية، وتسير في ركابها: من ذلك أن محمد فريد، زعيم الحزب الوطني في مصر، لما زار تونس سنة 1902 ذكر في رحلته " أن لا جرائد لأهل البلاد، تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم: إذ الحاضرة لا تنشر إلا ما يرضي الفرنسيين، ويسمح قلم المراقبة بنشره "[32]

وهذا الرأي يصح على الفترة الأولى المذكورة، وهي مرحلة شقت فيها طريقها بصعوبة، فكانت تنعت بأنها جريدة شبه رسمية، تروج لسياسة الحماية في تونس، ولا يدري القاريء أنها تخضع لرقابة صارمة من قبل برنار روا الكاتب العام للحكومة، وقد اهتدى محرروها وعلى رأسهم البشير صفر وعلي بوشوشة، إلى حل وسط إزاء هذه

31) يقول: احتجبت الحاضرة عن أعين قرائها مدة القيظ، لتفردنا بتحريرها وإدارتها وتراكم أشغالنا الخاصة التي هي قوام أودنا بمصلحة الجريدة العامة كما نبهنا" (ع 1074 بتاريخ 17 أكتوبر 1910) أو يقول: " بناء على تفرد صاحب هذه الجريدة بتحريرها وإدارتها، واضطراره للتغيب، أيام تمثيل الجريدة للطبع، فإن الجريدة لا تصدر يوم الثلاثاء القابل، وتحتجب عن حضرة قرائها فيما بعد، في أوقات العطلة الصيفية، مدة جويلية واغشت وسبتمبر... نظرا لاشتغالنا بمصالحنا الزراعية" الحاضرة ع 1106المؤرخ في 13 جوان 1911 وانظر كذلك ع 1074 المؤرخ في 17 أكتوبر 1910

32) محمد فريد: من مصر إلى مصر ط مصر 1902 ص96

التبعية، فكانوا من جهة ينددون بما ينشر في صحف المعمرين من إساءة للأهالي، ونهب لأراضيهم، ومن جهة أخرى يثنون على سياسة الإقامة العامة، بوصفها ممثلة لدولة الحرية والعدالة والمساواة، ومدافعة عن جميع السكان، وفي مقدمتهم أصحاب هذه البلاد، وقد امتلأت الحاضرة في هذه الفترة بالردود على الصحف الفرنسية والإيطالية والمالطية واليهودية التي تنقص من شأن الأهالي، وتنعتهم بأنهم شرانم، لا حضارة لهم ولا ثقافة ولا تاريخ، وهذا ما توحي به لفظة الأهالي بالفرنسية Indigene

كان هذا دأب الحاضرة طيلة العهد الأول، الذي عرفت فيه تضييق الخناق على قلم محرريها، ومما زاد في موالاتها لحكومة الحماية، عجزها عن دفع الضمان المالي على الصحف، مما حدا بالمؤسسين إلى اقتراض المبلغ المطلوب من المطبعة الرسمية، الذي دفعه مديرها (الحاج حسن لازغلي) بدوره إلى قابض المالية، على أن يدفع المؤسسون هذا المبلغ أقساطا، طيلة ست سنوات، حتى يكتمل المبلغ، وهو ستة آلاف فرنك، وكان في نية أسرة الحاضرة أن يقع خلاص هذا الدين" من اشتراكات الدولة، بحيث يكون الخلاص بعد ستة أعوام، ويصير المبلغ المذكور مالا احتياطيا، وقد وقع الشروع في ذلك فعلا، في سنة 1897حيث دفعت الإدارة ألف فرنك من الستة آلاف المشار إليها، لكن بقي منها خمسة آلاف بذمة الجريدة، بسبب تعطيل دفع الاشتراكات المذكورة"[33]

والحق أن المبلغ المذكور كان ضخما، إذا قورن بعملة هذا العصر، فقد عجزت الصحف الوطنية عن دفعه، فتوقفت كلها عن الصدور، ما عدا الحاضرة، ولما رفع الضمان المالي على الصحف سنة 1904 أخذ علي بوشوشة وجماعته يخططون للخروج من المطبعة الرسمية، حتى تتحرر جريدتهم بعض الشيء من المراقبة الشديدة، التي يقوم بها

33) انظر ملف الحاضرة وثيقة رقم 337 وكذلك رقم 125 و123

الكاتب العام للحكومة بنفسه: إذ كان يحسن العربية ويؤلف بها الكتب، وكان بوشوشة يتذمر من هذه المراقبة، التي تلقاها جريدته، دون سائر الجرائد الوطنية، وأدى به الحال في آخر الأمر، إلى توجيه رسالة، إلى الكاتب للحكومة، ينبه فيها إلى ما تتعرض له جريدته من تضييق ومحاصرة، ويعلمه أن الجريدة ستغادر المطبعة الرسمية، ابتداء من غرة جانفي 1907 [34]

وعبر بوشوشة عن هذا الضيق والتضييق على جريدته، عند بلوغ الحاضرة سنتها العشرين، فقال: " جعلت تحت المراقبة (أي الحاضرة) حيث كانت تطبع بالمطبعة الرسمية، تربطها بالدوائرالادارية هذه الرابطة الخصوصية" وصرح، ولأول مرة " بأن هذه العلاقة الإدارية لا تسمح لها بإطلاق عنان البحث، في سائر المواضيع السياسية، والمسائل العامة، بما ترتضيه لنفسها، أو يتمناه الجمهور لها، من التوسع والتصرف في الحرية، فرضخت لحكم القدر، عالمة مقدار ما في التقييد من التحرز والضرر، ولقد هانت وطأة هذه الحالة على النفس، وإن عزت عليها: إذ كانت الجريدة بحاضرة تونس، بل والمغرب الأقصى، وطرابلس الغرب، فريدة في بابها، رائجة عند طلابها، مقيدة بسلاسل الضمان، وقد اقتحمت مشقته عدة أعوام "[35]

وتسنى لها ابتداء من سنة 1907 أن تتحرر من كابوس المطبعة الرسمية، ومن المراقبة التي كانت تضيق عليها أنفاسها، وكان علي بوشوشة يتعذب، ويتحرق شوقا إلى يوم الخلاص من التبعية الإدارية: إذ لم يكن راضيا على وضع الحاضرة، التي تبدو وكأنها موالية لإدارة الحماية، كما كان يتذمر من الحال التي وصلت إليها بلاده، فكانت جريدته بالنسبة إليه منبرا، يفرج من خلاله عن كربته،

34) ملف الحاضرة وثيقة رقم 56 وكان بوشوشة قد وجه رسالة بتاريخ 28 أفريل 1895 إلى الكتابة العامة للحكومة يشكو من تسرب ما سيصدر بجريدته من مقالات وأخبار
35) الحاضرة ع 922 المؤرخ في 7 جانفي 1907 وانظر بحثنا الحاضرة ص 130 ـ131

وما يعتلج في صدره من آلام وآمال، وتحول التذمر إلى سخط وتنديد بالحماية، التي كان يظن أنها ظرفية، وإذا بها تتحول إلى احتلال عسكري، واستعمار فلاحي دائمين، وتتحول كذلك افتتاحيات الحاضرة إلى سياط، تهوي بها على ظهور المعمرين، ومن ورائهم الإقامة العامة والإداريين، الذين كانوا يغضون الطرف عن ممارسات المعمرين التعسفية تجاه الأهالي.

وهكذا كانت الحاضرة على يقين بأن الإقامة العامة تترفق بالأهالي في الظاهر، ولكنها في الواقع تسند المعمرين، بالقوانين المجحفة، وبالجيش المدجج بالسلاح، فشرعت بعد خروجها من المطبعة الرسمية تنقد سلوك الحماية: إقامة عامة ومعمرين وإداريين، يظهر ذلك من خلال عناوين افتتاحياتها[36]

وذهب الأمر بالحاضرة إلى تحريض التونسيين، ودعوتهم إلى النضال، ورفض سياسة الحماية، ما دامت لم تصغ إلى شكاويهم وعرائضهم، ونبهت إلى أن الأهالي " كلما تكبدوا غبنا وإجحافا بتلك الحقوق (التي نصت عليها المعاهدات والاتفاقيات) اقتصروا في رفع الظلامة على التأسي والتأفف، أو رفعوا عرائض، كثيرا ما تودع في محافظ الأوراق، بدون أثر يظهر للعيان، ولذلك تجرأ بقية العناصر على الاسترسال في طريق الاستئثار بمنافع البلاد، وابتزاز خيراتها، واستخراج كنوزها، بقوة الجاه، ومعول الجد، وما العيب إلا على الأمة، التي تستيأس وتسامح، ولا تعارض أو تناطح، ولا تتحرك لتوغل يد الاعتداء في أحشائها، ولا تطالب بحقوقها المشروعة "[37]

---

36) راجع مثلا:
مصير التونسي ع 932 بتاريخ 26 مارس 1907
هل التونسي غريب في بلاده ع 989 بتاريخ 14 جويلية 1908
التونسي على أبواب الحكومة ع 992 بتاريخ 16 أوت 1908
التونسيون في بلادهم ع 1017 بتاريخ 29 مارس 1909
الاستعمار ومستقبل هذه الديار ع 1106 بتاريخ 13 جوان 1911 الخ...
37) البركة في الحركة ع 938 المؤرخ في 14 ماي 1907

ويلجأ مدير الحاضرة عادة إلى صب جام غضبه على المأمورين أي الإداريين الكبار، ورموز الهيمنة الاستعمارية، من أمثال دو كارنيار زعيم العمرين، ودلماس مدير المدرسة الصادقية، الذي أطرد التلامذة التونسيين، من دروس الترجمة، وخرجوا من قاعة الدرس وهم يبكون، والواقف ـ كما تقول الحاضرة ـ ى على تصرفات أولئك المأمورين، يخيل إليه أن كل مأمور أصبح سلطانا مهيمنا، بل جبارا مسيطرا، في دائرته الإدارية الفرعية، لا يصده عن استبداده سلطة رئيس، أو سطوة مدير، وقد يحمل المأمور المستبد خيلاءه وغروره بسطوة المأمورية، واستوائه على عرشها، وتربعه في دستها، أنه لا قوام لتلك المصلحة إلا بوجوده رئيسا،أو مهيمنا عليها، بماله من المعلومات المحدودة، والمعارف المعدودة" [38]

ووجد جماعة الحاضرة في دعاة التحرر والإنصاف، من الكتاب والساسة الفرنسيين سندا للمسألة التونسية، وسيقوى أمر هؤلاء الكتاب والساسة في مجرى الحياة السياسية بفرنسا، وسيعتمد الثعالبي وبقية الزعماء بعد الحرب العالمية الأولى على هؤلاء الأحرار، للوقوف إلى جانب الوطنيين من دعاة الحركة الاستقلالية بتونس.

أما مدير الحاضرة فكان على يقين بأن الجور والاعتساف مآلهما الزوال، وتاريخ الأمم التي حلت بهذا القطر غازية وفاتحة دليل على ذلك، يقول بوشوشة: " إن الأقدار أحق بالانتصار، وسلطان الجور مخذول زائل، بل إلى التقهقر والاندبار، يدل على ذلك تاريخ الأمم التي دالت على هذه الديار، وخلفت فيها ما يقتضي بالتبصر والاعتبار" [39] وهذا يعني عنده أن نظام الحماية آيل إلى العدم والزوال، في هذا القطر.

وهكذا مرت الحاضرة في علاقتها بنظام الحماية بمرحلتين واضحتين: مرحلة الحفاوة والترحيب بهذا النظام، مصدقة وعوده،

38) الحاضرة ع 1042 بتاريخ 9 نوفمبر 1909 لاحظ تعريضه بدلماس، فقد كان قليل الزاد في اللغة العربية.
39) الحاضرة ع 932 بتاريخ 26 مارس 1906 مصير التونسي

في تمدن الأهالي، عن طريق بناء المدارس، ونشر التعليم، والقيام بنهضة عمرانية شاملة، ولما تبين لها أن الإدارة الاستعمارية لم توف بوعودها، وأنها انتصبت بتونس للاختصاص " بمنافع البلاد وخيراتها، واسترقاق التونسي، وحرمانه من نعمة العلم والمعرفة، حتى ينقاد مذعورا لمسترقه، ويستغل لكاسبه، ولا يصاوله، أو يطاوله، أو يزاحمه " [40] تحولت الحاضرة إلى مرحلة التذمر والتنديد بهذا (الضيف الثقيل) داعية إلى (الحركة) والكفاح للفوز بمطالب التونسيين العاجلة، والمتمثلة في التمتع بمنافع بلادهم، وتشريكهم في إدارة مصالحها، وهي الخطوة الأولى نحو الحصول على الاستقلال، واسترجاع السيادة المفقودة، وقد عكست الحاضرة الواقع التونسي بمحاسنه ومساوئه، وعبرت عن مواقف المجتمع التونسي، تجاه الحماية، الراضية والمطمئنة حينا، والمتذمرة والساخطة أحيانا أخرى، وصورت تشبث التونسي بمقوماته الحضارية والثقافية أولا، ومشاغله السياسية والاجتماعية بعد ذلك، فكانت الحاضرة مرآة لهذا المجتمع، الذي كان يواجه التخلف والجهل من جهة، والاستعمار والهيمنة الأجنبية من جهة أخرى.

الحاضرة بين المنع والتعطيل

كانت جريدة الحاضرة تخضع لمراقبة شديدة من قبل الكاتب العام للحكومة، فكان يطالع مسودتها قبل طبعها، وفي كثير من الأحيان يتسرب ما فيها إلى الناس قبل نشرها[41] وكانت لا تقدر على الكلام بحرية إزاء ما يعانيه الشعب التونسي من إهانة وهضم للحقوق، فكان صوتها مبحوحا، ويلاحظ القارئ أنها تريد أن تهم بذكر أشياء تتعلق بسياسة الحماية، ثم تتراجع خوفا من قلم الرقابة

---

40) الحاضرة ع 1001بتاريخ 7 نوفمبر 1908 المسألة الأهلية أسباب الخلاف ودواعي الائتلاف

41) في رسالة بتاريخ 28 أفريل 1895 موجهة إلى الكاتب العام للحكومة يشكو علي بوشوشة من تسرب ما سيصدر بالحاضرة عند الناس شفويا وحتى كتابيا، ولعله يقصد بالكتابي المقالات المخطوطة، أو المهيأة للطباعة، انظر ملف الحاضرة

المسلط على رقاب الصحف التونسية، وتلجأ إلى النقل عن الصحف الأجنبية الناقدة لسياسة فرنسا في مستعمراتها من ذلك أن فرنسا طلبت من سلطان المغرب مد سكة حديد ببلاده، قالت صحيفة ايطالية حول هذا الموضوع:" والمظنون أن هذا المشروع لا يعود بنتيجة فعليه، لما أن سلطان المغرب لا يأمن غائلة دول أوروبا، خصوصا فرنسا وانقلترا"[42] فدعت بعض الصحف الفرنسية الصادرة بسوسة إلى إسكات الحاضرة وإلجام صوتها[43]

ولما غادرت المطبعة الرسمية[44] وأحست ببصيص من الحرية قويت لهجتها في نقد سياسة فرنسا بالمغرب الأقصى ، فكتبت عن (المساكين النازحين من المغاربة) وما يلاقونه من إهانة وتعذيب في ميناء وهران بالجزائر، مما أغضب ستيفان بيشون وزير خارجية فرنسا، والذي كان مقيما عاما بتونس، فأمر سلطات الحماية بمنع الحاضرة من نشر مثل هذه الأخبار.

إلا أن المقال الذي أثار حرج السلطات الفرنسية، ونشرته الحاضرة جاء تحت عنوان(كلام الليل يمحوه النهار) الذي يكشف عن تعاون حكومة المخزن مع الدولة الفرنسية، وكيف تحول السلطان من مناوئ للفرنسيين إلى صديق حميم لهم ، وأوردت الأبيات الآتية التي توضح هذا التحول:

سَأَلْتُ كَبِيرَنَا لَمَّا الْتَقَيْـنَا ... وَمَا بسؤَالنَا للْحَقِّ عَـارُ
لمَاذَا قُلْتَ فِي أَمْسِ مَقَـالاً ... به الرُّكْبَانُ فِي الآفَاقِ سَارُوا
وَقُمْتَ الْيَوْمَ تَنْقُضُهُ جِهَاراً ... وَتَفْعَـلُ كُلَّ مَا فيه الشَّنَار
فَقَالَ وَقَدْ تَعَجَّبَ كَيْفَ أَنِّي ... أُسَائِلُهُ وَفِي يَدِهِ الدَّمَـارُ

---

42) الحاضرة ع 576 بتاريخ 5 ديسمبر 1899

43) Le progrès du centre : Il faut sévir 14 Decembre 1899

44) كان علي بوشوشة قد وجه رسالة إلى برنار روا الكاتب العام للحكومة بتاريخ 1 ديسمبر 1906يطلب منه تخفيف الرقابة على الحاضرة التي تطبع بالمطبعة الرسمية كما ذكرنا، باعتبار أن الجرائد العربية الأخرى تكتب بحرية ، وفي حال عدم الرد بالإيجاب فإن الحاضرة ستغير المطبعة ابتداء من غرة جانفي 1907 وهو ما وقع بالفعل

أنَا عاهَدْتُهُمْ مِنْ قَبْلُ لَكِنْ   كلاَمُ اللَّيلِ يَمْحُوهُ النَّهَارُ(45)

ورأت وزارة الخارجية أن هذا المقال يؤلب الرأي العام المغربي على السلطان، كما ذكر معتمد فرنسا بالمغرب الأقصى، الذي أكد أن جريدة الحاضرة يقبل على قراءتها الكثير من المغاربة، وطلب من سلطات الحماية تشديد الرقابة على مراسلات المغرب للحاضرة، ومنعت الكتابة العامة نشر بقية المقال المشار إليه[46]

وكان من نتيجة موالاة الحاضرة لطرابلس الغرب أن منعت من الصدور لمدة ثلاثة أسابيع، بعد نشرها لمقال عنوانه(أوروبا والإسلام) ورد لها من البلاد الطرابلسية، وذلك بمناسبة الحرب التركية اليونانية (1897) والمقال المذكور لا يخلو من تهديد ووعيد للدول الأوروبية، وقد جاء فيه: "فيا رجال الدولة ـ الخطاب موجة إلى رجال الدولة العثمانية ـ إن كنتم تريدون حريتكم وحفظ مجدكم واستقلالكم، فلم يكن لكم عن الحرب من مفر، فإن بعض الدول لا ترجع إلا بالقوة، ولا ينفع معها لين ولا مجاملة، وإن أبيتم سوى القيام على ما انتم عليه من سوء الحال، وتلاعب يد الدسائس بممالككم، واستلاب حقوقكم فقد عرضتم بأنفسكم إلى الضياع، وخنتم أمة ألقت إليكم مقاليد أمورها ، وعولت في حفظ مجدها وشرفها على درايتكم، وصدق نيتكم ، فانتم المسؤولون عنها بين يدي الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"[47]

وبسبب الحرب المذكورة، وما نشرته الحاضرة من مقالات تحريضية للوقوف ضد الغزاة الأوروبيين، منعت الحاضرة من الرواج بالبلاد الجزائرية لمدة سنة، وقد أثر هذا المنع على مدا خيلها تأثيرا سيئا.

---

45) الحاضرة ع 1022 بتاريخ 27 أفريل 1909

46) ملف الحاضرة رسالة مؤرخة في 15 مارس 1909 ورسالة ثانية مؤرخة بعد يوم من الرسالة المذكورة

47) الحاضرة ع 444 بتاريخ 6 أفريل 1897 أوروبا والإسلام

ورغم ما كانت تعانيه هذه الجريدة من تعطيل ومنع وحجز، فقد واصلت صدورها مدة تقرب من ربع قرن، في عهد عرف بأنه أحلك العهود في تاريخ تونس الحديث ، فالبلاد محتلة، والسيادة مفقودة، ولا سلطة إلا للأجنبي ، ولا كلمة إلا كلمته، ولا أمر إلا أمره، ومع ذلك استمر علي بوشوشة يصدر جريدته بدون كلل أو فتور نعم " قد يكون ربع قرن مدة غير طويلة نسبيا في حياة الإنسان، ولكنها بالنسبة لحياة الجرائد التونسية خلال الاستعمار مدة جد طويلة، إذ أنها تمثل جهدا متواصلا في تحرير وطبع وتوزيع الجريدة كل يوم أو كل أسبوع في ظروف صعبة، وقد ظهرت بعض الجرائد في عدد أو عددين أو ثلاثة، ثم اختفت، وظهرت جرائد أخرى مدة أسابيع أو أشهر ثم توقفت تلقائيا أو تعطلت، أما أن تعيش جريدة ربع قرن، فمعنى ذلك أنها عمرت نسبيا، ذلك كان حال جريدة الحاضرة التي تعتبر من أوائل الجرائد التونسية الخاصة التي صدرت منذ سنة 1888 وتواصل صدورها حتى سنة 1911 ــ أي قرابة الربع قرن ــ بدون انقطاع كبير، ويعود الفضل في هذه المثابرة على الصدور إلى نخبة من المثقفين التونسيين على رأسهم علي بوشوشة"[48]

والحاصل أن علي بوشوشة ورفاقه أرادوا أن تكون الحاضرة ناطقة بلسان الأهالي، ومعبرة عن وجهة نظرهم، من الحالة الجديدة التي أصبح عليها نظام الحكم في بلادهم، فلم تكن الصحف الصادرة بتونس من فرنسية وإيطالية معنية بوضع الأهالي المزري، وحتى ما يكتب فيها عن الأهالي عار عن الحقيقة، وكل ما يهم هذه الصحف هو الإزراء بالأهالي واحتقارهم، والدفاع عن مصالح الأجانب المقيمين في تونس، فأراد جماعة (الحاضرة) أن يدافعوا عن مصالح الأهالي، ويبرزوا حقوقهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وينافحوا عن

48) محمد حمدان: أعلام الإعلام في تونس ص 46 ــ 47

اللغة والدين، وهما من المقومات الأساسية للشعوب، ثم الأخذ بنصيب وافر من الحضارة الحديثة، وسبيل كل ذلك التعليم، وحذق اللغات الأجنبية، ومعظم افتتاحيات (الحاضرة) تصب في هذا الاتجاه.

وكان لعلي بوشوشة نصيب الأسد في كتابة افتتاحيات (الحاضرة) فلقد بلغ عدد الافتتاحيات الممضاة باسمه ما يقرب من ألف مقالة، ثم توقف عن الإمضاء باسمه إلا نادرا، وأجاب عن تساؤل القراء، في خصوص نسبة الافتتاحيات إلى أصحابها فقال: " إن ما نعزوه من المقالات، فهو لمن نسب إليه، وما ننشره بدون إمضاء، لا يصح نسبته لغير مدير الجريدة "[49]

هذا بالإضافة إلى تحرير الأخبار الخارجية والحوادث المحلية كما يسميهما، وقد انفرد بوشوشة في السنوات الأخيرة من حياة جريدته إلى تحريرها بنفسه من أولها إلى آخرها[50]

ويتناول بوشوشة في افتتاحياته موضوعا بالدرس والتحليل، بأسلوب أدبي رائق، ولا تخرج مواضيعه عن الدعوة إلى الإصلاح، والنهوض من الخمول الذي استمرأه الأهالي، واستكانوا إليه، ولم يترك بابا للإصلاح إلا طرقه، ولم يستهن بجانب دون آخر، فكل الجوانب متكاملة ومترابطة، ولا سبيل لفصل الواحد عن الآخر، فكان بوشوشة يضرب بسهم في كل اتجاه، فتجده مجددا ومصلحا دينيا، يدعو إلى تنقية الدين من الشوائب التي علقت به في عهود التخلف والجمود، وينادي بأعلى صوته أن الدين يدعو إلى امتلاك القوة، ولا يدعو مطلقا إلى التواكل والخمول والرضى بالدون، وهو مصلح تربوي، يكشف عن حاجة الطفل إلى تعليم يتلاءم مع قواه الفكرية والذهنية، ولا يمكن بأية حال أن نعامله باعتباره رجلا صغيرا، وإنما باعتباره طفلا لا غير، ويؤكد على تنشئة تنسجم مع بيئة الطفل،

---

49) الحاضرة ع 811 بتاريخ 13 سبتمبر 1904

50) راجع الحاضرة ع 1031 بتاريخ 29 جوان 1909

وحضارته وتاريخه.

ومن يطالع مقالاته الخاصة بـ " الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة " يلاحظ مدى اطلاع الرجل على الخلل الذي أصاب التعليم الديني في تونس، ودعوته الحارة إلى إتباع مناهج جديدة، تساير التطور التربوي التي تطبق في التعليم المدني أو المدرسي [51]

أما المطالب السياسية فقد عبر عنها في سلسلة من المقالات بعنوان مطالبنا، وهي ترمي كلها إلى محافظة الشعب التونسي على سيادته واستقلاله، والعمل على استرجاعهما مهما كانت العوائق والعراقيل، وتتمثل السيادة لديه في المحافظة على الدين واللغة والقضاء والأوقاف والتعليم.

الحاضرة همزة وصل بين تونس والعالم العربي

وقد جعل بوشوشة من جريدته همزة وصل بين تونس والعالم الإسلامي، فقد اهتم بالدولة العثمانية، وذلك بتقديم أخبارها أولا بأول لقرائه، وكانت الخلافة في اسطنبول تعتبر لدى الكثير من التونسيين المنقذ المرتقب لتونس من الاحتلال الفرنسي، وقد أخذ هذا الظن يزول شيئا فشيئا، وخاصة بعد الغارة الإيطالية على طرابلس الغرب في سبتمبر 1911، وموقف الدولة العثمانية المتخاذل من آخر ولاية لها بالمغرب العربي.

وفي نفس الوقت كانت الحاضرة في رباط قوي مع رجال النهضة والإصلاح بمصر، وخاصة مع الأستاذ الإمام محمد عبده، وذلك منذ زيارته الأولى إلى تونس سنة 1884، وزاد في تدعيم هذه الروابط الثقافية زيارته الثانية (سبتمبر 1903) التي اطلع فيها على مشاريع جماعة (الحاضرة) فرأى فيها الوجـــه التطبيقي لأفكاره ونظرياته، وألقى محاضرة بالجمعية الخلدونية عن العلم وطرق التعليم [52]) ردد

---

51) انظر المختارات من آثاره

52) نشرتها الحاضرة كاملة: ع 763 بتاريخ 29 سبتمبر 1903 انظر لمزيد التوسع بحثنا: الحاضرة ص 256

فيها أفكاره ونظرياته، التي لم تكن جديدة على جماعة (الحاضرة) ولكنهم وجدوا فيها تدعيما لأفكارهم، وتأييدا لآرائهم في إصلاح التعليم، وتجديد مناهجه.

وكانت (الحاضرة) منذ صدور مجلة(المنار) سنة 1898 تنقل عنها ما يتلاءم مع مشربها، وخاصة ما يكتبه الشيخ محمد عبده، ولما توفي هذا الأخير سنة 1905 كفت (الحاضرة) النقل عن هذه المجلة، كأن العلاقة ليست بين جماعة (المنار) أو مع صاحبها رشيد رضا، وإنما كانت بينهم وبين الأستاذ الإمام، وعوضت (الزهرة) جريدة(الحاضرة) في النقل عن (المنار) واهتمت (الحاضرة) بنشاط الحزب الوطني، ونشاط زعيمه مصطفى كامل ثم محمد فريد، وتنقل ما تكتبه (اللواء) الناطقة بلسان الحزب الوطني في مصر.

افتتاحيــــات الحـــــاضرة

هي عبارة عن درس أسبوعي متجول، أو إن شئت قلت هي خطبة محكمة الصنع محبوكة النسج، ذات مفاصل واضحة، يحاول صاحبها بكل ما أوتي من قوة أن يقنع قارئه، فيحشد له الأدلة والبراهين على أن ما يقوله هو الصواب، وأنه الأصلح بالمجموع والأفراد، فكانت هذه المقالات ـ كما يسميها هو ـ بحق زبدة آراء الكاتب الناطق بلسان الأهالي، والمعبر عن آراء النخبة المثقفة في تونس، التي رعى نبتها المصلح خير الدين، فأينعت على يدي جماعة (الحاضرة) وفاح أريجها، وأتت أكلها في تلك المشاريع التي سبق ذكرها.

وتندرج هذه الافتتاحيات، رغم تنوع أغراضها، واختلاف مواضيعها، ضمن المقال الهادف إلى التجديد، والرافض للتقليد، مهما كان مصدره، فهو يهدم أفكارا، وطرائق يمجها الذوق السليم، ويدحضها العقل، وتبدو للعاقل غير مناسبة للعصر، ويبني مكانها آراء جديدة، يرتضيها المنطق السليم، وتساير روح العصر الجديد.

وتشم من خلال افتتاحياته رائحة الإصلاح، وأيادي النهضة، تمتد إلى الراقدين، حانية مشفقة، تدعوهم في يسر ولطف إلى اليقظة، وتنبههم إلى الخطر الداهم، أنظر كيف يقارن بين العهد السابق للحماية، وعهد الحماية:

" أما الأول، فقد برهنت الحوادث على أن إيالة تونس، كانت عامرة بأهلها، ورجال حكومتها، غنية عن الأجنبي، موزعة الأرزاق، كثيرة الموارد والارتفاق، تتهادى بين أهاليها، يجمعهم كد واحد، وسعي واحد، وهو أداء ما عليهم من الحقوق للحكومة، وإن كانت تعاملهم بيد قاسية، وصولة مطلقة بلا معارض، ولا منازع، يحتملون المشقة، ويتمتعون بالنعيم"

" أما العصر الثاني، وهو الذي أصبحنا في مجرياته، فهو عصر تجددت فيه، إن لم نقل تضاعفت الاحتياجات، وكثرت فيه على أبواب الاسترزاق، وموارد العيش ضروب المزاحمات، أما لاختلاط المعارض، وتعارض المصالح، أو لما طرأ على بعض المصالح من الاستئثار بالمنافع المعاشية، وإدخالها تحت نير الاحتكار والاختصاصات، . فبذلك قلت الصنائع، والاستفادة بالتجارة والمصنوعات الداخلية، فما بقيت تنالها أيدي الأهالي: إذ تعطل استعمالها، وعز على المستعملين نوالها، فقام الغريب مقام الصانع الأهلي، لعدم تدريبه على طرق المباراة، وأبواب المجاراة، فسلم التونسي عجزا حتى في أقل المهن، فتداولتها الأيدي الأجنبية، فلم تبق ولم تذر، وأقيمت البنوك، فاستنزفت ما غفلت عنه غائلات الوقت، فسقطت العائلات المثريات من أوج الترف، إلى حضيض الضنك واللهف "[53]

طريقته وأسلوبه في تحرير افتتاحياته

لقد كان علي بوشوشة في افتتاحيات (الحاضرة) " يحكم

53) ع 215 بتاريخ 7 سبتمبر 1892

ويستنتج، ويبسط ويقرب في تحرير متين،سهل واضح مطبوع قد خلا من الكلفة التي تشوب تحرير الشيخ محمد السنوسي [54]

وقد تبين لنا من خلال دراستنا لأسلوب بوشوشة، ومنهجه في الكتابة، أنه يعتمد في مقدمة غالب افتتاحياته أقوال الحكماء، وآيات من القرآن، أو بعض الآيات الشعرية المتداولة على الألسن، أو الأمثال والحكم، ويعتبر ما ورد في هذه المقدمة من الأمور التي يسلم بها كل عاقل، وتبدأ هذه المقدمة بقوله: من المسلم به، أو من المعلوم، أو لا يخفى على أحد، أو جرت العادة،أو قال الطغرائي: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل، وقال تعالى: " وتعاونوا على البر والتقوى " [55]

وفي مرحلة ثانية يلجئ قراءه إلى ما سيقوله بعد ذلك، وفي الغالب يكون الربط بين المقدمة والموضوع الأساسي لمقاله هكذا: وفي هذا الخصوص وجب أن ننبه الأفكار إلى بحث جليل، ومن الأدلة القاطعة على صدق هذه القضية ما نشاهده كل يوم،أو إذا تقرر ذلك نقول، ثم يمضي إلى موضوعه محللا ومفسرا ومقارنا، معتمدا الواقع، الذي يستمد منه أمثلته، وهو في كل ذلك ينبه قومه إلى الخطر المحدق بهم، والمتمثل خاصة في الطوائف الأجنبية، التي استقرت بالبلاد التونسية، وأخذت تزاحم الأهالي في الوظائف الإدارية والأشغال العامة، وفي كل المجالات الحيوية الأخرى، يقول مثلا: " ومن دقق النظر في غضون هذه الحالة، وقرن الأسباب بالمسببات، والنتائج بالمقدمات، أدرك لأول وهلة أن لا داعي لذلك، إلا جمود قرائح الطبقات الأهلية، وتخاذل أفرادها، وسكوتهم عن الطامعين في أسلابهم، العاملين على إركازهم وإعناتهم، من الطوائف الأجنبية، باعتضاد عمدهم لجمهورهم اعتضاد أرباب الحل والعقد، وأخذهم بأيديهم في تنفيذ أمورهم " [56]

---

54) الفاضل ابن عاشور الحركة الأدبية والفكرية ط تونس 1972 ص 66

55) المائدة: 2

56) الحاضرة بتاريخ 14 ماي 1907

والى جانب ضرب الأمثلة، يستعين بوشوشة لإقناع مخاطبيه بالقرآن الكريم، والأحاديث الشريفة والأمثال والحكم والأشعار، وفي خاتمة الافتتاحية، يستخلص أهم الآراء، وتبدأ عادة بقوله: تلك مطالبنا، أو تلك ملحوظاتنا، أو فتحصل مما تقدم، أو قوله: هذه ملحوظات إجمالية، وقد يبدو أنه يتزلف للمقيم العام أوالباي، وإن كان هذا الأخير لا حول ولا طول، ولكن ما الحيلة والأمر بيد الحاكم الأجنبي، وهو الذي بيده مصائر الناس ورقابهم ، وهو الذي يستطيع أن يخنق أنفاس الصحف، ويلقي بمحرريها في غيابات السجون، وكتاب هذه الجريدة " كانوا كلهم من ابناء الحاضرة الذين تثقلهم حضريتهم وتكاليفهم عن خوض غمار الكفاح العنيف "[57]

أما أسلوبه في هذه الافتتاحيات فقد مرّ بمرحلتين فمقالاته الأولى لا تخلو من تعثر وارتباك وفي بعض الأحيان مخالفة لقواعد اللغة ولما تمرس بالعمل الأدبي محررا ومترجما أصبح أسلوبه من أجود الأساليب الصحفية في عصره فهو يجمع بين الأسلوب المرسل والميل إلى السجع ثم تخلى فيما بعد عن السجع وظهرت مسحة التحرر في مقالاته وأصبحت افتتاحياته أقرب إلى العمل الصحفي منها إلى العمل الأدبي وأضحى اهتمامه منصبا على الفكرة والموضوع دون الإخلال بالصياغة الفنية.

57) الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية ص 61

مختارات من مقالاته

يصعب على الباحث أن يكون اختياره لبعض آثار بوشوشة موفقا، ونعني مقالاته التي تعد بالمئات، وأغلبها يحسن بالقارئ أن تكون بين يديه، لما تحمله من أصداء عصر الكاتب ونفحاته، ولكن أنى لنا أن ننشر كل ما جاء في الجريدة من أبحاث ومقالات، ومن دروس، وكلها لا تخلو من طرافة وإبداع، فدون ذلك مشاق، أبرزها قضاء سنوات في الجمع والدراسة، وتبييض مئات المقالات، والاطلاع على الآف الصفحات، ولكن هده الصعوبات الجمة لا تمنعنا من اختيار بعض المقالات التي تصور عصر الكاتب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، تساعد الباحثين على الإلمام بخصائص هذا العصر، وما طرأ عليه من تعقيد بعد انتصاب الحماية بالمملكة التونسية، وما تقاطر عليها من فلول المعمرين الفرنسيين وأوباش الأوروبيين، وكيف كان موقف النخبة المثقفة أمام هذا الوضع الجديد الذي فرض على البلاد والعباد فرضا.

وقد حاولنا أن نختار من مقالات بوشوشة ما كان معبرا عن نبض العصر، وكان الشغل الشاغل للأهالي عموما وللنخبة المثقفة خصوصا.

عدد ١٠١٩ — ثمن النسخة عشرة صانتيمات — السنة الثانية والعشرون

الحاضرة

سنة ١٣٠٥

EL-HADIRA

محل ادارة الجريدة

بمكتب المدير علي بوشوشه

تحت بلاص شمامه ١٩

المراسلات

ترسل خالصة الاجرة باسم المدير ولا ترد لصاحبها نشرت او لم تنشر

قيمة الاشتراك لا تعتبر الا بتوصيل مقتطع ممضى باسم المدير

Adresse : A. BOUCHOUCHA.

Nessim Samama, Bureau N° 19, Rue de la Kasba

TUNIS

الاشتراكات تدفع سلفا

في الايالة التونسية — فرنكات

عن سنة .... ١٠٫٠٠ — عن ستة اشهر ..... ٦٫٠٠

خارج المملكة

عن سنة .... ١٢٫٠٠ — عن ستة اشهر ..... ٨٫٠٠

اجرة الاعلانات

في الصحيفة الاولى .... ٢٫٠٠ للسطر الواحد

— الثانية .... ١٫٠٠ —

— الثالثة .... ٠٫٥٠ —

— الرابعة .... ٠٫٤٠ —

غير الاعلانات القضائية والادارية واذا تكررت ينقص من الثمن

تونس يوم الثلاثاء ٨ ربيع الاول سنة ١٣٢٧ — جريدة اسبوعية سياسية ادبية تصدر يوم الثلاثاء من كل اسبوع — الموافق ٣٠ مارس سنة ١٩٠٩

صورة جريدة « الحاضرة »

حـــــرية المطبـــــوعات

لا يخفى أن نعمة الحرية أجل نعمة تتغذى بها النفوس البشرية،وأجمل حلة يتشح بها بنو الإنسانية، وأحسن خلة تستكمل بها الصفات الذاتية، وأنجع وسيلة للمحافظة على الحقوق العمومية، والذب عن حوزة المصالح القومية، والمنافع الخصوصية، ولذلك أدركت الأمم الأوروباوية كنه حقيقتها، وقدرت مزاياها حق قدرها، وفي مقدمتها دولة الجمهورية الفرنسوية الفخيمة، فأريقت في سبيل نيلها الدماء، وفدتها بالنفس والنفيس ، علما منها بأنها السبيل الوحيد لطريق الهدى ، وأثبتت شجرتها على عهد الجمهورية الأولى التي قلبت وجه المملكة الفرنسوية، وغيرت حياة القارة الأوروباوية ، فكان أصلها في أرض المدنية ثابتا، وأينعت غصونها، فأورقت، وأثمرت ثمارا لا زال الشعب الفرنسوي يتنعم في ظلالها الوارفة، وقطوفها الدانية.

ومن آثارها وفروعها الحرية المعروفة بحرية المطبوعات، وهي الترخيص لعموم أفراد الأمة في الخروج من ربقة الحرج المتمكن من الخواطر، والضغط المحدق بالأفكار، لإبداء ما يرونه سديدا، وإظهار ما يظنونه صالحا من الآراء، لإرشاد أرباب الحل والعقد إلى طريق خير الأمة وتعميم ضروب السعادة بين طبقاتها، وتنبيههم إلى مواقع الزلل، ومواضع الخلل الذي ربما عرض في تدابير القابضين على زمام الأمور، والمطالبة بحقوق الضعفاء والانتصار لهم من الأقوياء، والحث على إسداء العدل، ونشر لواء الإنصاف في سائر الأكناف.

ومن هنا لزم انقسام الجرائد في مسالكها ومناهجها إلى أقسام ثلاثة: قسم منقطع للمدح والإطراء، لفريق التزم خدمته، وأوقف نفسه على إعلاء شأنه، وترويج بضاعته، وإن كانت مزجاة لغاية خصوصية، وقسم ارتكب متن العدالة، والتزم جادة الاعتدال، منبها على مظان الزلل ومواقعالاختلال، وإرشاد جهة الاقتضاء بالأوجه

المعقولة، والطرق المقبولة،إلى سديد الأعمال، والأوفق إحداثه أو استئصاله من التدابير، وهو القسم المعروف بالمعتدل، يصدح بالمدح حيث يتعين الإطراء، ويجب المدح، تنشيطا للهم، وخفرا لواجب الذمم، ويلهج بالتنكيت والقدح، حيث يلزم القدح.

وفي هذا القسم الثاني تظهر فائدة حرية الصحافة، بسطوع نور الحقيقة،لا تظهر إلا من محك النقد، حيث تكون المجادلة، على معنى مقابلة القبيح بالمليح، والأحسن بالأحسن، بسبك المقدمات وإخراج النتائج،على معنى تسلمه العقول الثقيفة، وتستحسنه الذمم العفيفة.

وقسم ثالث سلك جادة الشطط، وامتطى صهوة الإفراط في مباحثه، فكان كالمكابر، إذا أبهرته شمس الضحى، حسب الليل نهارا، وهو فريق له أشياع من الذين استولى عليهم اليأس، وداخلهم القنوط، فأصبحوا على أبصارهم من التعنت والمعاكسة الغريزية غشاوة، حالت دون إدراكهم للبديهيات والحقائق المسلمة، إما لعاهة في قوة الإدراك، أو لمقصد كنته صدورهم، فأعماهم الصالح الذاتي عن مراعاة واجب الذمة ، والالتفات إلى المسالك المهمة.

إذا تمهد ذلك نقول: قد توجد هذه الصبغات الثلاثة في جرائد كل مملكة أوروباوية، ولكن تظافر الفكر العام، وإجماع السواد الأعظم من أرباب الجرائد على الذب عن مصلحة الوطن، والتجرد عن الأغراض الخصوصية عند مسيس الحاجة، جعل لمجموعها صبغة خصوصية، لا يجعلها تقاس بالصحف المتطرفة الضاربة بالآفاق الأجنبية التي أصبحت، بابتعادها عن مركز الرأي العام، أكثر نزعا إلى اكتساب الأرباح، وترويج المتاجر، ونوال الحظوات، وتوسيع دائرة الأرزاق، ظنا من أربابها أن بعد الدار موجب للحظهم بعين الرعاية المحظوظية، وأخذ منازعهم، والمطامع التي ترمي إليها أنظارهم مأخذ الاعتبار، وإلا فهم قد حرموا مساعدة، واهضموا جانبا، وتلاشت حقوقهم، وساءت حالتهم، فينقلب الكدر في بطونهم أحقادا كامنة، يقدح زنادها أقل عارض يفسح للانتقاد مجالا، وبتوالي الكرات يصير الدسم سما

ناقعا، تنفثه صحف الغاضبين، وتذكي به سهام الانتقاد، تشفيا من تلك الضغائن الكامنة، والأحقاد الخامدة، ولكن سخط الرأي العام على مثل هذه المطاعن الذاتية أوجب على فاعليها الارتداء برداء الحمية، والتستر بستار المنفعة العمومية،لأنها السلاح الوحيد المقبول في المصادرة، غير أن العرق دساس، والغرض الأعمى ستاره شفاف، فتظهر الدسائس من خلل العبارة، وتدرك المقاصد لأقل إشارة.

وعلى هذا النمط درج لسوء التوفيق بعض أصحاب الجرائد بالمملكة التونسية، فارتكبوا صهوة الشطط، والتزموا طريق القدح والمثالبة والمعارضة الجدلية، لكل مشروع عاكس تيار أهوائهم، وباين مسلك أغراضهم، بحيث كانت الأبواق، النافخين فيها بأصوات البغي والعدوان، ذريعة الشقاق وآلة التفريق، وهتك الأعراض بين العناصر الآهلة لهذه الديار، التي تمحضت سعادتها في الوئام والوفاق، وسببا في إيغار الصدور، وتكدير الخواطر، حبا بالاستئثار بخير، قصد تعميمه أو إصلاح يزجى إسداءه للعموم.

ومن تلك الجرائد ما ترقى إلى مصادرة رؤساء الحكومة، من أمير البلاد، وعمدة دولة الجمهورية[1] القابض على أمرها بهذه المملكة ومس الأعراض النقية، إلى غير ذلك، ورميهم بما يليق بجانب السلطة

1) يشير علي بوشوشة إلى قضية جريدة لابوتيت تينيزي La petite Tunisie فقد ألقي القبض على مديرها لاكروا ومساعده كروزي وبريقول طابعها، بأمر من المقيم العام ، وأودعوا السجن بأمر من قاضي الاستنطاق ، لقيامهم بالمس من حضرة الباي، طبقا للفصل السادس من الأمر الصادر في 14 أكتوبر 1894 الخاص بحرية المطبوعات، والقاضي بعقوبة قدرها من الشهر إلى ثلاثة أعوام سجنا ، وبخطية تتراوح بين مائة فرنك إلى ثلاثة آلاف فرنك، على كل من تطاول على حقوق الذات العلية ، وأمراء البيت الحسيني ، وحقوق وسلطة الجمهورية الفرنسية بالإيالة التونسية، ويعتبر المقيم العام المؤتمن على سلطة الجمهورية بالمملكة التونسية، وقد = أدرجت الجريدة المذكورة جملة فيها حث الفرنسيين المقيمين بتونس على العصيان، كما وقعت الإشارة في البحث القضائي إلى أن الجريدة كانت = قد تعرضت لشتم المقيم العام منذ خمسة أشهر(انظر الحاضرة ع 431 بتاريخ 5 جانفي 1897) وأصدرت المحكمة الفرنسية بتونس حكمها في قضية هذه الصحيفة، وكان كالتالي: بريكول وكروزي ثلاثة أشهر سجنا، وبجزاء نقدي قدره خمسمائة فرنك، لتكلمهما بما لا يليق في جانب المقيم العام ، أما صاحب الجريدة فقد حكم عليه بالسجن لمدة عام ، وبجزاء نقدي قدره ألف فرنك ، بتهمة الشتم والقذف ، والتكلم بما لا يليق في حق المقيم العام(راجع ع 433 بتاريخ 19 جانفي 1897

الحاكمة، وناموس الهيئة الاجتماعية، بدعوى حرية المطبوعات ، فلقد طالما رأينا الرذيل من أرباب الصحافة، يماري بتلك التعلة رجال جعلتهم كمالاتهم في سمك المعالي، وذروة العز والفضل، وحضرنا غير مشهد امتهنت فيه أماجد القوم، لفرية أدرجتها جريدة أو تهمة،

اتخذت لاستنزاف الأرباح، وبلوغ المآرب أحبولة ومكيدة، فاستشكل الأمر، وغمض المغزى من حالة كانت في أنظار المتبصرين في عواقب الأمور العارفين بقيمة، ناموس السلطة الحاكمة،أشبه شيء بالفوضى ، ضربت أطنابها فالتهم السفيه العفيف ، وابتذل المشروف الشريف ، واستفحل الداء فعز الدواء.

ومن هذا القبيل ما كدر صفو الحاضرة التونسية، من موت الكامندان سرفوني رجل سامي المرتبة حميد الفعال، في ميدان البراز وساحة النزال، بسبب ملمات جسمتها الصحف، التي قوام وجودها، بث دواعي العداوة والبغضاء، وزرع بذور العداوة، والشقاق بين العناصر المتحابة ، ثم ترقى بعضها في الوقاحة والغلطة إلى مقام عمدة الجمهورية، والتكلم في جنابه السامي بما لا يليق،من المثالب والمرامي، وبذلك الشطط والاستمرار على خطتها العوجاء من أشهر عديدة، قابلها ذوو المراتب السامية بالاحتقار والازدراء، فتمكنت الجرائد العادية من بث أحقادها، ونشر نفثاتها السمية، بين سكان الإيالة المحمية، بداعي إطلاق عنان الحرية.

ولا يخفى أن الحرية إنما ساغ إطلاق عنانها إلى هذا الحد في الممالك الأوروباوية، لاتحاد الوجهة والصبغة القومية، وكون التفرق إنما يأتي في الآراء الخصوصية، ثم لسريان نلك الأفكار الحرة مسرى الدم في نفوس الأمة، وعدم اهتزازها أكثر مما يلزم، لضروب المطاعن وصنوف الانتقاد، فالقياس في استعمال تلك الحرية بالديار التونسية التي تعددت فيها المشارب ، وتفرقت فيها المآرب، وتباينت فيها العناصر والملل، من باب السعي في تعكير الراحة العمومية ماديا أو أدبيا، وبث روح الشقاق والشحناء، بين طبقات السكان، بهذه المملكة

المحمية، والإخلال بناموس الهيئة الحاكمة، والتصغير من مقام أولي الأمر، فالوالي على مقاطعة من مقاطعات فرنسا لا يستصغره من لنظره، إذا صادرته جريدة محلية، لتقدير أهالي الجهة ، بفضل المعارف وقوة التمدن، تلك المطاعن حق قدرها، وعلمهم أنها لا تمس ناموس السلطة الإدارية، بخلاف ذلك في عامل على عروش من العرب، من مقالة هجوية، أدرجت في التشنيع بأفعال عاملهم، وأحرى القابض على زمام أمورهم، من ذوي المراتب السامية، فربما عدوا سكوته عن التنديد بأفعاله، أو هضم جانبه من الصواب محلا، فاستضعفوه، ورمقوه بعين النقص، وهو أمر لا يختلف في صحته بهذا القطر اثنان.

ولذلك كان للصحافة في هذه الديار أهمية وحيثية خصوصية، تقضي بالاحتياط من الوقوع في شباك هذه الحالة الغير المرضية.

وقد قيل إن الوسيلة الفعالة لكبح جماح اعتداء الجرائد المتطرفة، هو إلزامها بضمان مالي، يقدمه صاحب الجريدة، حتى إذا ما صدر منه ما يخالف قانون العدالة والآداب، خصم منه مقدار الجزاء النقدي الذي يحكم به عليه، ولكن هذا الاحتياط لا يكفي في حصول الغرض المقصود من التدبير، فقد يتفق أن متمولا له غلة، يريد أن يشفيها من زعيم أو عدو، بطريق الصحافة، فيقدم الضمان، نيابة عن صاحب الجريدة، أو مساعدة له، ويقتحم عقبة هذا المانع، الذي جعل عثرة، أو سدا في وجه المحرر، فيتمكن من الغرض، وقد دلت التجارب السابقة على عدم كفاءة هذا التدبير.

والذي يظهر من قرائن الأحوال، ومن التجارب السابقة، أنه يتعين على الحكومة أن تسن لعموم الصحافة بالإيالة التونسية أحكاما خاصة، تقضي بها حالة القطر العمومية، واختلاف المصالح، وتباين المشارب، وتفرق العناصر، مما هو مصداق الحالة السياسية، حتى إذا ارتكب من الشطط، ما يمس بجوهر مصلحة السياسة العمومية، من التطاول على المقامات العالية، أو العبث بحقوق الرعية، أو التفرقة

بين طبقات الأمم الآهلة للملكة التونسية،أو هتك الحرمات والأعراض النقي، نالته تلك الأحكام الصارمة، وأنبأته بأن الإيالة، وإن كانت سالكة طريق التمدن والحضرية الذي انتهجت مسلكه دولة الجمهورية، فهي مملكة إسلامية، تقضي فيها المصلحة العمومية بضبط أحكام الراحة والعمران ، على ما يقتضيه السداد ، وتوجيه العدالة وحالة السكان[2]

2) ع 430 بتاريخ 29 ديسمبر 1896

الصحافة العربية والصحافة الإفرنجية

مرت بنا أيام كنا نتمنى أن نحظى فيها بمنة الحرية الفكرية،لإطلاق عنان الكلام في المواضيع المهمة، التي تهم ترقية مدارك الأمة ونمو سعادتها، واكتساب الملكة الكافية، لمجاراة الأمم الحية في ميادين النجاح، فتهب المدارك الحية بفضل العلم والترقي، وتنزع النفوس الخاملة بروح التنافس، وسر التكاتف إلى مراقي الكمال، بعد الخمول والاغتفال، وهي النهضة التي سعى ولا زال يسعى لتحقيقها إخواننا المسلمون في مشارق الأرض، وإن لم تخطر ببال ولاة أمورهم بالمغارب،علما منهم أنه لا ترجى لأمة حياة، ولا تتوفر لشعوبها سعادة، إلا بإشراق نور العلم، وإطلاق عنان الفكر في مضامير المباحث الاجتماعية العامة، الرامية إلى تلك المقاصد الجليلة، والغايات النبيلة، ولهذه الغايات أوقفت نخبة من أدباء وفضلاء الأمم الراقية في سبيل التمدن نفيس أوقاتهم، وبذلوا ما لديهم من قوة فكرية، ووسائل نقدية، سعيا وراء الإرشاد إلى طريق النجاح، والفوز في كل مباح من النتائج الملاح.

وقد كان لهذه الحركة الفكرية في البلاد الإسلامية الشرقية من النتائج المادية والمعنوية، ما كان له أثر يذكر، وذكر يتردد في نوادي المدنية، وخصوصا ممالك الهند والممالك العثمانية، حيث ترقى الفكر العام، واعتادت النفوس والأفهام، على تقدير فضيلة التكاتف والاتحاد على المصلحة العامة، خصوصا بث المعارف، وتثقيف الأذهان بأنوار العرفان، التي هي أساس سعادة الإنسان، في سائر العصور والأزمان.

ومن آثار هذه النهضة أن فتحت المدارس، وتعددت معاهد العلم في غير ما عاصمة، لنشر التعاليم الإسلامية، وتلقين العلوم الحديثة، ونفق أسواق العلم والأدب، حتى سعى إليه الطالبون من كل صوب وحدب في بلاد سوريا والقطر المصري من الممالك العثمانية، فحمد القوم حسن مغبة هذه النهضة، وتمسكوا بأهداب نتائج الحرية الفكرية، التي طأطأ لسلطانها القياصرة والملوك والكبراء،وائتمروا

بها في السراء والضراء، ولم يكن حظنا معشر التونسيين من هذه النهضة لسوء الطالع، وتمكن الخلل الأدبي من نفوسنا إلا ما لا يذكر في جانب ما نشاهده من إخواننا رجال الشرق وشبانهم من النتائج الفكرية الباهرة، والمفاخر الأدبية، والآثار الوطنية الزاهرة، على أننا قد تخادعنا أو تغالطنا بعض صحف الأخبار والمجلات التي نقف على مباحثها الاجتماعية في ترقي الأمة التونسية، بأننا قد تخطينا في سبيل الترقيات العلمية شوطا بعيدا، يجعلنا ننظر للمستقبل بعين الاطمئنان، بل ربما قضى على الدولة الحالية بالحذر من تكثير سواد المتعلمين، كيلا يصطبغ بقية الأهالي بصبغتهم العلمية، فيبيتوا خطرا يهدد سيادتها في مقتبل الأزمان[1]

ولعل هذه المغالطة ليست نتيجة سوء قصد أو تلاعب بالأفكار، بل من آثار جهل المكاتب والمحرر بحقائق الأمور، وأحوال هذه الديار، بأننا معشر التونسيين لسوء بختنا لا زلنا بعداء بعد المشرقين عن بلوغ منزلة الترقي، التي يتباهى بها إخواننا الشرقيون، وأحرزوا عليها في العلوم الإسلامية من لغات وآداب وفنون، وما ذلك إلا لأن صحف أخبارنا لم تسلك مسلك النصيحة والإخلاص في ما كتبته على نفسها، وأوجبه عليها حب الوطن والإيمان من التجرد عن المطامع الذاتية والغايات الخصوصية، والميل مع الأهواء النفسانية، شأن ضعيف الوجدان مذبذب الإيمان من جهة، ثم أننا إذا نظرنا من حيثية أخرى إلى العلة في تمكن هذه الأخلاق الدنية من بعض الصحف العربية، تمكنا جعلها تباع وتشترى ذممها في المزاد، قليلة العناية بمصلحة البلاد، لاح لنا أن عبء هذا الوزر هو شركة بين القارئ والمحرر، فقراء جرائدنا لقلة تهذيب نفوسهم على حب المصلحة وجلب المنفعة ودرء المفسدة، كثيرا ما يقصدون من قراءتها تمضية الوقت، والبحث عن المفكهات، والحوادث لمزعجات أو المبهتات، فلا يعلق بذهن القارئ من نصائحها الجدية أثر، وربما اكتفى من فصولها

1) يقصد إذا كثر المتعلمون يكونون وبالا على الحضور الفرنسي بتونس، إذا سيطالب هؤلاء بحقوقهم، وأبرزها حكم بلادهم بأنفسهم، ومن هنا منعت إدارة العلوم والمعارف الشباب التونسي من مواصلة التعليمين الثانوي والعالي.

بمجرد الحادث السياسي والخبر، ولعدم تقدير العامة أهمية الصحافة، وجهلهم بوظيفتها المقدسة، وسلطانها على العقول، تراهم يضنون على غالبها بالمساعدة المادية والأدبية ، فلا يؤدون ما عليهم من بدل الاشتراك، إلا بعد لدد وعراك، وهو أكبر دليل على تقهقر تقاعس همم الأمة، فقد أصبحت الصحف معيار درجة ترقي الأمة وانحطاطها، فكثرة سواد الجرائد عنوان انتشار العلوم والآداب، ودليل ترقي النفوس ونمو السعادة، وبضدها تتميز الأشياء، فالصحف الإفرنجية، لانتشارها بين جماهير العلم وأنصار الأدب والترقيات الاجتماعية في سائر طبقات المدنية، آمنة على حياتها ونجاحها من كل عابث باستقلالها، لقوة ما لديها من مال وعدد هو ثمرة وثوق القراء بمسلكها، وضمان الإدمان عليها وقوام وجودها، وذلك في مقابل ما تبذله الصحف من الهمة والغيرة والإقدام، والجسارة للأخذ بيد المظلوم، والضرب على أيدي المعتدين من كل ذي شوكة وسلطة، فهي من أجل ذلك في غناء عن التجارة في مصلحة الوطن، والتهاون بما انتهجته من المسلك الحسن، فلا تتلاشى لها همة، ولا تباع لها ذمة، شرفها محفوظ بسياج القوانين مصان، وأرزاقها جارية من أمداد التجار والمشتركين، فهي آمنة على حياتها من فيالق العوز والتشحت، لا تخشى طوارق الزمان، وحيث كنا في هذا العصر ممن يأخذون أصول الترقي والعمران المدني على أساتذة أوروبا، فما لنا لا تقتدي في مسلك الصحافة بمثالهم، وننسج في الجد لإعلاء شأن الأمة بالهمة والإخلاص على مثالهم.

ولتحقيق هذه الغاية الوطنية الشريفة، وإتباع طريق الذمة النقية العفيفة، يتعين على كل من دبت في جسده الطاهر روح الحياة الوطنية، وداخلته نفحة من الحمية الإسلامية، أن يقابل تلك الهمة بالتنشيط والإعانة والإمداد، فإن التعاون والاتحاد، قوام مصلحة الجمهور والأفراد، وسعادة كافة الأمم في كل إقليم وبلاد، والله الموفق إلى طريق الخير والإسعاد[2]

2) ع 1032 في 13 جويلية 1909

الحمد لله وحده

سيدي محمد الاصرم

سيدي [illegible] حمودة [illegible]

سيدي البشير صفر

سيدي خليل بوحاجب خليل [illegible]

سيدي عبد الجليل الزاوش

سيدي علي بوشوشة

سيدي عمر القلاطي عمر [illegible]

سيدي احمد الشريف

سيدي [illegible] صفر

سيدي علي الدقاق

سيدي محمد بن الخوجة

كل [illegible] احمد الغطاس

المرغوب من السادة الاعضاء [illegible] اسماؤهم اعلاه الاجتماع بمحل ادارة الخلدونية يوم الثلاثاء الثالث عشر من اكتوبر على الساعة الخامسة مساء للمفاوضة في شأن افتتاح الدروس للسنة القابلة والسلام وحرر في [illegible] اكتوبر ١٩٠٣

الكاتب

احمد الغطاس

ولا يخفى السادة الاعضاء انه يتذاكر [illegible] في التاريخ المعين [illegible] لترتيب الدروس من الان [illegible]

دعوة لحضور اجتماعات الجمعية الخلدونية

حفظ الدين بحفظ اللغة

لا مراء في أن الإنسان ابن قوميته، وفرع دوحته، ونصير ملته وعشيرته، وظهير قبيلته، وذلك لما اقتضاه ناموس العمران من التكافل بين طبقات الأفراد، والتآزر على ما فيه الخير والإسعاد، ولما فرضته طبيعة الكون من أن لا ضمان لراحة ولا كفالة لعيش هنيء ، ولا قوام لوجدان، إلا بالتكاتف والاتحاد بين أعضاء مجتمع الإنسان، وهي سنة متبعة، وقاعدة مقررة، جرت عليها الأحكام، وأقيم على أسسها هيكل النظام، في صدر الإسلام، لاتحاد الوجهة وتمحض العواطف، وصرف المهج إلى الغاية الوحيدة التي تفانى في إدراكها الشعوب، وتجشموا لنوالها النوائب، وذللوا لها المصائب، واقتحموا الخطوب.

ولما كان لكل غاية من وسيلة، وكان اللسان أجل واسطة، وأنفع آلة لتجسيم الأفكار، وإفراغ المعاني في قوالب من التعبير، تؤثر على العقول، تأثير القواطع في الأجرام، فقد اتخذها سائر الأمم في جميع العصور والأجيال الواسطة العظمى لتبليغ المقاصد، وتأدية المعاني، وإلهام العقول إلى كل مأمول، ولذلك كان لفصحاء العرب القول الفصل والقدح المعلى، والسيادة بين قومهم في حلبة البراز ومضامير الإنشاد، لما في تأثير أقوالهم على العقول من معاني الجلب إلى الصلاح، ودفع غوائل الشر والفساد، وتربية القلوب على التآلف والاتحاد، للذود عن بيضة البلاد، وبحسب ذلك التأثير، وما يوحي في النفوس من السر الخطير، تزداد مكانة الخطيب بازدياد بلاغته، وعلو شأنه بين أفراد جامعته، ولذلك كان لفطاحل الخطباء المقام الأول في منازل الاعتبار، والقدم الراسخ في استجلاء عرائس الأفكار.

وإذا كانت الإحاطة بسر اللغة هي الرابطة الجامعة لشتات

العواطف الشريفة، فقد وجب على كل راغب في حفظ سياج شريعته وعوائده القومية أن يسعى لإدراك الغاية المقصودة منها، حتى لا يختل الشعور بالخير والشر في النفوس، ويتناقص نور الإدراك لأسرار الحياة وأسباب قوام الوجدان، ويتقلص ظل حب الوطن الذي هو من الإيمان، ولهذا ترى الأمم المتمدنة الراتعة في بحابح الحضارة الراقية مراقي التقدم لا تألو جهدا لبث لغتها بين الأقوام الذين ساقتهم الأقدار، وأفضى بهم التقاعس في ذلك المضمار، لحكمها فضلا عن اعتنائها برفع منار العلوم والآداب بين طبقاتها المتساكنة،علما منها أن حفظ الجامعة، وتعزيز سياج النخوة الملية، والروابط الوطنية، منوطان بذلك الاهتمام، الذي أجمعت على فضلها الأقوام،وخضع لسلطانه الخاص والعام، وإن لم تدرك سره سائر الأفهام، وكلما تلاشى لسان أمة، واعتراه من النقص والتحريف والإهمال ما ذهب بحسنه وطلاوته تداعى ركن الهيئة الجامعة، وسرى التخاذل لسائر طبقاتها، وتفرقت المشارب بتفرق اللهجات ، وتباينت الوجهة بتباين العوائد،التي تلك اللهجة عنوانها ودليلها، وتباعدت مدارك العقول، لبلوغ المأمول، فيتحكم سلطان الجهل، ويستولي الخور على العزائم، فتقعد عن العمل، وربما أدى الجهل بأسباب السقوط والتقهقر إلى التغاضي عن التمسك بالدين، الذي هو أس الاتحاد، ودعامة هيكل الاستقلال، وعليه فلا غرو إن شعرت الدول التي تنبهت عواطفها لإدراك أسباب التدلي والصعود بين الأمم عن ساعد الجد، لتوسيع نطاق نفوذها، وتعزيز منعتها، وتوطيد سلطتها بين الشعوب، بنشر اللغة التي هي مفتاح خزائن عواطفهم، وملاك قلوبهم، بسائر الطرق الممكنة، وذلك لما أنها تحققت باستطلاع تواريخ الأمم، وما سطر في بطونها من تلك الأسباب بنوعيها أنه مهما توغلت لغة قوم في أخرى إلا أثرت على أخلاقه وطباعه، واستمالت عواطفه للتشبه بالأمة الحاكمة

في زيها وملبسها ومطعمها وتشوقها، وفي ذلك من معاني الولاء والإخلاص، واستماتة العواطف القومية، والنزع إلى التشبه ما دلت عليه التجارب، وأيدته شواهد الحال.

ونحن بكل أسف رأينا الجهل باللغة العربية قراءة وكتابة، فضلا عن التبحر في آدابها، والتفنن في علومها، بلغ درجة أدهشت كل واقف على درجة تقلص ظلها بين السكان، وما بعد العيان بيان، فقد ساد الجهل بالآداب العربية على غالب سكان القارة الإفريقية، ومن جملتها الديار التونسية، حتى كاد الذين يحسنون القراءة والكتابة، فضلا عن فهم كتب العلم، يعدون على الأصابع، وما ذلك إلا لعدم اهتمام السواد الأعظم فيما سبق، أو لحق من الأزمان، بتعميم المعارف ، وبث آلاء العلم بين سائر الطبقات المتساكنة، فقد اقتصروا في هذه المصلحة على المكاتب القرآنية للأحداث، وهي في الغالب إنما تثمر تلقين كلام الله القديم، وحفظه في الصدور، دون تهذيب وتثقيف للعقول، وترشيح لعلم اللغة الذي هو مفتاح كنز المعارف الدينية، والأحكام الفقهية، والتغذي بالكمالات الإنسانية، ومن كان ذا ميسرة، أو حريصا على الانخراط في سلك الفقهاء والعلماء، سعى في توسيع نطاق معلوماته، أما بالحاضرة، فينكب الطالب على قراءة العلم بالجامع الأعظم، ويقتحم من مشاق الغربة والانقطاع عن الأهل ما يقصر مقامه، ويحول دون التوسع في المعارف، ومن انعكف على القراءة ببلدان المملكة لا يتوفر له نصاب التحصيل لقلة، إن لم نقل فقد المدرسين بها، وتقاعس همم أهل الاقتدار منهم، لا سيما ذوي المناصب الشرعية، عن إفادة الطلبة بعلمهم، لاشتغالهم بالوظيفة، وما تجره من المنافع، بحيث تقلص ظل التحصيل في غالب الجهات، واعتراه ما لا يحصى من الآفات.

وقد رأينا من حضرة مشائخ الطرق الذين وظيفتهم تهذيب

النفوس، وتطهير القلوب من الأرجاس، شذوذا وزهدا تاما عن القيام بهذه الوظيفة، المأخوذة في مفهوم التأديب والتهذيب والإقراء بالزوايا ومجامع الأذكار، وقد اعتاض عنها بعضهم بإقراء دلائل الخيرات[1] والهمزية[2] وغيرهما من كتب السير النبوية، ظنا منهم أن هذا الإقراء مما يقوي شعيرة الإيمان بين الإخوان، وهي عناية جليلة لمن كان محصلا على النصاب اللازم من معرفة اللغة، يغذي نفسه بحميد الأذكار، ويرتل الصلوات النبوية، والخلال والمعجزات المحمدية في خلواته، ولكن ما كان أغناهم عن الانتصاب بحلقات تلقين تلك الأذكار والصلوات والأوراد، لو كان جميع الموردين يحسنون القراءة والكتابة، ويدركون معاني الصلوات النبوية، والخلال والمعجزات الأحمدية، فإنهم يقرؤون تلك الكتب، ويتفقهون في معانيها الجليلة، ونسوجها الجميلة بأنفسهم ، ويتلذذون بأسرارها، ويزيدون تمعنا في إدراكها، فلا يحفظونها عن جهل، ويكررونها، كما تكرر الببغاء الكلام الملقن، ولذلك كان الأجدر بحضرة أولئك المشائخ، الذين وقفوا أنفسهم على خدمة الدين، واستحكام حبله المتين، أن يقوموا بين عموم الإخوان الذين ألقوا إليهم مقاليد تهذيب النفوس بواجب الإرشاد،إلى ما فيه الخير والإسعاد، في أكناف البلاد، بأن يرشدوا قاصديهم من أهل الصنائع والحرف، الذين لم يسعدهم الحظ بتعلم القراءة والكتابة في صباهم، لسبب من الأسباب أن يتعلموا مبادئ اللغة العربية، لينتشلوهم من وهدة الجهل، حتى يتوصلوا لفهم معاني الكتب ، ويخلعوا نير الجهل عن عواتقهم بقدر الإمكان، وذلك في أوقات الفراغ للشبان والكهول، فيجمعون بذلك بين فضيلتي الإرشاد والتحصيل، ويقومون في مقام التهذيب بمنقبة يشكرون عليها الشكر الجزيل[3]

---

1) دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في التصوف والأدعية لأبي عبد الله محمد بن سليمان الجز ولي، من قبيلة جزولة البربرية في السوس بالمغرب الأقصى ، قام بفريضة الحج، وبقي في الشرق أربعين عاما، ثم عاد الى بلاده، وأسس الطريقة الجز ولية، توفي نحو سنة 1470 م

2) الهمزية في مدح خير البرية للإمام شرف الدين محمد البوصيري المتوفى سنة 693 / 1295

3) ع572 بتاريخ7 نوفمبر 1899

حيا الله اللغة العربية وناصريها

أفاض الكتاب وأدباء الإفرنج القول في موضوع اللغة العربية، والبحث عن درجة حياتها، بل عن أنفاسها، وحركة نبض تلك الروح يجسونه جسا، ليسمعوا لنتيجة أقوالهم في النوادي صدى وحسا، تردده المجامع وتتناقله الصحف، فبلغ مثير هذا البحث والمزاج بنفسه في غمار هذا المبحث العميق، والموضوع الدقيق، بقدر ما تصدعت له خواطر المسلمين خصوصا، وجاشت هذه المباحثة في قلوب كافة التونسيين عموما، لا لأن البحث غريب أو صعب في بابه، بل هو مبحث اجتماعي أدبي يتطرقه الأخذ والرد، وتعتريه عوارض المحك والنقد، ولكن لأن التعريض أو الحكم على اللغة العربية الفصحاء التي طالما دانت لها الأمم الراقية اليوم في سلم المدنية بترقيات شتى ومزايا وأنوار وآثار باهرة، لا زالت في الصحف والنوادي العلمية توسم بالموت الزؤام، أو الجمود الذي هو مقدمة أو سبب الإعدام، قضاء على كل من جمعته بها رابطة الإسلام، ووحدة الدين الذي لا يزال في ممالك أوروبا، ولو التي نبذت حكومتها شعاره رسميا، ركن الشعب الركين، ومعقله وموئله الأمين، فعلى ماذا نلام ونرمى بانحلال العرى الجامعة لشتات إخواننا بانحلال أو تقهقر، ثم موت اللغة العربية التي هي مفتاح إغلاق أسرار الشريعة ورابطة الشعوب الإسلامية، يتناجون بها في مواقفهم، ويتخابرون بها في أسفارهم، ويتذاكرون بها في مجامعهم لغة جامعة، وكفالة من انتثار عقدة التقارب والتحابب مانعة.

ومن الذين أكبروا التحامل على مقام اللغة العربية بعض أفاضل أدباء الذين لم يدينوا بالإسلام من اليهود والنصارى، فمن الفريق

الأول البارع الوجيه المسيو إسحاق قطان[1] الكاتب المترجم بإدارة التسجيل، من أعضاء مشيخة قرطاجنة العاملين ومن شبان المستعربين النابغين، فإنه قام في اجتماع المشيخة الموماً إليها اجتماعا عاما وقع في 13 أفريل الفارط (1909) حضره جناب كاتب الدولة العام[2] وكثير من ذوي الفضل والأدب من إفرنج ويهود وعرب، بتفنيد مزاعم المسيو نويل وظهيره ولخدمة ركاب الحقيقة التي استعمل المسيو قاطان قريحته ومعلوماته الغزيرة في سبيلها، رأينا من الواجب أن نأتي على خلاصة تلك المساجلة الأدبية شاكرين أفضاله، مؤملين الإقتداء بمثاله، وإليك البيان.

هل اللغة العربية حية؟

تحت هذا الموضوع اثبت المسيو إسحاق قاطان بما له من الإلمام باللغة العربية وتاريخها أن هذه اللغة حية بحياة اللغات الحية، فقال: زعم المسيو نويل أن اللغة العربية لغة ميتة، لأنها لما كانت لغة الدين الإسلامي فهي جامدة جمود الحجارة، لا تقبل حركة ولا تقدما، ولا زيادة ولا نقصانا شأن اللغات الحية في كل تنظيم، فإن تلك التغييرات شرط للنمو والحياة في حميع الكائنات، غير أن هذا التعريف على غاية الضيق والتحرج، فليست اللغة العربية لغة العبادات والشعائر والأذكار، بل هي لغة خدمها الأدباء والعلماء والمؤلفين، وخطب بها العلماء، ونظم بها الشعر، كل من النصارى والمسلمين واليهود، فاستخدموا بيانها في مطالعة علوم الدنيا، وأفصحوا بها عن أفكارهم

1) إسحاق قاطان يهودي عمل موظفا بإدارة التسجيل، ولما تحصل على إجازة الحقوق تعاطى المحاماة، وهو يجيد العربية كتابة ونطقا، ويرافع بها في جلسات المحاكم التونسية، له دراسات عن محمد السنوسي بالفرنسية في المجلة التونسية (وكان مديرا لها) ترجم لامية ابن الوردي إلى الفرنسية، وكان من أعضاء الحزب الاشتراكي في تونس. انظر: Lambert Choses... p98

2) يقصد برنارد روا، تولى هذه الخطة من سنة 1889 حتى سنة 1910 وكان قبل الاحتلال ممثل قنصل فرنسا بمدينة الكاف، وهو الذي استطاع أن يجنب هذه المدينة كارثة التخريب والتهديم: إذ كانت محاصرة بقوات فرنسية أعطي لها الأمر باحتلال المدينة عنوة، فقد أغلق أمير الأمراء السيد رشيد عامل الكاف أبواب المدينة وتحصن بسورها الشاهق المتين على قدمه، واستعد للدفاع عن المدينة، وروا يحسن اللغة العربية، وقد اهتم صحبة محمد ابن الخوجة ومحمد الحشائشي بمصنفات فن التاريخ بخزانة مكتبة جامع الزيتونة (راجع الحاضرة ع 596 بتاريخ8 ماي 1900)

ومقاصدهم، فلم تكن في نظرهم لغة الدين والعبادات والشريعة الإلهية، بل لغة من أجمل وأحسن اللغات البشرية، ودون نحاة العرب قواعدها تدوينا قضى ببقائها ثابتة لا تتغير على سنن غيرهم من النحاة المتمسكين بأصول الفن والدين، فأحيوا بذلك دوحتها، وهم الذين أدخلوا عليها في العصور الخالية من التنقيح والإبدال ما أصبحت به اليوم تختال في ثوب قشيب من البهاء والكمال، تعرب عن معاني الترقيات والأفكار العصرية، فاللغة التي يحرر بها الكتبة وأرباب الأقلام جرائد الصحافة العربية بسوريا والديار المصرية ليست بأجد ولا أكثر اصطناعا من لغة العلماء والأدباء على عهد الخلفاء الراشدين، فيما دونوه من كنوز العلم والأدب المستودعة في خزائن العلماء العاملين، مع تفاسير القرآن العظيم، وكتب الفقه والتوحيد.

وعليه فإن المسيو نويل ظهر لنا أتقى وأنقى من علماء الإسلام في تعريفه لماهية اللغة العربية، تعريفا لو قبلناه لأبعد عن ساحة أدبها كل ما ليس بقرآن وتفسير. ثم أتى المسيو قاطان على لمحة من تاريخ اللغة العربية، فساق جملة شواهد من الألفاظ الدخيلة في معجمها من اللغات الأجنبية، أو التي وقع التوسع فيها، أو التضييق في معانيها، للدلالة على مدلولات جديدة، وذلك:

أولا على عهد ظهور الإسلام، وتوافد وفود الحجاج لمكة المكرمة من كل وصوب وحدب.

ثانيا في زمان الفتوحات، وأوج التمدن الإسلامي، حيث تسربت للغة العربية عدة ألفاظ أخرى بحكم العادة.

ثالثا عند تقهقر السلطة الإسلامية إذ دخلت عليها ألفاظ من لغة المتغلبين، فتغيرت قواعد الصرف، وتكيفت بتكيف البيان والمجاز إلى الحالة التي أصبحت اللغة تزاول عليها اليوم لسوء البحث في المدارس الكلية الإسلامية، فظهرت للإفرنج بمظهر الانتفاخ، وفقد الصبغة الأصلية، فحكموا عليها بصعوبة الفهم والتعقيد، واتهموها

بعدم الصلوحية للإفصاح عن المعاني العصرية والأفكار الذاتية.

رابعا في عصرنا الحاضر أي من نحو قرن، ومن أعوام فارطة اهتم فيها أهل الدوق السليم بتخليصها من الأوحال وجميع النقائص، التي تراكمت عليها بتوالي لعصور الخالية، وتوسيع نطاقها باستكمال ما حذف منها تهذيبا لها، لا بأخذ لك من أصولها أو اقتباسا من غيرها من اللغات، استيفاء لنصاب المسميات العلمية، وكذلك قواعد الصرف التي تغيرت لخمسة أو ستة قرون فارطة أصبحت اليوم راقية، بحيث تسلسلت التراكيب في جمل التفسير تبعا لناموس ترقي الفكر الغربي الإفرنجي، وبذلك اكتسبت وضوحا أوضبطا، ما كان تم لها من قبل.

وبلغ هذا الترقي والإبدال حتى إلى مقاطع الحروف، فأصبح العلماء بمصر ينطقون بالجيم قافا، واستغنى القصاصون عن إثبات الحركات في حكاياتهم بالمحلات العامة، وليس البون بين اللغة العربية الفصحى واللغة العامية الدالجة بعميق، ولا ببعيد كما ظنة المسيو نويل، فأصحاب الحرف والجوالون يفهمون معاني كتاب ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة مثلا: إذ تتلى عليهم باللغة لفصحى، وليست اللغة الدالجة التي يتخاطب بها العلماء بأكثر فرقا واختلافا عن الفصحى من اللغة الفرنسوية المتداولة بين أعيان الفرنسويين بالنسبة للغة شعرائهم وأدبائهم، أما لفيف القوم الذين تلقوا مبادئ اللغة بالكتاتيب فإنهم يفهمون معاني ما يقرؤونه في الجرائد السيارة المنتشرة بمصر وتونس، كما يفهم صغار العملة بحواضر البلاد الأوروباوية ما يقرؤونه في أعمدة جرائدهم اليومية من الحوادث المحلية.

ومن المجازفة أن يقال إن حب الإطلاع هو الذي ساق المسلمين بتونس لحضور تشخيص الروايات العربية التي قام بها سليمان قرداحي، فإن في تلك الروايات الإفرنجية من محاسن الآداب، ورقة المعاني، ما لا تستحمله قريحة العوام، بل حتى بعض أهل العلم في الممالك التي اتسع بها نطاق التعليم بالجبر على تعليم مبادئ اللغة والفنون.

نعم لا ترجع اللغة العربية في تقدمها للغة العوام، ولكن ما لها وهذا الرجوع، وهي لغة معجمها أوسع وأغنى وأحسن من كل معجم، وجوانبها متدفقة بالألفاظ المترادفة، حتى إنك قد تجد للدلالة على معنى واحد ثلاثمائة كلمة، فاللغة العربية محتاجة، والحالة هاته، إلى التنقيح والتهذيب بتخليصها من المترادفات التي قد تعوقها عن الانتشار، وهو الغرض الذي يسعى إليه أدباء الشام ومصر في الأوقات الحاضرة تدعيما لحياتها، ولبثوا(؟) فيها الفكر الحديث.

نعم اللغة العربية مصطنعة مستجدة، غير أن اللغة الفرنسوية التي لا تقاس اتساعا بالعربية هي أيضا لغة خاصة بأمة، وبمملكة محدودة بحدود معلومة، ولا نزاع في أنها لغة مستحدثة أيضا بالنسبة لأهالي أوطان بروفنسة وبريطانيا(من الممالك الفرنسوية) مثلا، فأبناء هذه الجهات، كلما غابوا عن مراقبة معلمهم، وحرجوا من المكتب، أقبلوا على الترطن بلغة بلادهم، وكلما اضطروا لتحرير كتاب باللغة الفرنسوية الفصحى أشكل الأمر عليهم.

فاللغة العربية كما أشار السيد خير الله بن مصطفى، لئن لم يحسنها إلا أفراد قليلون من نخبة القوم، فليس ذلك لأنها غير حية، بل لأن من له الأمر لا يبدي حراكا ولا اهتماما لبثها ونشرها بين الطبقات. ألم تكن اللغة الفرنسوية في العهد القديم لغة مقاطعة فرنسوية واحدة؟

وخلاصة القول فإن اللغة العربية حية حياة طيبة، ولئن لم يكن لها من اللين والرونق ما للغات المشتقة من اللاتينية بنسبتها للفرنسوية نسبة الفتاة الباريزية الهيفاء الحاذقة للمرآة الشرقية ثقيلة الإرداف، كاملة الأعطاف، التي يكاد كفلها عند القيام بفعدها، ولكنها شابة يجول الدم والنشاط في عروقها.

فتلقى الحاضرون هذا البيان بمظاهر الاستحسان، وتلاه في هذا الشأن المستعرب الوجيه مسيو كاموسي المترجم العسكري، ثم

المراقب المدني سابقا، وأثبت حياة اللغة العربية مؤيدا كلام سابقه الأديب بالحجة البالغة، وقوة الدليل والبرهان، ونحن نشكر لكل منهما سعيه وهمته، ونسأل الله أن يكثر من أمثالهم في أنصار الأدب[3]

3) ع 1028 بتاريخ 8 جوان 1909

فكر غريب : هل يمكن كتابة العربية بالأحرف اللاتينية؟

ما زال تعلم اللغة العربية شغلا شاغلا للإفرنج بالممالك الإفريقية، وحديث السمر في نواديهم الأدبية، +ولا غرو فإن تعلم هذه اللغة الواسعة البليغة، التي يتكلم ويتخاطب ويتناجى بها نحو المائتين والستين مليونا من المسلمين في ثلث البسيطة، من تخوم الصين إلى سواحل المحيط الأكبر، من أهم ما يستدعي همة الأمم الأوروباوية، لا سيما التي امتلكت أقطارا شاسعة، وممالك عامرة بالمسلمين واسعة، في مناسباتهم ومواصلاتهم، ومدنيتهم الحاضرة والغابرة، وخصوصا أحكام ديانتهم الجامعة، فإن اللغة التي أنزل بها القرآن العظيم، هي الرابطة الجامعة لدينهم القويم، وفد أدرك ساسة الانجليز فضل هذه اللغة، وأهمية تعلمها لموظفيهم في الممالك الإسلامية، فأوجبوا معرفتها على كل متوظفي دوائر حكومتها، ودواوين إدارتها ومصالحها العامة، التي لها المساس الأقوى، والأهمية العظمى، في إساسة أمور البلاد والعباد، حتى برع فيهم نخبة من الشبان، وصار لها في ترقي درجاتهم الإدارية أثر وشان، ولم يكن الفرنسويون من المتسابقين في هذا الميدان، ميدان التقدم والعرفان،إما إعجابا بلغتهم، أو ظنا منهم أن لغتهم لما كانت لغة السياسة العامة شائعة في غالب البلدان، فهم لا حاجة لهم لخوض ميدان هذا اللسان، ولكن تبين أنه مع ذلك لا بد من إلمام متوظفيهم في البلاد الإسلامية عموما، وأقطار إفريقيا الشمالية أو غيرها من الإلمام بهذه اللغة العربية، لما في ذلك من تيسير أسباب التفاهم والمخالطة والمواصلة، وتسهيل طرق المعاشرة والتآلف والتعارف، فقرروا وجوب تعلمها على المأمورين، ولذلك أصبح القوم يقدحون زناد الفكر، ويعملون لإيجاد طريقة يتوصلون بها إلى تعلم لغتنا الشريفة في أقرب الأوقات، وبأقل كلفة وتعب، والحامل لهم على هذا السعي هو أن الإفرنجي من عهد الفطام يشب على الإقبال على تعلم لغته الوطنية، والتوغل، بقدر

الإمكان،في آدابها والعلوم العصرية، بعد تلقي أصول الديانة المسيحية، وهو مجال واسع، وبرووقرام فسيح، تستغرق البراعة فيه السنين العديدة، إحرازا لشهادة النجابة في الدروس العالية والعلوم الأدبية أو الرياضية، تلك الشهائد، التي تخول حاملها، حق التوظف والترقي في المناصب العالية، من الهندسة والافوكاتية والطبية والإدارية والسياسية، فإذا اتفق أن الدولة دعت أولئك المأمورين إلى وظيفة استعمارية ، خارج الممالك الوطنية، أحس بداعي العلم للغة العربية، أو استكمال نصاب تحصيلها، إن كان متخرجا من مدرسة اللغات الشرقية، وإذ ذاك يتناول كتب التعليم، ويحضر دروسه المقامة بعواصم الممالك الإسلامية، التي ساقتها الأقدار، إما لحكم، أو لحماية الدولة الفرنسوية، ولا يخفى، أن من كانت هذه حالته من المأمورين، يتجاذبه عامل الوظيفة التي تخطاها، واتخذها بابا للارتزاق، وبين تعلم لغة أجنبية في مقتبل، وأحيانا في أرذل العمر، كمن تعاطى ذلك في سن الأربعين أو الخمسين، فيصعب، إن لم نقل يستحيل عليه، تعلم لغة مباينة للغته، في الشكل والوضع والذوق واللحن، خلافا للغات اللاتينية المجانسة للغة رضاعته أصلا واشتقاقا، فتراه لذلك يعمل ويبحث لإيجاد طريقة تقرب له البعيد، وتسهل له الصعب، للإلمام بها إجمالا، ولسان حاله يقول: لما كان منال اللغة العربية بعيدا عني، بفوات وقت الشباب والصبا عن تعلمها، فأنا استعمل القريحة في استنباط اقرب الطرق الموصلة إلى هذه الغاية، ولو بصورة إجمالية، وقد تمخضت العقول، وتخمرت الأفكار من ذلك العهد بوسائل شتى، لكن بعضها أصعب من بعض، وآخرها عهدا ما اقترحه بعض أعيان الفرنسويين أخيرا، من تبديل الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وهي فكرة من الغرابة بمكان، نظرا لاستحالة هذا القلب والإبدال، وتعميم استعماله في الحال والمآل.

وقد تداولت الجرائد، وتناقلت العقول حديث هذا الاقتراح، ولذا كان محل الأخذ والرد بين المستعربين من الفرنسويين، ومن برع في

اللغتين من التونسيين، وأغلب أقوال، إن لم نقل الإجماع، أجمعوا على أن هذا الفكر هو في بابه سقيم، وعن الوصول إلى الغاية المتمناة عقيم، بيد أنه:

أولا لا يوجد مسلم على وجه البسيطة، ولو ممن اغتروا بطلاء المدنية، وظواهرها الأدبية، يقبل إبدال الحروف العربية باللاتينية، في تعلم اللغة العربية، وهي لسان الملة والدين، وقوام الاعتصام بحبله المتين.

ثانيا أن ركوب هذا المركب الخشن مما يوهم، ويشعر عامة المسلمين بأن الحكومة التي تسعى بهذا النسخ والمسخ لحروف لغة عريقة في المجد الأدبي، إنما تسعى في إماتة هذه اللغة، ومحق آدابها وآثارها، قطعا لأواصر الجامعة الإسلامية.

ثالثا أن اللغة العربية، لما كانت مباينة للإفرنجية، في المعنى المسمى بالروح والسر والوضع والشكل، فإن ذلك الإبدال ضرب من المستحيل، ولا يحاكيه إلا إبدال الأحرف الإفرنجية بالعربية في تعلم اللسان الفرنسوي، وهو قول لو صدر من بادع لاستغربه، واندهش له كل الأوروبيين، ولذلك لا مراء أن قال كثير من المستعمرين كالكولونال روبيي والكومندان دنشر وأضرابهما، فضلا عن التونسيين، بأن اقتراح إبدال الحروف العربية باللاتينية، في تعلم العربية، ضرب من العبث، وخالفوا في ذلك من قال بإمكانيته، مقايسا للغة العربية بالمالطية[1] كالمسيو دلماس جهلا أو تجاهلا منه، بأن المالطية هي رطانة مشتقة من العربية، تمكنت من أهالي الجزيرة مدة تحكم المسلمين فيها، وأنها أصبحت الآن خليطا من الايطاليانية والعربية والانجليزية، والقول بهذا تسليم بإمكان تحويل اللغة الفرنسوية الفصحى إلى رطانة بعض المقاطعات الفرنسوية في عهدنا هذا

---

1) ذهب الأمر ببعض المحررين في الصحف الأجنبية بتونس إلى أن اللغة المالطية هي الأصل، وأن العربية فرع منها، لمجرد وجود كلمات عربية في اللغة المالطية، انظر الحاضرة ص 145

وإذا تقرر أن هذا الاقتراح ليس في حيز الإمكان إبرازه من القوة إلى الفعل، وأن الأحرف العربية باقية ما بقيت لغتها قائمة إلى يوم الدين، فقد استنتجنا من هذا البحث أن أقرب الوسائل لتعلم الإفرنج اللسان الدالج(؟) أو اللغة العربية الفصحى هو تعلمها بحروفها السهلة، من ضمن مواد التدريس المكتبية بصفة إجبارية، لمن قصد الترقي أو التوظف بالمصالح الإدارية بالإيالة التونسية، وإدماج تعلمها في برنامج تلك الدروس، وفي شروط النجابة في الامتحان، وإحلالها المحل الذي تستحقه، بأهميتها في ميادين الترقي والعرفان، وإلا كانت مساعي النابغين ودراستهم للعربية، واقتراحاتهم الفكرية كالباني على الرمال بدون أساس، والجاري على العمل بدون معرفة ولا قياس[2]

2) ع 1084 بتاريخ 3 جانفي 1911

العـــــدل أساس العمـــران

قد اقتضت حكمة الله أن تتكرر السنين(؟) وتتجدد الأعوام، وتتعاقب الشعوب، وتتبدل الدول، وتتحول الأحوال، من أردئها إلى أحسنها والعكس، آيات بينات من صمدينانيته(؟) ودليل متجدد على وحدانيته، فسبحانه محول الأحوال، ومكور الليل على النهار، وكلما انقضت سنة، أو انصرم حول، كان فيه من حوادث الدهر موعظة وذكرى لقوم يعقلون، وقد أذن القرن التاسع عشر بالترحال، فخلف في غضون أعوامه عبرة وتبصرة لقوم يفقهون، وهي انحطاط الإسلام، وتدلي دوله، وتقهقره في عالم الترقيات، تقهقر لا يعادله إلا تقدم الأمم الغربية المسيحية، التي أدركت أماكن العطب، ومواقع الزلل، ومواضع الخلل، وأسباب التدلي، من تاريخ الأطوار التي تقلب فيها الإسلام، وتفقهت في أوجه الترقي والانبعاث في ميادين العمران، فأخذت منها ما طاب واستطاب، واستعلى شعوبها على معاصريهم في هذا الباب.

ومن سرح الطرف في رياض تاريخ العرب، ودقق بعين النظر ما نقشه فلاسفة الإسلام، على صفحات تواريخه البيضاء من الأسباب والعلل، لا يخامره ريب في أن الأصل الأصيل في ظهور العلل، التي دبت في جسد العالم الإسلامي، دبيب الراح في عقل النشوان، واستفحلت داء كاد أن يكون عضالا، إنما يأتي من الزيغ عن مبادئ الشريعة السمحاء، وأحكامها النقية، والحيادة عن المحجة الوضاء ، التي وضحتها السنة المطهرة بأوضح بيان، فالشريعة الإسلامية إنما كان بها فصل الخطاب، في باب الرسالة لكفالتها بجميع الحاجيات والضروريات البشرية، من حيث المادة الشريعية، قال تعالى:" وما فرطنا في الكتاب من شيء" [1]

---

1) الأنعام:38

فلو حمل القائمون بمهمة كشف أسرارها، وتفسير معاني القرآن الكريم، وتوضيح ما أشكل أو غمض من تلك المعاني على محمل ينطبق على سر التقدم والعمران، واستخدموا ما يخولهم حفظ أسرار الشريعة، من السلطة النافذة في كبح جماح التجاوز عن نصوص الكتاب ومقتضيات السنة، والوقوف عندما جاءت به الشريعة المطهرة من الحدود، بدون أن يضيقوا واسعا، ولا يرتكبوا شططا، لما تقيدت أحوال العمران، وتقلبت أدوار الشوكة الإسلامية، وللازم الشعب بملازمة المرشدين الامتثال للأوامر، واجتناب المنهيات، فاستبقوا بذلك للإسلام شبابه، ورفعوا له من مراقي الفلاح وأسباب العمران منارا، لا ينطفئ نوره، ولا يعتريه ذبول بكرير الدهور.

ومن لازم ذلك حفظ أساس ذلك العمران، الذي هو العدل، به تسود الأمم، وتنمو هيئتها الاجتماعية، وفي ظله تكتسب النفوس الثقة المتبادلة بين الأفراد، التي عليها أساس المشروعات، وبها قوام جسام الأعمال، ففي ظل العدل الذي أمر الله به في كتابه العزيز، حيث قال: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"[2] الآية، تتوفر للأمم أسباب السؤدد والفخار، ويتسنى لها أن تحكم من عداها من الشعوب الجائرة، والقبائل المارقة عن دائرة العدالة، وكلما حادت أمة عن طريق العدل، وتسربلت بالجور، وعاملت من سواها من الأقوام الذين استعملوا لحكمها، وخضعوا لأحكامها، وخنعوا لسياستها بالعسف والهضيمة والقسوة والحرمان من الحقوق المتعارفة، بدون داعي لذلك سوى اختلاف الصبغة والعادة والمعتقد، كان لها من ذلك العسف أعظم نذير، يبشرها بسوء المنقلب عاجلا أو آجلا.

كذلك كان السلف الصالح من صدر الإسلام، سادت في أيامه كلمة العرب، وعلا فيه لواء الإسلام، حتى امتد نفوذه من تخوم الصين إلى ما وراء المغرب، ودوخ غالب المعمور، فدانت إليه الرقاب، واستظلت

---

2) النحل: 90

بظله الوارف الجبابرة من أهل البغي والجور، فبشرت تلك العبر التي كانت تتلى على قلوب الغافلين من كتاب أسرار الحكمة ، وناموس العمران، أنه مهما حل الظلم محل العدل، وأفضى أمر الدولة إلى الانقراض، وعلى تلك السنة من الأوج والمنعة والسؤدد كان دور التدلي والانحطاط، ولنا في تاريخ الأمم الغابرة من آيات هذه القاعدة الأساسية للعمران، ما يؤيد تحول ادوار الحضارة والمدنية وتقلبها حطة وارتفاعا، بحسب ما يظهر في الدول القابضة على زمام أمور تلك الأمم من دلائل التمسك بأصول العدل أو الانحدار مع تيار الجور والظلم.

أين شوكة دولة الفرس التي سادت على قارة آسيا، ورتعت بخيولها في أقطار أوروبا وإفريقيا؟ أين سؤدد دولة الأسبان الذين ضاقت البحار بسفنهم على عهد شارل الخامس[3] وملأت جنودهم البقاع، فملكوا البلاد، وخدموا العمران، خدمة لها في عالم الترقي شأن؟ ولقد تجبرت هذه الدولة على الضعفاء إعجابا بعظمتها، وتيها بسلطانها، فداست أقواما ساقتها الأقدار لحكمها، وأزهقت الأرواح، وأراقت الدماء، وسامتهم سوء العذاب انصياعا إلى دواعي التعصب الجنسي، إن لم نقل الديني، وتيها في ميادين الكبرياء والخيلاء، فآل أمرها إلى ما نشاهده الآن من حال التذبذب والتقهقر والجهالة.

وما يقال في الأمم التي تعتريها أحكام الرفعة والانحطاط، بحسب تمسكها بأهداب العدل، وسلوكها طريق الحسنى، مع مواليها ورعاياها، وارتكابها سياسة الجور صادق على أفراد الهيئة الذين توزعوا السلطة، واقتسموا حظوظ الأحكام، اقتضت التجارب أن لا يبقى بيد حاكم أمر كلما خالجه داعي الاعتساف، والشذوذ عن جادة الإنصاف، وداخله حب الذات والتحيز، فإن طال المطال على الظالم كان العقاب آجلا لقوله صلى الله عليه وسلم:" إن الله ليمهل بالظالم

---

3) شارل الخامس أو شارلكان إمبراطور الغرب وملك اسباني (1516 ـ 1556) احتل تلمسان (1530) وتونس (1535) وقصف الجزائر(1541)

حتى يأخذه" أو كما قال، وإن كشف الواقع عن هذه الحقيقة بدون إمهال كان في انجلاء سحابة الحيف أعظم دليل على سوء عقبى كل معتد في المآل، وليس في استدراج المرتكب والمتعسف المتمادي على رذيل خصاله وذميم فعاله، إلا ما يندرج تحت حكم العقاب الآجل، الذي جاء الحديث الشريف فيه بالإمهال، ولذلك يسرنا، وأيم الله، أن نرى العدل سائدا بين صنوف الأمة الإسلامية، ويؤلمنا أن نرى من رجالها وولاة أمورها زيغا أو نشوزا يخالف ما اقتضته الشريعة الغراء، التي مهدت للنجاح سبيلا، وحثت على مكارم الأخلاق، والإقبال على معدات العمران، والتسابق في ميادينه بين الأقران، فيا حبذا النهضة،ونعمت البعثة، تنطبق على أصول الشريعة الإسلامية، وهي التي توارثها في عصرنا هذا أقوام قد سابقونا في مضمار الترقيات المادية والمعنوية، وشخصوا لأبصارنا وسائل ونتائج أبهرت العقول، وقضت بالإعجاب، وإن كانت منطبقة على سر شريعتنا الغراء انطباقا لا يكابر فيه إلا جاهل أو متجاهل، ومن العدل أن ترد إلى الملة الإسلامية، النهضة التي تبعث في جسدها روح الحياة، وذلك بروح القابضين على زمام أمورها، الموكول إليهم النظر في مصالح مفردها وجمهورها، وتحرك همم ذوي الغيرة والإخلاص من أبناء الوطن، الذين أنبتتهم رياض المعارف النبات الحسن، بالإقبال على مناهل الجد والعرفان، والسمو إلى ما فيه سعادة الإنسان، في مضمار العرفان، فرسا رهان[5]

5) ع 583 بتاريخ 23 جانفي 1900

من دقق النظر في أحوال الأقوام ومقتضيات الأجيال، وتصفح تاريخ المطالب والآمال، علم أن جميع قوانينها ومسنوناتها، لم تخل من عوارض أوجبت تعديل سقيمها، وإنتاج عقيمها، وإصلاح الهيئة المقامة لتنفيذها، أو تعديلها أو تنظيمها.

ولئن كانت أحكام كل أمة قد استوفت فيها شروط التبصر والحكمة والسداد، فقد يظهر من إبرازها من القوة إلى الفعل، ما يتعذر به الانجاز في بلوغ المراد، وقد من الله على الأمة الإسلامية بشريعة سمحاء لا اعوجاج فيها، حوت من البلاغة في الكلام، والحكمة في الأحكام، والصلاح في السبك والانسجام، ما صارت به قدوة الشرائع، وغاية الإحكام، في جميع الأقطار والأمصار، وفي نظر سائر الأمم والأقوام، وقد خاض غير واحد من علماء الأجانب، فضلا عن الإسلام،عباب أسرارها، فأطبقوا على التنويه بجميد آثارها، وحثوا على مراعاة ذمارها، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ولما كنت تلك الأسرار الحكمية، والأحكام القرآنية لا تظهر للملأ، وتكتسب ما هو لازم من الرونق والجلاء،إلا باندراجها في قالب مادي، يرضخ لفعله المكابر، وينقاد لفضله أهل الشكوك والتعنيت، وجب من أجل ذلك إقامة هيئة نظامية تسجل الأحكام العمومية، وتجريها على من تعلقت به نازلة مالية أو جنائية أو إدارية، وتلك الهيئة هي مسمى السلطة العدلية، وهي سلطة مستقلة في جميع الأقطار المتمدنة التي أدركت معنى الحرية، وتفقهت في أصول العدل والأحكام القانونية، وإن شئت قلت الشريعة الموضوعة، لكبح التعديات الإنسانية، لا يتطرق نفوذ السلطة الدولية ساحتها، ولا يتلقى حكامها غالبا أوامرها، ولذلك كان لجمهور القضاة احترام مستمد من احترام الأحكام الموكولة لعفتهم وأمانتهم، والعدل أمانة الله في الأرض، أودعها خيار عباده، ليوزعوا آلاءه بين عموم أفراد خلقه، فهو أصل

واضح المحجة، غني في آثاره عن البرهان والحجة.

وتلك الهيئة هي المنقسمة إلى المحاكم العدلية الحاكمة، أما في مادة مدنية، أو في مادة جنائية وجناحية، أو مسألة إدارية، ولتسهيل التناول وضع لكل من تلك المواد دستور مخصوص، لا يتناول غيره في طريق الحكم، وبذلك التوزيع في الأحكام توضحت محجة الأحكام، التي يجب على عموم القوم أن يعلموها، حتى يمكن لهم أن يتبعوها أو يجتنبوها، ويتمكن الحاكم من تطبيق النص على المنصوص، والحكم على المحكوم، وهو تقسيم حسن لمن تفهم آثاره، ونظر في نتائجه نظرة المتأمل البصير، ومعلوم أن تسهيل الأحكام على سائر الأفهام، موطد لطرق اعتبار ما في تلك الأحكام من الفضل والسداد، والإحكام في النقض والإبرام.

وجاءت الشريعة الإسلامية الغراء بسائر الأحكام، التي ظهرت مقتضياتها قديما وحديثا، قال تعالى: " وما فرطنا في الكتاب من شيء"[1] فأذهلت العقول بإتقان الصنع، وحميد الوضع، واستكمال الأوامر والنواهي، وكل حكم يتوقف عليه حادث بشري في سبيل العمران والوجدان، فاعتبر الأقوام ما لرفعة هذه الشريعة الإسلامية من الشأن والسداد الغني عن البيان، ولكنهم عابوا تطبيق الحكام لها بالإجمال، وعدم التنصيص في الأحكام، على فقرات قواعدها وأصولها وأحكامها في غالب الأحوال، وبذلك انحجبت عنهم أشعة نورها، فامتد الانتقاد من التطبيق إلى نفس دستورها، ولكن أيعمى العالمون عن الضياء؟

ثم إننا إذا ذهبنا بالنظر في أصل هذه الأحوال، وجدنا لها من أسباب الانتقاد ما لا يقبل التمويه بحال، فأقوم الشرائع إذا لم يكن إدراك كنهها في مقدرة سائر الأفراد ، وذلك بوضع أحكامها، على ترتيب يحفظ عين أحكامها، ويؤيد في الوجود حجتها وانسجامها، لم

---

1) الأنعام:38

يظهر لعين الجمهور حسن انتظامها، وجليل أحكامها، ولذلك لا يعلمها إلا الراسخون في العلم من أهل المقدرة والفضل، وهم في جانب السواد الأعظم نزر يسير، كقطرة من يم، على أن الواجب تعليم الشريعة كل الأفراد المخاطبين بها، ليتبعوا أوامرها، ويجتنبوا منهياتها، كما ذكرنا، وبذلك تسهل وظيفة القاضي، بقدر قلة المخالفات بمعرفة الواجبات.

وقد أصبحنا الآن في عصر بزغت فيه شمس المعارف ، وقويت فيه نار الكد، ودواعي الجد ، فأصبحنا إلى الأساليب المسهلة محتاجين، وإلى وسائل التحصيل المختصر طالبين، ولذلك نرى أول خدمة تخدم بها الحكومة التونسية هذه البلاد ، وتساعد بها جميع الأفراد،على توطيد سبل الأمن والإسعاد، هو أن تدون الأحكام التونسية، في مدونة عمومية، يقضي بها الحكام بين الناس بالحق، وتلهمهم في نظرياتهم إلى طريق الصواب والصدق.

فإن الأحكام التونسية ـ والحالة هاته ـ متفرقة في أوراق شتى، وكراريس تترى، يعتريها النسخ ، فلا يهتدي الواحد للتفرقة بين الناسخ والمنسوخ، متراكمة دساتيرها بعضها فوق بعض، كمواد شتى ملقاة على الأرض، ممتزجة ببعضها امتزاج المدني بالجنائي والإداري بالتجاري، وهلم جرا، ولذلك هامت العقول في معرفتها، ولم يهتد الحاكم في احتكامه إلى تطبيقها، على وجه يكفل باحترامها، ويقي الخصم من الوقوع في إبهامها، وقد يكون الفصل والحكم الواحد له تفاسير عديدة، متشابهة من الإشكال ، وسوء الاعتدال ، في التحرير والفهم، إن لم نقل تمسك الحاكم أحيانا برأي، يظهر له بادئ بدء، فإنه قد يتمسك الحاكم برأيه،فيصمم عليه، ولا يقبل الرد عليه، وإن دفعته حجة المعارض اعتمادا على إشكال أو إبهام في النص، وفي الغالب لا نص يستند إليه فيما يصدر من الأحكام، فإذا وقعت معارضة، حمل الحكم على قرائن مرجحة، أو على حجة قد تعارضها أخرى، وأحيانا يلتجئ الحاكم والمحامي إلى القانون الفرنسوي

تملصا من حكم يخالف رأيه في الشريعة الإسلامية، والعكس بالعكس، وبذلك لا يمكن حصره في رأي واحد، وهذه سفسطة السياسيين من الرجال لأحكام المحاكم العدلية ذوي الإنصاف والاعتدال.

أما الخصم الجاهل فأمره مفوض إلى ربه، قد تناله الأحكام الصارمة، في حالة نال فيها غيره الرحمة التامة، لتفرق الآراء، وعدم الاستناد إلى حكم مسطر مصرح فيه بالذنب والجزاء.

ثم لتراكم القضايا على ذات واحدة أو ذوات معدودة من الباحثين أوالحاكمين في قضايا مئات من آلاف الخلائق الآهلين بهذا القطر، وهو خلل عظيم نرجو الالتفات إلى ملافاته، فالعمال، هم بمقتضى أصل وضعهم ومقتضى مأموريتهم، نواب الحكومة في السلطة الإدارية والعدلية العرفية، وضبط الأمور وحفظ الراحة، وترى بعضهم يوجه للمحكمة المركزية جزئيات النوازل وتوافه القضايا، من سرقة نعجة، أو تهمة في ديك، أو غير ذلك، فتمتلئ دفاتر النوازل المهمة بتلك التوافه، وتعطل انجاز المهم منها، فيطول خفيف الجريرة، وتمتلئ السجون، وتكثر نفقاتها على الخزينة، ويطول البحث، وتضجر النفوس، فترفع أصوات الشكوى من سوء هذا الحال، على أن الحكومة اعتمدت نوابا في مهماتها، فكان من واجبها أن تنيط بهم فصل القضايا إلى درجة محدودة، أقامت لها نوابا عن بعض سلطتها، وإن كان الأجدر في هذا السبيل إقامة هيئات فرعية عن الحكومة المركزية والإدارة العدلية، تباشر فصل النوازل الجزئية، ابتدائيا ونهائيا، فتنفذ الأحكام النهائية، وتجوز الاستئناف في الابتدائية.

ولما كان الأصل شرط الفرع، فواجب على الحكومة أولا تدوين سائر الأحكام التونسية في مجلة خصوصية، وتقسيمها إلى مدنية وجنائية وإدارية وتجارية، وتستمد مجموع تلك الأحكام من الآيات القرآنية والشريعة الإسلامية، إن لم نقل جميعها، مع التوفيق فيما تقتضيه الضروريات الوقتية بين المشهور من الأقوال، وأحكام

القانون الفرنساوي من التجاري والإداري، حيث كانت لها أحكام مخصوصة، اقتضتها المواصلات الوقتية والعهود الدولية، وهذا الفكر الذي لاشك أنه خطر ببال القابضين على زمام الأمور، والسادة العلماء ذوي الفضل المأثور، ليس من البدع المكروهة، التي تخل بناموس شريعة أو وطن، فلنا في اطراده بالممالك العثمانية والديار المصرية أسوة حسنة يجب إتباعها، كيف لا؟ وتلك المسنونات من آثار حجة الله في الأرض، ومن النصوص الشرعية التي إتباعها على سائر المسلمين، أي فرض، فإذا دونت الأحكام الشرعية والإدارية في مجلة فقهية تأتي إقامة المحاكم الصلحية، والمجالس الابتدائية لتنفيذها، بطريقة عدلية، ترتاح لها نفوس الرعية، وتصدر بها الأحكام باسم الحضرة الشامخة العلية، فكما يكون لها نائب فوضت إليه النطق بالأحكام في ديوان الشريعة يكون لها حكام عدليين نائبين عن ذاتها الفخيمة في المحاكم المدنية والجنائية والإدارية والتجارية، كما هو جار في البلاد الشرقية، لا سيما في الآستانة العلية، التي أصبحت فيها الحقوق السلطانية مقدسة مرعية، وإذ ذاك تسنى للحكومة المحمية توزيع الأحكام، وإناطتها بمحاكم تدريجية، فيوكل العمل بالمجلة التونسية إلى درجة ابتدائية إلى هيئة عدلية، تحاكي اللجان البلدية، التي لم تكن إلا هيئة نظامية جارية في عملها على أحكام دولية، مع تقسيم الأحكام الصادرة إلى ما فيه قابلية الاستئناف، وما هو بات، وتقسيم المحاكم العدلية بالحاضرة التونسية إلى تمهيدية وابتدائية واستئنافية، تعدل الدريبة مثلا، وتنسج على منوال محكمة تمهيدية بين تأديبية وصلحية، وتقام محكمة الوزارة محكمة ابتدائية، وتحدث محكمة استئنافية للنظر في أحكام المحكمة الابتدائية، وإذ ذاك يظهر قلم النيابة عن الحضرة الشامخة العلية للوقوف في الدعاوي العامة، فحينئذ يصدق على العدلية التونسية اسم هيئة نظامية، ويفرق كل من الحاكم والمحكوم عليه ما يناله من الأحكام لعلمه بزواجرها، وتحققه فوائدها، ولا يقال إن العدد اللازم من

الحكام القادرين على تطبيق تلك الأحكام قد لا يوجد في هذه الديار، فإن وضوح النصوص وتحريرها على الوجه المطلوب ، مما يسهل نيل المرغوب، ولو بأفراد لم يتوغلوا في علم الحقوق، توغل المبرزين فيه، فإذا دونت الأحكام، وسهل تناولها على الأفهام، وبان فعلها للخاص والعام، تهيآ لإجرائها نخبة من الشبان يدرسون فنونها ، ويتدربون على تصور منطوقها ومفهومها، فتكمل الهيئة العدلية بما يقوم حجة على نهضة الفكر التونسي في عالم المدنية، بعناية أميرنا المحبوب، الذي لا يقصر جهدا عن تسديد كل صالح مرغوب.

ولنا في سن القانون العقاري دليل قوي على إمكان تدوين أحكامها، واستكمال نظامنا، على وجه يرفع مقامنا، ويوجب في أعين الأجانب احترامنا، ويشيل محاكمنا من وهدة التنزل والانتقاد، ولعلمنا بأننا نترجم عن مرغوب السواد الأعظم من السكان في هذا الشأن، التزمنا استدعاء دقة أنظار الحضرة الشامخة العلية، وعمدة الدولة الجمهورية، وسائر أرباب الحل والعقد، الذين امتازوا بحسن الطوية، وإخلاص النية في خدمة البلاد التونسية، راجين من همتهم أن ينظروا لهذا الملحوظ بعين العناية والاهتمام، حتى يقوموا في حق سكان هذا القطر بمزية تنثني لشكرها الأقلام، وتستوجب الرضاء والامتنان من الخاص والعام [2]

2) ع 237 بتاريخ 7 مارس 1893

علم التاريخ

من أمعن النظر في التراتيب الحالية الجاري عليها تعليم الفنون العلمية والعلوم الأدبية، وتصفح برنامج كل هيئة تعليمية في الممالك السالكة سبيل التقدم الراقية مراقي التهذيب، واستكمال الخصال الأدبية بتربية النفس وإرشادها إلى الغاية الوطنية، تبين له بلا خفاء أن علم التاريخ هو في مقدمة جدول العلوم المقررة مزاولتها في كل هيئة اجتماعية، سلكت مسلك الحضارة والمدنية، وباطراد هذا التعليم في كل قطر متمدن وإقليم، تحدث المرء نفسه عن أسباب حرص القابضين على زمام الأمور، على إلزام الشبان من عهد الطفولة، بتعلم تاريخ بلادهم أولا، ثم تاريخ بقية الممالك بالعالم، وخصوصا التي تباري الوطن في مضمار النفوذ والسيادة[1] والناس أحزم من أن يثابروا على علم، لمجرد التفكه والحكاية، ولذلك وجب أن نقول:

إن علم التاريخ علم جليل، قد اعتنى به السلف اعتناء توارثه الخلف فمهدوا لتعليمه سبلا، ونهجوا لتحصيله طرقا شتى، أبلغ في التوصل إلى الغاية المقصودة منه، ولذلك ترى لمدارس أوروبا تآليف شتى، تظهر بالأفق التعليمي في كل سنة، أو بعد سنوات، حرصا على اقتناء أحسن أسلوب، يوفي بالمرغوب، وما هذه العناية إلا لأن القوم أدركوا من تعليم التاريخ الغاية والنهاية، فإن فن التاريخ إذا رضع الصبي لبانه شب على محبة وطنه وجنسه وملته: إذ به يتذكر الصبي خصال أسلافه، والأبطال والرجال المتقدمين من بني جلدته، وما كان لأمته من الفضل على العالم، والفخر المتأثل في مضمار الترقيات المادية

---

1) يشير إلى وجود فرنسا في تونس، وإلى تدريس تاريخ فرنسا لأبناء التونسيين

والمعنوية، ويتوصل إلى إدراك الأسباب التي بلغت بها أمته شأو الحضارة، وشرخ العمران والسيادة والمدنية، فينبسط لتلك المذاكرات قلبه، وينشرح لفخر أسلافه صدره، فيهون عليه عبث الأيام، وتلاعب الظروف ببخت النوع البشري، فإذا قابل أسباب الترقي بأسباب الانحطاط، ونظر في أطوار انتقال الأمم من حالة إلى أخرى، استدل بالأسباب على مسبباتها، وأمكن له أن يستنتج من الحوادث الماضية نظائرها من الحوادث اللاحقة، فيتوصل بطريق القياس والمقابلة إلى اتقاء أسباب التقهقر، والتشبث بدواعي الفوز والنجاح.ثم لا يخفى أن في النفس على حالة الفطرة داعية شريفة خامدة كامنة تحت ستار الإهمال، وهي داعية حب الوطن، وحب الوطن من الإيمان، تحتاج تلك الحاسة في نموها واتساع نطاقها إلى حركات تبلغ بها أشدها، وهذه الحركات إنما تستمد من الفنون التاريخية وتعليمها على الطريقة المرضية، فمن شب على معرفة خصال أمته تقوت جامعة قوميته، وتحكمت رابطة وطنيته، ولم يندهش لفخر ينوه به لغير أمته، فيغار عليها غيرة الولد على والده، وبذلك تتم الجامعة الوطنية، وتتفقه النفس بالمعارف التاريخية، فتهتدي إلى القيام بواجباتها الوطنية على الوجه الأتم ، فتهون عليها أداء المجابي، وإن ثقلت أعباؤها، وتسليم الأبناء إلى الانخراط في سلك الجندية، وإن تراكمت عليهم المشاق والأهوال، وتتوق النفس إلى ميدان النزال، وخوض ساحة القتال، عن رغبة وانقياد تامين، يصح بهما اعتماد الوطن على ساعد أبنائه وشهامتهم، وتهالكهم في سبيل إعزاز كلمة الله ، وإعلاء شأن الأمة، فتهابها أعداؤها، وتخشى بأسهاالاجانب، في المصالح الحقيرة والمهمة.

وقد أدرك الوزير المرحوم خير الدين باشا سمو هذه المدارك، فمدها بعنايته الخاصة، وأدخل من ضمن الفنون والعلوم، التي تقرأ في جامع الزيتونة، دام عمرانه، علم التاريخ، وحث على تدريسه، واستخراج تعاليمه الأدبية، وغاياته الفلسفية، حتى يحيي بذلك دثار العواطف الوطنية، ويسترجع ما اندثر من الشعائر الملية، فأبى الله إلا أن يستمر العمل، على ما اعتاد عليه علماؤنا وولاة أمورنا، من الاقتصار على العلوم الدينية المحضة، لظنهم أن ما سواها علم لا ينفع(في الآخرة) وإن كان لايخفى على من توغل بالنظر في حقائق علم فن التاريخ، وطبق أصوله على الحوادث الجارية كل يوم نصب أعيننا، أن الإحاطة بالمعلومات التاريخية شرط تصور الغاية الملية، والقيام بالواجبات الدينية التي يعبر عنها غير المسلمين بالداعية الوطنية، فما كان شرطا في إحياء ما اندثر من الشعائر القومية لا شك أنها تجب معرفته وجوبا دينيا.

وقد قيض الله في هذه المدة الأخيرة، من أخذ يسعى في رفع منار الفنون الأدبية والعلوم الدينية، بعد اندراس بعضها، وتشييد أركان عمران الجامع الأعظم، على أسلوب يوفي بالمرغوب ألا وهو العلامة الهمام ، فارس ميدان النظام، ومن شهد بفضله الخاص والعام، مولانا الشيخ القاضي المالكي، رعاه الله، أصبح مشمرا عن ساعد الجد، بحزمه المتين، وهمته القعساء، لاستكمال علوم الدين، فقرر مجلس السادة المشائخ النظار تدريس مبادئ الفنون الرياضية وعلم التاريخ، ولاشك أن هذه الهمة الشماء، مما يوجب لحضرتهم الشكر الجميل، من كل فاضل نبيل، ومما يعود على طلبة العلم بالجامع الأعظم بالنفع الجزيل، ولما كان المقصود من كل سعي نوال غايته، وبلوغ نهايته،

فيحسن بنا أن نقول إن كل علم، كما لا يخفى، مبني على أصول يستند إليها في مزاولته، بحيث تكون المعلومات المتحصلة منه راسخة في ذهن الطالب، مستكملة اللدنيات ، متوفرة العنديات، فإذا كانت سطحية خرجت عن حيز العلم بالكلية، ولهذا ينبغي، لمن يناط به درس التاريخ، أن يكون من توفرت فيه شروط الأهلية، فمن ذلك أن الحوادث التاريخية تلوح إلى أقطار وأقاليم وممالك، لا يحيط الطالب بها علما، إلا بممارسة فن الجغرافية، أو رسم الكرة الأرضية، وهو فن تتوقف عليه علوم شتى ، منها التاريخ والهيئة، فكيف يصح لطالب أن يتصور أهمية قطر خراسان مثلا، يتعرض له التاريخ، والحال أنه لا يدري له موقعا ولا أهمية، وربما خيل له أنه في إفريقيا، وهو في القارة الأسيوية، وقس على ذلك، ثم إن وظيفة مدرس التاريخ ليست مقصورة على سرد الوقائع التاريخية، كما هي مسطرة في كتب الفن، وتفهيم معانيها: إذ بذلك لا يبعد عن وظيفة الحاكي للقصص في المجامع العامة، بل من الواجب عليه تطبيق الحوادث على الأقطار، والمعرفة التامة بالتقلبات السياسية، التي كثيرا ما غيرت وجه الكرة الأرضية، بإسناد الحوادث لأسبابها، والاستدلال بالأسباب على المسببات، واستخراج النتيجة السياسية المترتبة على طرو تلك الحوادث استخراجا فلسفيا، تدرك منه غاية من سعى في تعجيل تلك الواقعات، وانتشاب الحروب، ولذلك يظهر، لمن له إلمام بقراءة التاريخ على صفة جدية، أنه لا يتم نصاب التحصيل ، ولا تدرك الغاية المقصودة من إقراء علم التاريخ إلا بشروط ثلاثة: أولها إقامة درس للجغرافيا بخرائط بالقلم العربي، ترشح الطلبة لقراءة التاريخ ، وثانيا تعيين من له معرفة مسلمة بالمعلومات التاريخية عموما، وثالثا أن تعدل طريقة

التعليم، على كيفية يسهل بها مزاولة هذا العلم الجليل :إذ بذلك تبلغ أدارة الجامع الأعظم من مساعيها الحميدة الغاية القصوى، ويشكرها جمهور الطلبة بكل لسان في السر والنجوى[2]

2) ع 318 بتاريخ 16 أكتوبر 1894

العمالة التونسية

الوزارة الكبرى

السيد علي بوشوشة مدير جريدة الحاضرة تشكى لجناب الكاتب العام من الم
دونوبي المتوظف بإدارته حيث دعاه بحق الأمر وبكيفية لا تناسب للخروج
من المكتبة المدنية بدعوى وقوع التحجير على العموم الدخول للمحل المذكور مع
أنه لم يكن بالباب إعلان يستفاد منه ذلك وكان دخول الشاكي للمكتبة لمجرد
الاستفادة بمحتويات تخصه هناك

وادعى السيد علي بوشوشة أن الداعي المتوظف المذكور على ذلك هو حادث
كان وقع بينهما في شأن إعلان طلب المدعى عليه إدراجه بالحاضرة
واستخلص عليه مدير الجريدة الأجر اللازم وكان السيد دونوبي يريد
إدراج ذلك بدون أجر

ولما استفسرت العدلية على ذلك أجاب المسيو فيسولط بأن البحث
الذي أجراه أيد جواب المدعى عليه وهو الآتي بيانه أن المحل هذا وأن الإعلان
بمنع الدخول للمكتبة موضوع على الباب الآن هذا الباب ~~…~~ مفتوح
دائما ولم يتنبه الداخل للإعلان ولذلك يلاحظ السيد علي بوشوشة
الإعلان المذكور عند دخوله للمحل و~~…~~ ولو امتثل من أول الأمر
لكلام المسيو دونوبي لما دعاه للخروج أو بادر هذا الأخير بالإعلام
~~…~~ بذلك من دون أن يزيد في الإلحاح لما حصل هذا الحادث

أما المسيو دونوبي فإنه يقول إن ما صدر منه كان بمقتضى تعليمات
جناب المدير وأن باب المحل الذي دعا السيد علي بوشوشة للخروج
منه ملصق به الإعلان بالتحجير على الكافة والوكلاء والعموم
من الدخول للمحل (المكتبة المدنية) وذلك بعد إعلامه بالتحجير
وتمادى المشتكي على عدم الامتثال – وأنه لا يعرف المشتكي
ولم يخاطبه إلا في الشأن أعلاه

علي بوشوشة يشكو من تصرّف بعض موظّفي العدليّة

إيقاظ الـهمم

من المعلوم أن الله إنما أودع في الإنسان مزية العقل، وخصصه من بين المخلوقات بنعمة الإدراك، ليهتدي بنور مشكاة الملكة العقلية إلى إدراك المحسوسات، ويغوص بمسبارالتميز في بحار الكائنات غوص الغواص، يستخرج مكنون الجواهر من أصدافها، ولوامع الدراري من أغلافها.

ومن المقرر أن تلك القوة الداركة تطرد في كل نفس بشرية، وتتوفر في كل مشكاة عقلية، بقدر ما يعرض لها من أسباب الوجدان، وكلما ازدادت الدراسة، وتثقفت الأذهان بأنوار العرفان، وتحلت النفس من الكمالات بأحسن الصفات،اتسع نطاق تلك الملكة العقلية بنسبة اتساع دائرة المعارف، حتى يبلغ المرء من ترضيها غاية التمييز بين الأعمال الكافلة بالسعادة والعمران، والوسائل التي تمكنه من إحراز قصبة السبق بين الأقران، وبين ما قصرت فائدته من الأعمال على ضروريات الحال، وأغنته عن أن يرمى بنظرة إلى معدات المآل.

وفي هذا الخصوص وجب أن ننبه الأفكار إلى مبحث جليل، وموضوع فلسفي، اقتضت حالة التقاعس الذي عم الأقطار الإسلامية الالتفات إليه، استنهاضا للهمم، وإيقاظا للنفوس الخامدة، وهو معرفة الغاية من تسابق الهمم، في مضمار المعارف والعلوم الوقتية، أما من علوم الدين فقد جاءت الشريعة السمحاء بفصل الخطاب في فضلها، والغاية المقصودة منها، وفي تعزيزها تدعيم لجانب الدين وإحكام لروابطه، واستعصام بحبله المتين.

وأما العلوم التي جاءت ممهدة لطرق الفلاح، وكفلت لسائر الأمم بأسباب التقدم والنجاح، فهي التي أصبحت همم عموم الشبان والأحداث تتسابق في مضمارها، وتجني من مغارسها أجنى ثمارها، وهي الكافلة للشعوب بالفخر والسيادة، وبلوغ ما يعلقونه على نواصي النظامات من أنواع السعادة.

ولا يخفى أن من خدم مصلحة تثقيف الأذهان، بضروب العرفان، جعل لأمته شأنا، وأشاد لأبناء وطنه من الفخار بنيانا، فيرتفع منارها في الدارين، لأن من لازم الترقي في الحياة الدنيا إعلاء الكلمة في الخافقين، ولكن ما الحيلة وقد أصبحت نفوس الشبان من الطلبة، المقبلين على مناهل العلم تائقة إلى غاية محدودة، ووجهة لا يتجاوز أفقها سد الضروري من أمور هده الدنيا، أو التلذذ بنعيمها على قلة وفرته لديهم، وتقلص ظله عليهم، فإنك كلما سألت تلميذا عن الغاية التي يقصدها من دراسته، أو استفهمت عن مقصده، من ذلك التعلم، ما تجاوز في جوابه غاية الحصول على وظيفة ينالها في الإدارة، بخلاف أقرانه من شبان الإفرنج فإنهم إنما يقصدون بإحرازهم على الكمالات العلمية، وتسنم ذروة الترقيات العصرية: تثقيف الأذهان بما درت عليه من اللبان، ولا تتعلق آماله بما تاقت إليه نفس قرينه الأهلي، من التمسك بعوائد شب وشاب ومات عليها أسلافه، وإن كانت لا تلائم طبيعة العمران الحالي، الذي جاء بما لم يكن في الأزمان الغابرة من الحاجات، وأوجد لنا ما لم يكن يخطر لنا ببال من الضرورات، بل أنه بقدر ما يسرح الأهلي طرفه إلى ما خلا من قديم الآثار والمعاهد، ويعلق بها ذهنه، ويعلل بها نفسه، كأنما هي بردته سترد إليه، وبذلك يشتغل عن ما هيأته له الحوادث في الاستقبال من المفاخر والآثار، فيرمي الإفرنجي بأنظاره إلى آفاق بعيدة، وآمال سديدة، يستخدم معلوماته في إدراك شأوها، ويستعمل قواه العقلية في الوصول إلى عاينها، وهي آمال جديرة بالتحقيق والإقبال، تدرك بتوالي الكد، وسلوك طريق الجد، بحيث ساغ أن يقال إن بين الأهلي والإفرنجي من البون في تقدير قيمة المعارف حق قدرها، ما بين التقاعس والتقدم: إذ كان الأول يرمي بأنظاره إلى ما خلا وأخنى عليه الدهر من التذكار، وبلي من الآثار، والثاني يطمح بمساعيه إلى مواصلة الليل بالنهار، للمسابقة في ميدان التقدم والافتخار.

والذي يتضح من حال الأمر أن الذي أدى إلى هذا التخالف في المطامح والاتجاه هو ما تأصل بأفكار عموم إخواننا المسلمين، من أن السلامة في التمسك بالعادات القديمة، أعم من كونها موافقة للنصوص الشرعية، ومناسبة لناموس العمران أم لا، وإنكار كل ما لم يتداول في الأوقات الحاضرة اعتياظا، وإن كانت آثاره مشرقة ومعالمه باهرة في صدر الإسلام، كالعلوم الرياضية والعلوم الطبيعية، كثر منكروها، وقل طالبوها، كأنها بدعة مستنكرة.

ومن هنا تأتى إخماد الهمم وتقاعسها عن النظر في عواقب الأمور، والاحتياط بأنواع الترقي وضروب الاستدراك، إلى كل ما من شأنه أن يدفع عن النفس غائلة الحوادث التي ربما فاجأتنا بها الأيام، بداعي التوكل والقناعة والزهد في الدنيا، أو ما شاكل ذلك من الصيغ التي حملوها على ظاهرها، وتفشى ذلك التقهقر في الأمة، بتمكنه من رؤسائها وكبرائها، حتى انقادت إليه النفوس، وتمكن منها تمكنا عز معه العلاج، والعد ول عن هذا المرتع الوخيم إلى المنهج القويم، وانغمست العقول في نومة الغفلة وسنة الدعة، بانغماس أئمتها وسراتها، وولاة أمورها، في بحار الملاذ ومواطن التنعم والترف، حتى فقدت فيها حاسة الشعور بالخطر، وداعية الإحساس بالانحدار مع تيار التقهقر، فأفضى ذلك إلى الوقوع في مهاوي البوار والثبور، لفقد ذلك الشعور، فلما تراجعت النفس لحالها، ولمحت الهمم حسن استقبالها: إذ احتكت العناصر المتباينة المشرب، المختلفة النزعة ببعضها، احتكاك الجرم الكهربائي بضده، طارت شرارة الانتباه فأيقظت النفس من سباتها، ولكن ما العمل، وقد تنبهت الهمم بعد الخمول، لإشراق شمس التقدم بعد الأفول.

هنا يقف القلم عن رسم المنهج القويم الذي ينبغي سلوكه في الأوقات الحاضرة، لطرق أبواب جنة النعيم الدنيوي، لما لا يخفى من

أن الجنة بأنواعها قد حفت بالمكاره[1] ولكن لا مندوحة لنا من أن نجمل القول بإسداء واجب النصح إلى سكان هذه الديار، الذين تمسكوا بقديم الآثار، لا سيما في الميادين العلمية والمواد التجارية والفنون الصناعية، بأن التيار الذي حمل بسيل العرم، على ما كان لديهم من الخيرات والأرزاق، لا يزال يوالي عليهم الكرات، ويكرر الحملات، وأن لا سبيل إلى النجاة إلا بعقد الخناصر على مقاومة ذلك التيار المهدد، والزعيم المتوعد، والاتحاد على ما فيه نجاح الأعمال، وتحسين المآل، وذلك بالتظافر، والاشتراك في كل مشروع يعود بالنفع، لما أن قوة الجمع في الجلب والدفع، ولما هو مقرر ومشاهد من أن قوة الاشتراك تؤثر من الأفراد في نجاح الأعمال الخطيرة، ما لا توثره قوة الفرد ، وإن بلغ من التثري والتوسع في المعلومات مبلغه ، وإذ ذاك تقضي هذه القوة الجامعة على الهيئة الحاكمة باتخاذ التثبتات اللازمة ، للمساعدة على بلوغ المرام ، وبعكس ذلك يكون المآل ، فإنه مهما تفرقت وجهة القوم ، وتباينت مشاربهم ، لبلوغ غاية يرومون الحصول عليها، من إحياء مصلحة صناعية أو زراعية أو تجارية إلا وقام ذلك التباين سدا في وجههم جائلا دون كل نجاح ، منذرا بأن أفق الاستقبال الذي لم يضعوه نصب ناظريهم لا يلبث وجهه أن يعبس ويكفهر ، وعليه فلا بد من التبصر في العواقب التي تهيئها المقادير المتوقف أمرها على الحركة والسعي الذي حثت عليه الشرائع، وجاءت به قوانين الأمم الراتعة في رياض المدنية[2]

1) يشير إلى حديث الرسول: حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات. رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

2) ع 489 بتاريخ 15 مارس 1898

الأمـــــم والتعـــــــليم

التعليم هو الأساس الذي تبني عليه كل أمة مجدها ، وتشيد أركان سؤددها وعزها، وهو المقياس الذي يعرف به درجة تقدمها وارتقائها، والعلامة التي يستدل بها على مقدار ما هي عليه من المدنية والحضارة، وضده الجهل، وهو ما لازم امة إلا وأودى بحياتها إلى حضيض الذل ، وأسفل درجات الهوان.

خذ مثلا مملكتي الصين واليابان، فإن الأولى (وهي مملكة ابن السماء) قد اندفعت وراء أفيونها، وتقاليدها المستهجنة، ونبذت أمر التعليم ظهريا، فخيم الجهل على ربوعها، والكسل على أبنائها، حتى أصبحت تضرب بهم الأمثال في الخمول والتأخر، وما أشبه ذلك من النعوت القبيحة، والصفات التي لا ترضاها لنفسها أمة، عندها مسكة من العقل، وأصبحت تلك البلاد الواسعة، والأطراف الشاسعة الأنحاء، الغنية التربة التي يبلغ عدد سكانها نيفا وأربعمائة مليون من الأنفس، مطمعا للدول الأوروبية، ولقمة سائغة يسهل على كل إنسان ازدرادها، مع أن هذه الأمة، لو تمسكت بما يفيد، لأصبحت أقوى أمم الأرض لا محالة، بل لصارت القابضة على أزمة الأمور في الشرق والغرب.

أما زميلتها اليابان، تلك الدولة الشابة، التي هي عبارة عن مجموع عدة جزر صغيرة، فإن أهلها، وإن كانوا من ذلك الجنس الصيني، إلا أنهم عرفوا معنى التعليم، وذاقوا فيه لذة الحياة الحقيقية، فمالوا إليه بكلياتهم وجزئياتهم، فلم يمض عنهم زمن حتى أصبحوا في مقدمة جميع الدول الكبرى، الذي مضى على تمدنها أجيال عديدة، وأضحت كل دولة، من هاتيك الدول العظمى، تخطب ودها، وتتمنى محالفتها لها والاتحاد معها، وتقربها منها، وقد ضرب المثل بنباهة الأمة اليابانية وذكائها وقدرتها وخبرتها وتقدمها في كل علم وفن، حتى كانت نادرة الزمان وأعجوبة الحدثان.

وإني ليسرني أن أذكر للقراء، نادرة من نوادر أولئك القوم، يستدل بها على مقدار اهتمامهم بأمر التعليم، واندفاعهم وراء كل ما يرقي إخوانهم، أبناء الأمة اليابانية.

علم الأغنياء منهم أن الجرائد إنما هي أفضل مدرسة وأعظم أستاذ، لما في النفوس من حب الفضيلة، والحث على ترك الرذيلة، والعمل على ما يرقي البلاد، ويفيدها وغير ذلك، فعقدوا اجتماعا من بعضهم قرروا فيه أن يساعدوا الفقير على الاشتراك في الجرائد، وذلك بأن يدفعوا عنه نصف قيمة الاشتراك، وأرسلوا خبرا بذلك إلى أرباب الصحف، وطلبوا منهم أن يقبلوا طلبات الاشتراك من فقراء الأمة بنصف القيمة، وأن الجمعية تدفع لهم النصف الثاني، فلما بلغهم الخبر، عقدوا هم أيضا اجتماعا فيما بينهم، قرروا فيه أن يتنازلوا عن النصف الآخر، حتى لا يكونوا أقل مروءة وغيرة وشهامة من الأغنياء، وبذلك أصبح الفقير يشترك في الجريدة التي يحبها (مجانا).

ذلك مثل من أعمال اليابانيين، ولعمر الحق أن أمة هذا شعور أهلها ليس ببعيد عليها أن تكون سيدة الأمم، ومالكة الدنيا بأسرها.

ومن الضروري أن يكون التعليم بلغة الأمة، حتى لا تضيع العوائد القديمة، التي كان عليها السلف الصالح، وتمحى تلك الأخلاق الكريمة، فتنفصم تلك الرابطة التي تربط أهلها، فيكون ذلك سببا لتبعثرها وانقسامها، إذ أن ذلك من أكبر البواعث على الفناء والاضمحلال، وما أصدق من قال:

فإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيَت   فإن هُمُ ذهبت أَخْلاَقُهم ذَهَبُوا

أما أعظم برهان يستدل به على صحة هذا الاعتقاد، فهو ما نراه من أن كل أمة تغلبت على أمة أخرى، واحتلت أرضها، جعلت تغيير لغة القوم أساس أعمالها، وبذلت كل مجهود في سبل إماتة عوائدهم، وإضعاف شعورهم، وما أشبه ذلك من الأمور التي تكون سببا لانفصال أجزاء تلك الأمة عن بعضها البعض، وبذلك ثبتت إقدامهم، وتقوى سلطتهم.

إذن فما على الأمة التي تريد النهوض إلا أن تتمسك بآدابها القديمة، وأخلاق أهلها وعوائدهم الكريمة، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بواسطة الانكباب على تعلم لغة البلاد، نسأل الله أن يرشدنا إلى أقوم سبيل، إنه السميع العليم[1]

---

1) ع1096 بتاريخ 5 أفريل 1911

DIRECTION DU JOURNAL
"El Hadira"

BOUCHOUCHA
DIRECTEUR

Cité Samama, 19
TUNIS

Tunis, le 19 Novembre [illegible]

A Monsieur le Secrétaire Général du Gouvernement Tunisien à Tunis.

Monsieur le Secrétaire Général

J'ai l'honneur de vous faire connaître que [illegible] juin dernier est échu le paiement de la subvention [illegible] de mille francs que vous avez bien voulu [illegible] au journal "El Hadirah".

Désirant faire des paiements à l'imprimeur du journal, je vous serais très reconnaissant, Monsieur le Secrétaire Général, de bien vouloir [illegible] ordonnancer la dite somme de mille francs pour l'exercice 1896 courant.

Veuillez agréer, Monsieur le Secrétaire Général, avec l'expression de ma vive reconnaissance, l'assurance de mon très-respectueux dévouement.

A. Bouchoucha

بوشوشة يرجو تسديد المنحة السنوية الممنوحة لجريدة الحاضرة.

تـــــعليم البـــنات

لازالت الصحف تبحث وتنقب، وأرباب الأقلام والأفكار يخوضون غمرات هذا المبحث العام، مبحث تعليم البنات، والتطلع إلى وجه يكشف عن معمياته الغطا، ويزيح عن محيا هذه المسألة الاجتماعية غاشية الشطط والخطا، وحيث كانت الأفكار العامة منحدرة مع تيار الترقيات العصرية، مقبلة على أميال المدنية الوقتية، تائقة إلى الانخراط في سلك النهضة العمومية، فلا مندوحة، ولا مناص من استقراء أسباب جموح العقل عن إدراك وجه الإرشاد، إلى ما فيه مصلحة الأفراد، في هذا المراد، ولذلك وجب أن نجاري أرباب الأقلام الراكضة في هذا الميدان، لإبداء بعض حقائق راهنة، ربما ساعدت على تبلج المحجة الوضاء في هذا الشأن فنقول:

مما لا مراء فيه أن نسبة العلم للنفس كنسبة النور للإنسان، فمتى استنار مكانه، واستضاء عقله، اهتدى إلى الطريق الأقوم، لبلوغ سعادة الدارين، ووقف على أسباب العلل الباطنية، والهواجس والأميال النفسانية، فيستأصل بقوة الإدراك المستمدة من نور العلم جراثيم العلل، ويبيد بصقيل صيقل الفكر ما داخل النفس من بواعث الخلل، ومثاير(؟) الخطل، ويتمكن بفضل تلك الأنوار المتدفقة من ثنايا التربية الحقة، وملكة التهذيب الكامل من توسيع نطاق الأميال الشريفة، والمنازع المنيفة، عن طريق العقل ومصدر التصور، على معنى دفعها إلى ما تحمد عقباه، ويعود على سالك هدا الطريق الأوفق، بما يحرك فيه داعي النهضة وروح الترقي، فيغدو من سعيه جذلا مسرورا في سره ونجواه، ولهذا كان لفضل التعليم والتهذيب المقام الأسمى، والقدح المعلى، من بين الفضائل البشرية، وأحلته الأمم الراقية في معارج الحضارة محلا من الاعتبار، ظهرت أثماره للأنظار، فأخذوا بناصري حاملي راية العلم، وأجلوا قدر نابغيه وناشريه، حتى طاب ذكرهم، ونما فخرهم، ودانت لهم الرقاب، وكان للأمة

الإسلامية في هذه المناقب العلمية، والمعالم الكمالية، من آيات العناية والاهتمام، ما كسر سورة الجهل، وألان محتد الغباوة، ورفع منار العلم، حتى انبعثت أشعة أنواره بين الطبقات الإسلامية، وفاضت موارده على الآفاق الأجنبية، فكرعوا من مناهل التحصيل من علوم المنقول ما حفظ التاريخ ذكره، وعم في الخافقين طيب نشره.

ولم يكن حظ المخدرات[1] من هذه المناهل العذبة، وموارد حياة النفوس بأقل من نصيب الشبان الراكضين في هذا الميدان، تثقيفا للأذهان، وتهذيبا للنفوس، وتسابقا في مضمار العرفان، بل خصوصا على عهد الدولة الأموية شعشعت أنوار المدنية الإسلامية، في أقطار البرية، وكتب القوم طافحة بمآثر المصنفات والشاعرات والعالمات من المخدرات، بما يضيق المقام عن استيعابه في هذا التمهيد.

فلما أفل نجم الترقي، وتدنت[2] سلطة الدول الإسلامية، بتحكم شيطان الشقاق، وانحلال عرى الوفاق، تداعت أركان التحصيل والجد في طلب العلم، والتحلي بكمالات العرفان، فأدى ذلك إلى انطماس معالمه الباهرة، ودك مآثره الزاهرة، حتى أصبحت الشعوب الإسلامية تائهة في دياجير الجهل تيها، وتنوسيت معه مفاخر الأجداد، وانتثرت معه عقود العلوم العربية، مهد التقدمات العصرية، ومصدر أسرار المخترعات الوقتية، في كل صقع وواد، فقل النصير، وعز الظهير، لجانب المعارف، فعز الدواء باستفحال الداء، داء التقاعس والكسل، فلم تبق لتلك العلوم من باقية، إلا ما أودع بطون الكتب، وعلى أطلال هذه الهيئة البالية، أقامت الأمم الأورباوية من الاعتناء هيكلا عتيدا، وأسسوا معقلا مجيدا، ارتكنوا إليه في استرداد مجد أسلافهم من الروم والرومان، نابذين سفاسف المذاهب، متجشمين أوعار المسالك والعثرات التي كان يقيمها في وجوههم

---

1) أي المحتجبات

2) في الأصل تدانت، وهو خطأ مطبعي

الرهبان والكهان، لحاجة في النفس، هي استبقاء الشعوب تحت سيطرتهم الدينية، تائهين في ظلمات الجهل والسذاجة، فأبهروا العقول ببدائع مجهوداتهم، وأدهشوا النفوس بغرائب تقدماتهم، وعجيب مخترعاتهم، فمزقوا رداء البهتان الشفاف، وتحققوا أن مذهب الترقي لا يعتريه خلاف.

وقد أصبحنا في جميع الأقطار الإسلامية نشاهد بعين الذهول تلك المآثر التي سلفت منا، والمفاخر التي أخذت عنا، تزداد كل يوم كمالا، تبتغي أنفسنا من حظوظها نوالا، لو فسح لها أهل الهمة والحمية من أهل الهيئة الحاكمة والمحكومة مجالا، ودبت لمدة خلت في بعض النفوس داعية المسابقة في ميدان تحصيل المعارف النافعة، كانت مبشرة بنهضة جديرة بأن تعلق عليها آمالا تتحقق بتوالي الجد، وتلاحق الأفكار، والسعي لاكتساب الكمالات النفسانية، بقدر الاقتدار، فنبغ بعض الشبان في العلوم الحديثة، وغصت قاعات المدارس، وعرصات قاعات التحصيل بالطالبين، يلتمسون من وراء المساعي المبذولة تنويرا للعقول، وتهذيبا للنفوس، نقول ذلك لأننا لا زلنا نفرق بين العلم والتربية، الفرق الذي لا ينازع فيه إلا من لبس على العقول، وسار إلى غرض مجهول، وكان من لازم لذة العلم أن ينبذ العلماء أهل الجهل، ولا يجاورونهم فيما اختاروه لأنفسهم من التحقير والتنفير، المفضي إلى سوء المصير، فتراهم يتحدثون بجدة العلم، يتفاخرون بمحامده، ويتبجحون بفضائله، ويتمنون أن ينال البنات حظا وافرا من مكرماته، حتى يحصل التكافؤ بين الزوجين، وتهتدي المرأة في بيتها إلى تربية أفلاذ أكبادها، التربية الصالحة التي تؤهلها لها معارفها، فترضعه أفاويق الكمال، وتودع (نفسه) الغضة حميد الخلال، فإذا ترعرع الولد، وزج به أبوه في ميدان التعليم كان أقدر على تنمية تلك البذور، أمنع من عقاب، في درء الأميال الفاسدة، ولا يخفى أن هذه الغاية لا تدرك إلا بسابق التهذيب والتحصيل، كما أن تعليم المرأة كافل لها بحسن المعاشرة: إذ تكون الزوجة على بينة من

واجباتها وحقوقها، عالمة بتدبير شؤونها المنزلية، وبما تستلزمه إدارة البيت من خياطة وطرز وتدبير، يعود على العائلة بالخير الكثير، ولما كانت هذه الأريحية منطبقة على الأصول الاجتماعية، موافقة للشريعة الإسلامية، التي جاءت بالحث على طلب العلم" طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"[3] فنحن لا نرتاب في أن كل من كان عالما بأسرار الدين الإسلامي، مقدرا لمزية العلم على الجهل، يأخذ بناصية هذه المصلحة، فيسعى بالقول والعمل لتعليم البنات ، حتى يخرجن من طورالعجمة إلى حالة الكمال، والتحلي بحميد الصفات.

ولقائل أن يقول : نعم التعلم يا هذا تعليم البنات، وترشيحهن في ظل العلم إلى سامي الدرجات، حتى يكن من الفاضلات الخيرات العفيفات، لا من الفالتات، ولا من المتبرجات، ولا من المستهجنات، لما طبع عليه أسلافها القدماء من العادات، ولا من اللواتي يسعين في فصم ما كان بينها وبين جامعتها من الصلات.

ولكن على أي المبادئ يتدرج البنات؟ وعلى أي الطرق تتخرجن من المكاتب محرزات، لتلك الكمالات؟

قلنا لا مراء أن كل أمة لا سيما الأمة الإسلامية شديدة التمسك بعقيدتها، محافظة على شعائرها وأخلاقها، غيورة على كرامتها، وإن أدى ذلك إلى شظف العيش، وتعاسة الحال، لما أن حفظ تلك الشعائر، وتلك الكرامة من الواجبات المفروضة عليهن دينا وعقلا، فكل مظنة المساس بها تفضي، لا محالة، إلى النفرة والجفاء، ولو كان في الوجهة الجديدة كل نعيم وإسعاد.

وعليه فالذي ينبغي في تحريك همم الآباء، لتعليم البنات من عهد الإدراك إلى حد البلوغ والاحتجاب،هو أن يقيم نخبة من شبان النهضة الجديدة من التونسيين، إن لم تقم الحكومة لهذا الغرض، مدرسة، تجري في تعاليمها على برنامج مخصوص، مطابق لرغائب الهيئة

3) طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة رواه ابن ماجة في سننه والطبراني في الكبير والأوسط

الإسلامية، موافق لشأنها وأميالها واحتياجاتها الخصوصية، يشتمل أولا على تعليم الآداب العربية والعقيدة والفروض الدينية، ثم يختص فيها قسم لتعليم الخياطة والطرز والتصوير، وتدبير المنزل، مع جعل تعليم آلة الطرب اختياريا، وتكون تلك المدرسة لنظر أحد الوطنيين الثقات، المشهود فيهم بالنجابة، فإذا أقيمت مدرسة على هذا الترتيب الصحيح، الذي لا نخاله يصادف إشكالا من كل ذي عقل سليم وطبع مستقيم، ساغ للأولياء إرسال بناتهم إلى دار جمعت بين علوم الدنيا والدين، وحق عليهم اللوم والتعنيف في الإباءة والتمنع من الانخراط في سلك طلب العلم الذي أوصى به خاتم النبيين[4]

---

4) ع 595 بتاريخ 1 ماي 1900



من اليسار إلى اليمين، الرابع : علي بوشوشة عضو الجمعية الخلدونية – تونس 1905

التربية والتعليم

تقدم الكلام في عدد 638 على الدور الأول من أدوار الحياة[1] وهو طور الطفولية، وما ينبغي أن يتلقاه فيه الولد من مبادئ التربية الحقة من ثدي أمه، بحيث تتهيأ فيه القابلية لإدراك مبادئ العلوم والفنون التي بها بتثقف ذهنه، ويكتسب ملكة التصور والإدراك لمعاني تلك العلوم، منطوقها والمفهوم، وهو الدور الثاني من أدوار الحياة، وربما كان هذا الدور أهم أدوار الحياة، لما أنه الواسطة بين مبادئ وظائف الاجتماع البشري ونهايتها، فهو واسطة سلسلة الأعمال المطلوبة من الرجال، ولذلك نقول: ينبغي الاعتناء بتربية الولد، بمجرد دخوله للمدرسة في السابعة من عمره اعتناء خاصا، تتوفر به الغاية المعلقة على ناصية التعليم والتهذيب، وهي الجمع بين فضيلة العلم وثمرة العمل، لما أنه من المقرر في الأمثال الحكمية : أن علما بلا عمل، كشبح بلا عقل، وقال سيدنا علي كرم الله وجهه : العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا انتقل.

ولسوء الحظ ونكد الطالع نرى غالب الصبيان،إن لم نقل جميعهم، إذا بلغوا سن القابلية لتلقي العلوم والفنون، ينزوون في الكتاتيب، حيث يقبلون على حفظ القرآن العظيم، وتعليم الكتابة خطا على الألواح، وشيء من الرسم، فيقضون في ذلك السنين الطويلة، إلى أن يبلغوا الخامسة عشر أو أكثر من عمرهم، وهم إما يشقون سور القرآن بطريقة الحفظ المجرد، أو يكررون حفظه الكرات المتعددة، ظنا منهم أن ذلك منتهى العلم، ولعلهم أخذوا بالأوهام المخيمة على عقول غالب المؤدبين، الذين درجوا على هذه الطريقة في صباهم، القائلين بأن حافظ القرآن العظيم، مستجمع لسائر العلوم التي أودع الله أسرارها في الكتاب الحكيم، وبذلك يغتر الولد بظاهر هذا الفهم السقيم، ويقيم

---

1) يشير إلى الافتتاحية الخاصة بتعليم المرأة وعنوانها " نظرة في تعليم المرأة " ع 638 بتاريخ 12 مارس 1901

مدعي هذا التأويل دليلا محسوسا على جهله بأسرار كتاب الله: إذ مثله كمثل الحمار يحمل أسفارا، وما ذاك إلا لأنهم لم يعلموا أن القراءة والكتابة ليستا مقصودتين لذاتهما، بل لما توصلان إليه من تلقي علوم الدين والعلوم الوضعية، ولذلك نرى المؤدب في الغالب يحسن لأولياء الصبي الاستمرار على حفظ كلام الله، إلى أن يبلغ سن المراهقة أو الشبيبة، فإذا انفصل الولد عن الكتاب في ذلك السن، وجلس لحلقة تدريس العلوم، وشم رائحة الفهم، أو حصل على ملكته، انفتح في وجهه أفق جديد، يرى من خلاله جهل المؤدب وغلطه، ويتلذذ بأنوار العلم وأسرار البلاغة والحكم البالغة، التي أودعها الله في كتابه القديم، فينتقل من عالم الأموات إلى برزخ النفوس الحية، ويبعث بنور الكمال في ميدان الترقي والإدراك الذي يلتحق فيه بالعلماء الأخيار.

وفي هذا الخصوص ينبغي أن يقال: إن الولد إما أن يكون من القادرين على متابعة الجد لتحصيل العلم إلى هذه الدرجة، درجة الاستكمال أم لا، فإن كان قادرا لزمه أن يصرف في هذه الوجهة أضعاف ما صرفه من الوقت في الكتاب، ليحصل على درجة العالمية، ويترشح لخطة علمية أو فقهية، ويبرع في العلوم الإسلامية، بما يمكنه من الإفادة والاستفادة، وذلك لموانع شتى أخصها أن الطالب الذي قرأ العلم في سن المراهقة، إذا قضى ثلاث أو أربع سنوات في حلقات التدريس، وخصوصا إذا كان أفاقيا منقطعا عن بلده، ناء عن الآهل، متكبدا لمصاريف ربما أجحفت به، تنقبض نفسه لطول المكث والإقامة على القراءة، وربما تاقت نفسه إلى أخذ حظوظها من نعيم الحياة، من خدمة وعمل، وتحقيق أمل، ثم لخلل الطريقة، الجارية في التعلم، القاصرة على النظريات والقواعد، المانعة من تطبيقها على مقتضيات العمل، بحيث يتخرج الطالب مملوء الو طاب بأصول العلم،

ولكنه خاوي الجراب من ثمرة العمل به، فتضيق به المذاهب في الانتفاع بما حصله، ويضطر إلى دروس أخرى، ومزاولة علم جديد، وهو علم التطبيق، والعمل الذي لا يتم بدونه أمل، وربما تردد على دواوين الحكومة في طلب خدمة، يجني من ورائها ثمرتي العلم المادية، للقيام بأود الحياة، والمعنوية، وهي تطبيق الدال على المدلولات، ولا يخفى أن هذه المندوحة قل أن تتوفر في الأوقات الحاضرة، التي كثرت فيها المضاربات على موارد الرزق، والمزاحمة على التوظف، بما جعل الوظائف عزيزة المنال، محفوفة بالمصاعب في الاستقبال، ولذلك ينبغي أن يكون التعليم الإسلامي جامعا بين العلم والعمل، حتى يتمكن الطالب من استخدام معلوماته فيما ينفعه، النفع العائد على ذاته، الشامل لبني جلدته، ولا يقعده حزمه عن كل خدمة مطلوبة منه من جراء معلوماته.

وأما إذا كان الولد غير قادر على الترقي من قراءة الكتاب إلى قراءة العلم، فإنه يترفع عن كل خدمة بدنية، لما يرى من وجوب التكريم والاحترام لذاته، وقل أن ترى حافظا من حفاظ كلام الله منقطعا لخدمة أسلافه، بل يتخذ القراءة بالمقابر والمآتم حرفة له عند الحاجة، ولا يعدل عنها إلى تجارة أو صناعة أو زراعة، ولو قومته بالقرع والتعنيف، بل يكتفي بما يسد الرمق، لما داخله من الوهم، واعتبار ذاته أرفع من أمثاله الذين ليسوا على شاكلته، وهي كما لا يخفى، صناعة وضيعة لمن فتح الله بصيرته، وهداه بنور العلم إلى طريق السعادة في الدارين، لا يرضى بها إلا من سدلت على عقله غاشية الجهل، وتغلبت عليه الأوهام الباطلة، ونحن، معاذ الله، أن ننكر على الصبية حفظ كلام الله، فنحن من الذين قاموا بحفظه أداء وترتيلا، إلى سن الثالثة عشر، لكن العيب كل العيب على أولياء

الصبيان الذين يصغون لأقوال الجهال، فيبقون أفلاذ أكبادهم في حيز الإهمال،إلى الوقت الذي يقطع فيه نجباء التلامذة مراحل العلم، ويحصلون في ميدانه على قصبات السبق بين الأقران، فالذي ينبغي، هو أن يستوفي الولد قراءة القرآن العظيم مرة أولى ، بحفظ ما تيسر، مع الإلمام بمجموع الآيات والسور الكريمة، ولا يتجاوز الوقت اللازم لهذه الغاية الثلاث سنوات، يحصل فيها الولد على مبادئ الكتابة والرسم، وهي نتيجة كافية لمن اقتصر عليها، ورمى بأنظاره إلى وجهة العلم الشريفة، التي تستغرق جل أوقات الصبا، لمن أراد استكمال التحصيل والترشح إلى العدالة المنورة، أو خطة القضاء والإفتاء، هذا من حيث نصاب العلم.

وأما من حيث نصاب التربية، فينبغي أن تخصص للطلبة دروس في فقه النفس ومكارم الأخلاق، من طهارة الأبدان، ونقاوة العرض، وخفر الذمم، واتقاء الشبهات، والتباعد عن مواطن الفساد، واجتناب المنكرات، وكسر حدة الطباع البدوية، وحملها على ما ينطبق على سر الشريعة الإسلامية، من التعاضد والتحابب، وإيتاء ذي القربى وإسداء البر، واصطناع المعروف، إلى غير ذلك من الفضائل التي جاءت بها الشريعة الغراء، أما إذا بقي الطالب على سذاجة طباعه، فربما جنى عليه اجتهاده، وعاقه سعيه عن بلوغ مراده، فيعتريه الضر من حيث قصد النفع، ويحمل تقدمه بالنسبة إلى أبناء جلدته على غير محمله، من التبجح وإلقاء الوسواس، ودس السم في الدسم، تحت ستار العلم، والعوام سهلة الانقياد لفقهائهم، خصوصا في البوادي، فقد حكي في هذا الخصوص: أن بدويا سئل قبل أن يلج باب العلم: هل تظن أن الجمل يدخل في عين الإبرة؟ فقال: ذلك ممكن، ثم قيل له في

ذلك، بعد أن استكمل دروسه، فقال: يدخل الجمل في عين الإبرة، وربما نام فيها، فمن كانت هذه منزلته من العلم كان شقيا في ذاته، خطرا على قومه، لخلوه عن التربية والتهذيب.

هذا ما يخص التعليم من حيث صبغته الأهلية، وفي عدد آخر، إن شاء الله، نأتي على بيان التعليم في المكاتب والمدارس الوقتية[2] بالنسبة لأبناء الناشئة، وكل آت قريب [3]

2) تحدث بعد سنة عن التعليم العربي بالمكاتب العامة بالأعداد التالية:

ـ التعليم العربي(1)	ع 692 بتاريخ 15 أفريل 1902
ـ " " (2)	ع 693 " 22 " "
ـ " " بالمكاتب العامة(3)	ع 695 " 6 ماي "
ـ " " المدرسة الصادقية(4)	ع 696 13 ماي "
ـ " " الامتحان والتحصيل(5)	ع 698 27 ماي "

3) ع 640 بتاريخ 26 مارس 1901

ذكرى زيارة الشيخ محمد عبده إلى تونس سنة 1903



الصف الأعلى : من اليسار إلى اليمين : الشيخ العتكي – زويك (مصرى) – على بوشوشة – عمر بوحاجب – عبد الجليل الزاوش – عمر البكوش.

الصف الأسفل : محمد بلخوجة – عمر قلاتى – الشيخ عبده – البشير صفر – خليل بوحاجب.

التعليم العربي بالمكاتب العامة

التعليم العربي في المكاتب العامة، التي لنظر إدارة العلوم والمعارف مباشرة، لا فرق بينه وبين التدريس بالجامع الأعظم، إلا من حيث وقوعه تحت سيطرة مدير المدرسة، الذي له النظر العام على جميع الدروس والفنون المزاولة بها، وما وضع لتلك العلوم والفنون من الجداول والتراتيب، على نمط خاص، قاض بتوفر الغاية من مواد دون أخرى، فالعلوم العربية التي تضمنها برنامج الدروس بهذه المكاتب، ومحلات التدريس مقصورة على مبادئ النحو والفقه والخط، تزاول ساعات قليلة في الأسبوع، على نمط مخصوص، لا يكفل بالنتيجة المقصودة من تدريسها، فإذا أضفنا إلى ضيق الوقت سوء الأسلوب، الذي وصفناه في مقالتنا السابقة[1] بتضييع أوقات التلامذة في التعليم العربي عن غير جدوى، تصورنا كنه عدم تحصيل التلميذ لهذه العلوم، والباعث على ذلك عدم اعتبار العلوم العربية من فقه ونحو وكلام وإنشاء شرطا في إحراز شهادة الفوز بين الأقران، في حلبة الامتحان، كما هو الشرط في بقية المواد التي تضمنها برنامج دروس المكتب، وأوجب القيام بها في كل سنة على التلامذة، وفي هذا الاشتراط من أسباب تنشيط الهمم، والإقبال على تلك الدروس، ما يحمل التلميذ على اعتبارها من متممات التحصيل والفوز، ويا ليت شعري، ما الباعث على توهين الدروس العربية بتلك المكاتب التونسية؟

ولعل الداعي لذلك تغلب أوقات الدروس الفرنسوية على المواد العربية، ولذلك ترى النجيب من تلامذة هذه المدارس لا يحسن التعبير

1) ـــ التعليم العربي (1) ع 692 بتاريخ 15 أفريل 1902
ـــ التعليم العربي (2) ع 693 بتاريخ 22 أفريل 1902

أو الإنشاء، رغما على إحرازه الشهادة الوسطى في الفنون، وما ذاك إلا لخلل فادح في أصل إدارة التعليم بفقد الأساليب الموصلة، والوقت الكافي، والتنشيط اللازم، وعدم الجري في ذلك على مسالك المدارس الأوروباوية، وتراتيبها الموصلة للنتيجة المرضية، في أقرب الأوقات.

يشهد بصدق هذه القضية ما نراه كل يوم من قلة أفراد النجابة،الذي يستحقون خطة الإدارة أو الكتابة، مع أن موضوع تلك المدارس، والغرض الذي أسست لأجله، هو تهذيب وتعليم نخبة من شبان التونسيين،التعليم الكافل ببلوغهم هذه المنزلة من التحصيل، وتدريبهم على العمل، الذي هو بنجاح الأعمال كفيل، بحيث إن من يتخرج من أولئك الشبان، ويحصل على تلك الشهادة، يكون بمثابة الساعي إلى الهيجاء بدون سلاح، في معترك الحياة، لجهله بلغة وعلوم قومه، ثم عدم إتقانه العلوم الحديثة واللغة الفرنسوية، فهو يتربع في القهاوي، متخيلا أنه قد أحرز على منتهى درجة العلم، بما تخوله تلك الشهادة من الأوهام، ويعلل بها نفسه في مراتع الخيال، وبالتمادي على هذا الغرور تسوء الحالة، ويخيب ظن الأولياء، فيتساءلون ساعتئذ على من هذا الوزر والآثام، وريثما يفيق التلميذ من ثملة أوهامه، بخيبة أحلامه، يتيه في بيداء التعاسة والقنوط، وربما سخط على من تسبب في إدخاله المكتب أو علمه فأخرجه عن حرفة آبائه وأجداده، حتى عز عليه الرجوع إليها بفقد الشباب، والتعود على التردد على الأعتاب، لالتماس أقل خدمة أو وظيفة في دوائر الحكومة، كانت من عهد جلوسه على مراتب التعليم هي بغيته الموهومة.

ونحن نرى هذا الضرر من حيث كان، يمكن تلافيه بعدم التمسك والاستمرار في تعليم العلوم العربية بالمكاتب العمومية، على التقاليد

والطريقة المتبعة في جامع الزيتونة الأعظم، محط رحال علوم الدين، ومستودع أسرار الشريعة، لأنه لا وجه ولا ضرورة، لجعل محلات التدريس للعلوم العربية بالمكاتب شعبا أو فروعا من دار علوم الشريعة، خصوصا وللمكاتب صبغة خصوصية، تسمح بتنقيح أساليب التعليم على الأصول الوقتية، والأساليب الحالية في المدارس المصرية أو الشامية، أو على أسلوب يحاكيها، تقوم بتحريره هيئة علمية، كتنقيح كلمات المسائل والقواعد النحوية في كتاب موجز يلم به الطالب ، ويكسبه ملكة كافية في العامين أو الثلاثة، مع إرداف كل قاعدة بتمرين في تطبيقها، حتى إذا ما طولع في ذلك التمرين مدرس النحو،أدرك من صاحبه فهم القاعدة أو عدمه، وجمع بين فضيلة العلم ومزية العمل، ولا خير في علم بلا عمل، وعلى ذلك النمط يمكن أن يلحق ببرنامج التعليم درسا للإنشاء، بواسطة كتاب لتطبيق ما يقرؤه الطالب ، وما يحصله يكون موجز المعاني والبيان، بحيث يجمع في هذا العلم أيضا بين العلم والعمل، ويطالب المدرس بالوقوف عند حد ذلك الكتاب، وبعدم الخروج عنه إلى مبحث أو علم آخر، ويتعقبه ناظر الدروس في القيام بهذه المهمة، فيرجعه للصواب عند الاقتضاء، سخط المدرس أو رضي، ونحن على يقين أن من المدرسين من يرغب في هذا التعديل، لطريقة التحصيل، لما فيها من تمام الفائدة على العالم والمتعلم، ومن علم تعلم.

وإذا كان رجال العلم لا يزالون يقدحون زناد الفكر بالأقطارالأوروباوية، لتحسين أساليب التحصيل بالمدارس العامة، وتسهيل ذلك على الشبان، إعلاء لمنار العلم، وشوكة الأمة، مع ما عليه تلك الأمم من الترقي في ميادين الحضارة والعرفان، فأحرى بأمة حط

عليها الجهل كلكله، وداهمتها نوائب التأخر والفناء، أن تنفر وتنهض، لتحسين حالتها الفكرية، ورتق فتوقها الأدبية، لطلب إصلاح وتعديل طريقة التعليم للعلوم واللغة العربية المزاولة بالمكاتب العمومية، ولا يقال إن المدرسين لا ترضيهم تلك البدعة، ولا تروق لديهم تلك التنقيحات ، فإن المعتمد في نظر أهل التدبير والسواد، هو ما يعود بالنفع على كافة الهيئة الجامعة، لا على بعض الأفراد، ويد السلطة الحاكمة أقوى من أن تستوقفها كراهة فرد أو أكثر، وقد عهدنا ذلك في غير ما تدبير أو عمل خطير، فإن توفقت إدارة العلوم والمعارف إلى تعديل وأساليب التعليم للغة والآداب والعلوم العربية بالمدارس العمومية خلدت لنفسها وللدولة المحمية جميل الذكر، واستحقت من الخاص والجمهور وافر الشكر، على هذه النهضة الأدبية بالديار التونسية.

وفي عدد آخر، إن شاء الله،نأتي على حالة التعليم العربي بالمدرسة الصادقية أم المدارس التونسية، حيث لم تتوفر لدينا الإفادات التي طلبناها في هذا الخصوص.

هذا وقد اتصلنا بعد تحرير الفصل أعلاه برسائل منسوبة لبعض طلبة العلم بالجامع الأعظم، ولكنها مجهولة المصدر في استحسان ما نشرته جريدة الحاضرة من المقالات الضافية بخصوص أساليب التدريس بكلية العلوم الإسلامية، وفي استلفات أنظار إدارة الجريدة لمسألة كيفية إجراء الامتحان الشفاهي، التي يراها أرباب تلك الرسائل غير معربة عن براعة أو قصور الممتحنين(بفتح الحاء) لما أن موضوع الدرس يعين لهم قبل إقرائه على رؤوس الإشهاد يوم وليلة، وهو زمن مديد، بالنسبة لتحضير ذلك الدرس، يسمح، لا محالة، لبعض

التلاميذ أن يستعينوا على إلقائه بمن هو أطول منهم باعا في العلوم، وحيث إن تلك الرسائل غير ممضاة من أصحابها (وكان يمكنهم بأمان إباحة ذلك إلينا، واستكتامنا في عدم إشهار أسمائهم) فلا يسعنا إلا العدول عن نشرها، ولا يفهم من هذا أننا أهملنا الكلام على مسألة الامتحان المذكور، فتلك سنعود لها في إبانها، وكل آت قريب[2].

1) ع 695 تاريخ 6 ماي 1902

الحـــادث المـــسيء
الفـــوضى في التعلـــيم

في كل سنة آية على تحكم سلطان الفوضى في طبقات التعليم، بسبب استبداد بعض متوظفي هذه الإدارة، في نشر المعارف بين طبقات السكان، بقطع النظر عن الأجناس والأديان، فقد تبين من إجراءاتهم أنهم لا يراعون للسياسة عهدا، ولا للمسلمين وعدا، ولا يحفظون لهم ودا، بل ربما تجاهروا بالبغضاء والمخاشنة والعداء، وكانوا سبب داء قل أن يلفى له دواء، وهو داء النفرة والجفاء، بين العناصر المتكاتفة على ما فيه الخير والصفاء، ذلك الداء الذي تسعى الدول المستعمرة أن تتلافاه بسياسة العدل ، واشتراك المصالح والإحسان، لعلمها أن الصدق لبلوغ الغاية أبلغ وسيلة، وانجح دواء، فالواقف على تصرفات بعض أولئك المأمورين يخيل له أن كل مأمور أصبح سلطانا مهيمنا، بل جبارا مسيطرا في دائرته الإدارية الفرعية، لا يصده عن استبداده سلطة رئيس أو سطوة مدير، بحيث يتهدد الإدارات والحكومات بتهدد أولئك الذوات، ما يحاكي أشنع الفوضات، في المصالح العامة والإدارات، وقد يحمل المأمور المستبد خيلاءه وغروره بسطوة المأمورية، واستواءه على عرشها، وتربعه في دستها، أنه لا قوام لتلك المصلحة إلا بوجوده رئيسا أو مهيمنا عليها، بما له من المعلومات المحدودة، والمعارف المعدودة.

ساقنا إلى تقديم هذه المقدمة ما بلغنا من أن المستعرب المسيو دلماس مدير المدرسة الصادقية[1] الذي ضمت إليه إدارة المعارف إلى وظيفته معلم العربية بفرع نهج الروسيا، للشبان الطالبين من عموم المنخرطين في سلك التعليم العربي: قواعد وتراكيب نحوية وترجمة وآدابا لغوية، من سائر الأجناس والأديان، ترذيل وإهانة الراغبين من

المسلمين الإقبال على هذا المعهد العلمي، وأطردهم خلال الأسبوع الفارط من قاعة التعليم، ثم أعاد ذلك الطرد يوم الجمعة الفارط، وأخرجهم من حجرة التعليم، بعيون تذرف العبرات، وقلوب تتصاعد منها الزفرات، أسفا وحزنا على ما آل إليه حال التونسي في بلاده، محروما من فائدة العلم، دون غيره من بقية العناصر المتساكنة، بداعي أنه قد ضيق الفسحة على غيره من الفرنسويين واليهود، ولم يلتفت المعلم المومأ إليه إلى ما هو مرقوم على لوحة الباب من أن تلك (المدرسة عمومية لتعليم العربية)

ونحن لا نقول إن شبان المسلمين يقصدون هذه المدرسة للتعليم العربي، فإن هذا التعليم مقصود للإفرنج واليهود، لعدم وجود مدرسة يزاولون بها غير المدرسة الخلدونية، ولا يؤمل تونسي أن يحصل منه على النصاب اللازم، وهو في غناء عنه، بما لديه من معاهد العلم الإسلامية، كجامع الزيتونة وغيره من ديار العلم والعبادة، وإنما يهمه حضور ذلك التدريس، من حيث الترجمة من العربية للفرنسوية لا غير، ضرورة أن عكسها متعذر حصوله بهذا النادي، لعدم اكتساب المعلم نفسه الملكة الكافية في الآداب العربية: أداء وإنشاء.

ومهما يكن من ذلك فإن في طرد المعلم المشار إليه نحو الثلاثين طالبا من طلبة العلم افتيات، لا على حقوق هؤلاء الشبان في مشاركة غيرهم في تعليم عام، مشاركتهم في نفقاته وجراياته الواسعة فقط، بل أيضا افتيات وتجاوز لحدود المأمورية العلمية، وهي لا تخول المأمور حق التصرف في توزيع فوائد العلم، كما تمليه عليه أهواؤه، ظنا منه أنه يخدم وطنه وجنسه، بصرف المسلم، وإقامة غيره مقامه، في مقاعد الدرس، ولو درى أن هذا التحمس الباطل يعود على وطنه بعكس المقصود: إذ يوغر صدر أمة قاطبة في مرضاة بعض أفراد، وأنه يشعر بتخطي رقابهم، ورقاب ولاة الأمر، الذين أقاموه بتلك

---

1) سمي مدير للمدرسة الصادقية في أكتوبر 1892 خلفا للطاهر بن صالح الذي سمي ناظرا بعد أن كان مديرا

الوظيفة، لما صدر منه ذلك العمل الذميم، ولما حاد عن طريق المساواة القويم، ولكن ، وقد سبق السيف العذل، ووقع مدير الصادقية في الزلل.

ليت شعري، ماذا يكون صنيع مسيو شارلتي Charlety مدير عموم المعارف، الذي عهدنا منه الحرص على تنفيذ مقاصد دولته، من مواساة ومجاملة التونسيين، وجر النفع إليهم في معاهد التعليم بأنواعه، بتيسير أسبابه، وفتح لا غلق أبوابه، فإن صرف جنابه النظر عن هذا الحادث المسيء ساءنا ذلك، وساء كل راغب في حسن سمعة الدولة الحامية: إذ يحملنا ذلك على الظن بأن إدارة المعارف إنما غضت الطرف عن سيئات معلم الدروس العربية، مشاركة له في سياسة إضمار وإظهار العداء بلا حق للأمة التونسية، فنعد لهذا الموقف السياسي الجديد عدته، ونرجو من الإدارة المومأ إليها، رفعا لمثل هذا الإشكال في الاستقبال، أن تعلق على جدران المباني ، وعلى واجهة قاعة التعليم العربي والترجمة إعلانا يصرح بمنع دخول المسلمين واختصاصه بالأوروباويين.

ولولا إضمار البغضاء، والتجاهر بالعداء، لاكتفى المعلم بإنهاء مسألة ضيق القاعة بما رحبت لجناب مدير المعارف، لينظر في تسوية هذه المسألة، بما تقتضيه المصلحة، ويرضي العموم، ولكن حب الرئاسة والاستبداد قد يؤدي بصاحبه إلى مهواة الطيش، ويخرج به عن طريق الرشاد، فإلى هذه الحادثة نستدعي دقة أنظار أرباب الحل والعقد عموما، وجناب مدير المعارف خصوصا، ونرجو من همتهم وحرصهم على إعلاء شأن الدولة الحامية ، وبث آلاء التمدن في أكناف هذه البلاد، أن يدققوا البحث في شأنها، ويضعوا حدا لهذه الحالة ، بما يلزم من أوجه التدبير والسداد، والله الهادي إلى طريق الرشاد.

والذي نراه في حسم مثل هذه المعاملة، وإنصاف شبان طلبة

العلم من المسلمين بهذا النادي من القائم بوظيفة تعليم الترجمة واللغة العربية بها للعموم، هو أن يتخلى مدير المدرسة الصادقية عن وظيفة التعليم، حتى لا يلحقهم أذى ، أو تمسهم إهانة وعداء، أو عن إدارة الصادقية تلك المدرسة الإسلامية، لكي لا يضطر أولياء تلامذتها تلقاء هذه المعاملة القاسية إن كانوا يتدبرون ويعقلون، فإن التباعد عن مواقع الذل والهوان، أجدر من تجرع غصص الاحتقار في معاهد العرفان، ولا نخال هذا الحل ما ينوء بقوة الدولة، أو يستوقف همة إدارة المعارف، كجناب مسيو ماشويل، الجامع في إتقان العربية والفرنسوية بين التالد والطارف، ما يكفل باستقامة نادي تعليم الترجمة والآداب العربية على الحالة المرضية[2].

2)ع 1042 بتاريخ 9 نوفمبر 1909 ركن (حوادث داخلية)

تعليــــم الأهـــالي

أدرجت جريدة الطان[1] الرسالة الآتية، في شأن تعليم الأهالي العلوم والمعارف، وبما أنها تضمنت حقائق راهنة، تنطبق على أهالي القطر التونسي ، فقد رأينا من المناسب نقلها عن الجريدة المشار إليها، على عهدة صاحبها، الذي تفكه[2] بها، عازمين على خوض عباب هذه المسألة المهمة، وإبداء ملحوظاتنا فيها، بمزيد الإيضاح، ونص ذلك:

قد أدرجتم في أحد أعدادكم الأخيرة صورة المنشور الذي بعث به والي عموم إفريقيا الغربية، إلى وكلاء الجهات، ورؤساء المراكز، في شأن تعليم اللسان الفرنسوي بالمدارس، والغاية من مساعي المسيو شودي الوالي المشار إليه، هو إدخال الأفكار الفرنسوية، ولهذه الغاية عزم على زيادة سبعة مكاتب على الاثنين والعشرين الموجودة الآن، متأسفا على عدم التمكن من الزيادة في أعدادها، وعلى هذا المسلك درج الجنرال غالياني والي مدغشقر، حيث قرر تعليم اللسان الفرنسوي في سائر بلدان الجزيرة، وهو رأي الذين قالوا بوجوب جعل تعلم اللسان الفرنسوي إلزاميا، بجميع مكاتب هند الصين، وبذلك انصرفت الهمم إلى القول بوجوب تلبيس الأهلي بأخلاق الفرنسوي وطباعه، ولكن ليت شعري، هل هذه الطريقة تخلو من انتقاد ومناقشة، تفضي بضرب من الحيرة، على بعض الأشخاص، فقد جاء في المنشور الذي بعث به المسيو شودي ما نصه:

إن التعليم هو الوسيلة الفعالة، وأثبت طريقة لأمة ممدنة في

---

1) جريدة الطان Le Temps الباريسية، وهي جريدة متحررة ، كثيرا ما تقف إلى جانب الأهالي في تونس، وقد نشر فيها بعض التونسيين آراءهم في خصوص بعض المسائل الاقتصادية والاجتماعية ، وموقف الإدارة الاستعمارية منها، ومنهم عبد الجليل الزاوش

2) لعله يقصد السخرية من بلاده التي تسمح للأهالي بتلقي العلوم العصرية في مدارسها، لأنهم لا يستحقون هذا التعليم

استجلاب الشعوب، الذين لا زالوا على الفطرة لأفكارها، وترقيهم شيئا فشيئا، إلى أن يبلغوا شأوها، وبعبارة (أخرى) فالمكتب هو أهم عناصر التقدم، وأنجع وسيلة لبث النفوذ واللسان الفرنسوي في يد الحكومة: إذ لا يقبل الشيوخ والكهول على التخلق بأخلاقنا، والدخول تحت أحكامنا، والتلبس بعوائدنا، لما أن ذلك الانقلاب إنما الوجهة فيه للأحداث والشبان، وتلك الأفكار لا نتوصل لنقشها في أذهانهم إلا بالتعليم، قال المكاتب: وهذا الاستدلال مبني على القول بأن الشعوب، وإن تفرقت مشاربهم، فالتهذيب والتعليم يجمعهم، وأن في الأفكار الفرنسوية خاصية، من شأنها أنها إذا رسخت تلك الأفكار في الأذهان علقتها بالأذيال الفرنسوية.

غير أن من أمعن النظر في هذه القضية الكلية أيقن أنها قضية غير مسلمة، لما أن الأمة الفرنسوية امتازت تاريخيا من بين أمم العالم بحرية الشعب، حتى أصبح له السلطان الأقوى على الممالك الفرنسوية الأفاقية الواسعة، وأحكامنا مبنية على المساواة وسلطة الشعب، ولنا من التبعة أربعون مليونا من النفوس، لم نخولهم حق المساواة والتحكم، وهنا يحق أن نقول: ليت شعري أصحيح إن قوانيننا ومبادئنا، وهي المعبر عنها بالأفكار الفرنسوية المزمع على بثها بين الأقوام الذين تولينا زمام أمورهم، تسمح بضبط سير الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة في آن واحد؟ وهل يعقل أن تربية واحدة تلهم الفرنسويين للحرية، وتلهم التبعة للطاعة والخضوع في آن واحد؟ كلا، وحينئذ فهذا السؤال يحدو بنا إلى آخر، وهو أنه ما هي مقاصدنا مع أتباعنا؟ وهل نحن صادقون فيما نؤمله لهم من الترقي إلى أن يبلغوا شأونا، كما قاله والي عموم إفريقيا الغربية؟ وهل نحن قد عزمنا إدماج الممالك الأفاقية في المملكة الفرنسوية، حتى يصير المجموع عبارة عن سلطنة فرنسوية، يأهلها أربعون مليونا من أبناء

الوطن، متساوون في الحقوق ، يقابلهم أربعون مليونا من الشعوب على اختلاف ألوانهم ؟ أم أن هؤلاء الشعوب يبقون على حالة التابعية؟ فما دام الانفصال في هذه المسائل لم يقع لا نجاح ولا كلام في أعمال بث المعارف بين الأهالي.

ومن لازم هذه المسألة مسألة أخرى طالما أشغلت بال علماء العصر وأدباءه وفلاسفته، وهي أنه: هل تأخر أولئك الأقوام عارض أم طبيعي في الترقيات الفكرية؟ وبحسب الجواب على هذا السؤال إيجابا أم سلبا يكون العلاج في التأخر، والذي ترجح لدى أهل الخبرة، والحالة هاته، أن ذلك التقاعس جبلي، تعجز همم البشر عن ملافاته في أولئك الشعوب، وإذا كان الأمر كذلك فما الفائدة من تعليم الأهالي، ثم إننا هل تحققنا أن مبادئنا الأدبية تنطبق على عقولهم، فإنهم يعتقدون أن لا تأثير إلا لله الذي بيده القدرة والجبروت، يعذب من يشاء، ويجازي من يشاء.

أما نحن، معاشر الفرنسويين، فكل يوم نزداد عن آداب الدين تنصلا وتفصيا، وبتقدم العهود وتكرر الدهور، كان لنا من نفس ذمتنا زاجر ووازع أغنانا عن الاهتداء بالديانة، فهل للشعوب التي لنظرنا من فائدة في إتباع هذه الطرق الفكرية التي يضيق عنها نطاق إلهامهم؟ فإنهم لا يرون في وازع الضمير إلا فسادا وشذوذا عن دائرة الأدب والدين، ولطالما قيل في المستعمرات إن أبناء البلاد الذين تهذبوا على النمط الفرنسوي إنما ضعف فيهم داعي التمسك بأحكام جنسهم وأخلاقهم ، ولم ينقش في أذهانهم الأحكام والأخلاق الفرنسوية، وغاية ما نتج عن تعلمهم اللسان الفرنسوي أن مكنهم من مخالطة الإفرنج نزلاء ديارهم، وهم في الغالب ليسوا قدوة في الكمالات الأدبية، لعدم تأهلهم، وأقبلوا على الجرائد التي كثيرا ما تركب متن الشدة، فتشتم كل الرجال، والأشياء الجديرة بالاحترام الواجبة الرعاية، أو على الكتب المحشوة بالأقاصيص، وإذا خلا المقام عن

المغالطة فكيف تنتج الكرامة عن هذه العقاقير الممتزجة؟

ثم إننا نقول لمن يتمنى استرداد الأهالي إلى أحكامنا وعوائدنا أننا لو فرضنا هذه الأمنية قد تحققت، وتمكن الأهالي باللسان الفرنسوي من إدراك أفكارنا الفرنسوية أليس الغاية من هذه الأفكار تخويلهم الحرية والمساواة والمشاركة في الأغلبية القائمة بتدبير المملكة، إلى غير ذلك مما هو الغاية والكرامة من المساواة التي قدمناها؟

ولما كانت جنسية الأمم والأقوام لا تبلى ولا تفنى ، مهما كانت العوارض، فمتى نجحت المساعي في إدخال الشعوب الخاضعة تحت أحكام الدستور الفرنسوي، وطلبوا العمل بذلك في مالهم أو عليهم من الحقوق، ولا يتغافل عن توقع هذه المطالبة إلا من عميت عين بصيرته، ليت شعري ما يكون جوابهم ؟ فإن ساعدناهم على طلبهم فقد سلمنا لهم أزمة البلاد، وإذ ذاك فعلى نزلاء الإفرنج العفاء، وإن حرمناهم فقد كنا كالساعي عن حتفه بظلفه، بأن حركنا في نفوسهم دواعي وأماني عزمنا على أن لا نساعد عليها ، وربما كان ليس بالهين الاستمرار على ضبط أولئك الأقوام، فينقلبوا مظلومين مهضومي الجانب بإدراكهم للإحكام الدستورية، بعد أن كانوا رعية خاضعين، وانعكست(؟) اللغة الفرنسوية من أقوى أسباب البغضاء لا الوداد: إذ كانت الآلة الوحيدة في الكشف عن تلك الأحكام ، فالعاقل لا يتفكه بإحداث المشاكل في طرقه، فالشعوب الخاضعون، هم والحالة هاته، عاجزون عن تصور حقيقة سلطة ما، لم تكن مطلقة، ولا يؤملون من الحاكم على هيئتهم إلا الحلم والعدالة، وبذلك تمكنا من التحكم في أملاك واسعة بشراذم قليلة من الرجال، وإذا ثبت عدم قابليتهم للاستكمال بدون نهاية، كما هو الشأن في الأجناس البيض، فعبثا نحول إلهامهم إلى تصورات أخرى، فلترشح الحكومة منهم المترجمين، وتسمح لسراتهم وكبرائهم ومأموريهم بتعلم الفرنسوية، لا زائد على ذلك ، فاللغة الفرنسوية ليست بآلة توضع بيد من يرام ضبطه من الأقوام [3]

---

3) ع 464 بتاريخ 14 سبتمبر 1897

وجـــــوب التعليم [1]

لا يخفى أن الله قد أودع في الفطرة البشرية ملكة عقلية، تميز بها النوع الإنساني عن سائر المخلوقات، وفطنة غريزية اختص بها من دون سائر الكائنات، وهو نور العقل، الذي اهتدى به المرء إلى إدراك الحقائق الثابتة، كوجوده تعالى على عرش عظمته وكبريائه، مع قدرته التي هي مصدر جميع الحركات، ومنبع أنواع السعادة والخيرات، سبحانه ما أعظم سلطانه، وأجل شأنه.

ولا غرو فمشكاة نور العقل هي النعمة الكبرى، والمزية العظمى،التي اهتدى بها كل ذي عقل سليم، وطبع قويم، إلى الأعمال الصالحة، وسوغت له سلوك طريق الترقي، وامتطاء متن الجد، والتذرع بصارم الحزم، لإدراك الكمالات، وبقدر ما يسعى فيه المرء من توسيع نطاق تلك الملكة البشرية، والنعمة الإلهية، المأخوذة في مفهوم الفطرة البشرية، يكون التفاوت بين أفراد الهيئة الاجتماعية، في إحراز قصبات السبق في ميدان الترقيات المادية والأدبية.

ولا ريب أن من أهم أسباب بلوغ هذه الغاية الحميدة، إن لم نقل أخص وسائلها، الإقبال على تثقيف الأذهان، بتلقي العلوم والمعارف الكافلة بسعادة الدارين، وكتب الإسلام، فضلا عن غيرها من تصانيف الأمم المتمدنة، طافحة بالنصوص والآيات القطعية، في الحث على صقل مرآة العقل، وتغذية النفوس بلبان العلوم والمعارف، حتى ينال المرء من غاياتها المطارف، وهذه قضية يسلمها كل من يعقل ويزيح عن باصرته غاشية الغرض، ويميط عن محيا الذمة برقع التحيز والتطرف. ولذلك لا يتلقى الناقد البصير كل خدش في هذه الحقيقة إلا بالاسترابة والتحرز، لينظر من خلال تلك المتهويات، ما تكنه الصدور من الغايات، وتبطنه النفوس من التمويهات، ورأينا عقلاء كل أمة الذين

---

1) رد على المقال السابق المنشور في جريدة الطان المذكور قبل هذا.

تنزهوا عن وصمة الأغراض، وسلمت قلوبهم من الأمراض، يصدعون بوجوب توسيع نطاق العلوم، والجمع فيها بين المنطوق والمفهوم، ولا يرون من مانع يحول دون رفعة درجة التعليم في المدارس، وتكثير سوادها، أملا بادراك المنزلة العليا، التي تكسب المنظم للدروس، والمؤسس لديار العلوم مكانة وفخرا، وللمعلم سعادة وذخرا، يوجبان تشبث المحسن إليه بأذيال المحسن، شأن كل نفس كريمة، والنفس مجبولة على حب من أحسن إليها.

غير أنه بينما الأعمال الصادرة عن الإلهام إلى هذه الوجهة الشريفة، متتابعة تتابع الفرع بأصله، كثيرا ما يطرق الأسماع في مجلس تقدم العرفان، صدى أناس دأبهم العمل لطمس عين الحقيقة، وإطفاء منار العلوم، والعدول عما تسلكه الحكومة منها في باب التعليم، من المسلك القويم، فيقومون إما على رؤوس منابر الخطابة، أو بتحاريرهم في الجرائد، منادين أن سلامة الراعي في غمس الرعية بالآفاق في ظلمات الجهل، وحرمانهم من آلاء العلوم والفنون، بدعوى أن التابع إذا اشتد ساعده، واستكمل معارفه في الدروس والفنون العلمية، وأدرك ما تدعوه إليه الهيئة الحاكمة بصفة رسمية من التشبه بصفاتها، لإحراز ما تجود به على المجانس من الحقوق والامتيازات، لربما طالب بتلك الحقوق فعلا، وكان له من نفس ترقيه وبلوغه في المعارف شأو الأمة السادلة عليه سرادقاتهاسلاح قاطع يدافع به، فينقلب ذلك التقدم خطرا وضررا على أفراد تلك الأمة، وهو رأي كثير من الفرنسويين بالجزائر وغيرها من الذين كتبوا على أنفسهم تحذير الحكومة من مد تعليم الأهالي بعنايتها في هذا الخصوص.

ومن هذا القبيل ما كاتب به جريدة الطان أحد القائلين ببقاء الجنس الأهلي في كل قطر وإقليم، ساقتهالأقدار لحكم الأجنبي تائها في دياجير الجهل والغباوة، راتعا في مراتع الوخامة والتعاسة،

بمنزلة القطعان من الحيوان، تستغل لبانها ونتاجها ولحومها، بدون نظر إلى استقبالها، وأدرجناه بعدد 464 من هذه الجريدة

وهنا يجدر بنا في الرد على هذا التحرير الذي أدرك القراء غايته، وقدروا مراميه حق قدرها أن نقول : إنه إما أن يكون بث أنوار العلوم والمعارف بين الأهالي مصلحة عمومية ووسيلة فعالة لترغيب الراعي في الرعية، واستجلاب خواطرهم، وتعلقهم بأذيالها بصفة عمومية، وفي هذه الحالة يجب الاهتمام به اهتماما كليا، بحيث كلما نمت نتائج التعليم، وارتفعت درجة التحصيل والاستكمال في العلوم والمعارف إلى حد يحصل به النفع والانتفاع، وتهذب به الأخلاق، وتتعدل به الطباع ازدادت الأنفس إلى مناهله اشتياقا، وجنحت العواطف إلى موارده استئثاقا، وهو أمر يستلزم رفع درجة التحصيل، ومعاملة الأهلي معاملة الإفرنجي، في سائر طبقات العلوم، ودرجات الاستكمال، حتى تكون وجهة الحكومة لغاية مفهومة، وتصرف المبالغ الطائلة التي تخصصها كل سنة من الخزينة العامة لغرض جليل الفائدة، جزيل العائدة، تحمد عليه وتشكر من كل ذي إنصاف، خال عن شوائب التطرف والاعتساف، لما قررناه غير ما مرة، من أن الاقتصار على المبادئ في التعليم زيادة على تكلفه بالنفقات الواسعة، لا يعود بخير على الشبان، ولا يرشحهم إلا للخطط السافلة، فيسيئون الظن بمديري أمورهم، ولا يلهجون بشكر ولا امتنان، بل ربما قابلوا تعاسة حالهم بالنكران والخسران،إذ أصبحوا كمن قصد وجهة ، فأقعده مانع بوسط الطريق عن بلوغ وجهته، فلا هو باق على راحته فيستريح ، ولا هو بالغ مقصده فينعم شأن الأعمال البتراء، والتدابير الخالية عن السداد.

وهذا الفريق ضره أقرب من نفعه، وخير منه من بقي على السذاجة، ولم يطرق أبواب مدارس التعليم، لأنه لا يدرك لحركات الدولاب

الإداري معنى، ولا يتصور للترقيات الوقتية كنها.

وأما أن يكون نشر لواء العلوم غير مصلحة، بل خطرا على الهيئة الحاكمة، وحينئذ فما الفائدة من إحداث المدارس، وتعميم الدروس الابتدائية، وصرف المبالغ التي بلغت عقود الملايين على غير جدوى.

هذه مسألة ينبغي للحكومة أن تدقها على محك النقد، وتسبرها بمعيار العقل، لتقف على كنه الغاية التي وجهت إليها عنايتها من نحو خمسة عشر سنة، ولا تموج العزائم في بحار الشكوك والتردد، لتسددها على الوجه الأسد.

أما فكرنا القاصر في هذه المسألة فهو أن الأمم الأبعد ساحة عن المدنية المجردة عن شعار الإنسانية ترق وتتأثر لمن جاملها، وأحسن معاملتها، وسعى في تحسين حالتها، وربما فضلته على من أساء معاملتها من بني جلدتها، وأنت خبير بأن الأمة العربية أكثر الأمم انعطافا، وأوفر الأقوام إخلاصا، وتعلقا بمن أنصف في رعايتها، وعاملها بما هي أهل له من العناية والخيرية، وليس تقدم أفرادها في حلبة المعارف إلا مما يزيد تلك الروابط إحكاما، وذلك الارتباط وثاقا، فيصبح الرجل، وقد تغذى بلبان المعارف في ظل حكومته أصدق عون، وأخلص ظهير لها، كما ذلك مشاهد للعيان ، ومهما يكن من ذلك(؟) فإذا كانت مسألة تعميم التعليم ، وترفيع درجة تثقيف الأذهان إلى الدرجة التي تمكن الطالب من النفع والانتفاع ،لا زالت محل التأويل، وموضوع القال والقيل، فهل يجدر بنا أن نبقي على هذه الحالة، التي ربما استلزم إيضاحها السنين الطويلة؟ وهل يليق بمن كانت له مقدرة على تسنم ذروة الكمال، وبلوغ درجة التحصيل في الاستقبال، أن تقعده تلك المناقشات، وما تنظر فيه الهيئة الحاكمة من التدابير عن الانبعاث في ميدان الترقي والاستكمال، كلا، إن ذلك لخسران مبين، وحينئذ فلتكن غايتنا عدم الاقتصار على التعليم

بالمدارس الدولية وحدها، بل يجب قصد باب الديار العلمية بالممالك الفرنسوية، بقدر ما تسمح به الموارد المالية، اقتداء بأعيان الممالك الإسلامية، سامدي الرأس، مثلوجي الفؤاد، بمجاراة ذوي الفضل والعرفان من الطبقات الأدبية، ونتوصل كبقية الإخوان الذين سبقوا لهذا المضمار بالجد والكد، لإحراز الشهادات القانونية في الطب والهندسة والصنائع والحقوق، ونضرب بين أهالي قطرنا فنجد فيهم من الإقبال والقبول ما يحقق الآمال، ويوطد أسباب النجاح في الاستقبال، فأعظم ما يذخره(؟) الطالب للوطن يحفظه الوطن الأمة، هو السعي للحصول على هذه الغاية المهمة، ونحن لا نشك في أنه إذا هانت على الآباء النفقات لا تضن عليهم جهة الاختصاص بما يستحقونه من المساعدات، وبهذه المناسبة نسدي واجب الشكر لمن كانوا قدوة الأمة، في هذه المسالك المهمة، فجاروا ذوي الكمال في النسج على هذا المنوال، فعلى المرء أن يسعى ، وعلى الله نجاح الأعمال[2].

2)ع 466 بتاريخ 28 سبتمبر 1898

الدعـوة إلى إصلاح التعليم بجامـع الزيتونة

إن خريطة التعليم بتونس في الفترة الأولى من الاحتلال كانت متنوعة، تبعا لاختلاف السكان، فإن كان لكل جالية أجنبية مدارسها الخاصة بها، فإن للتونسيين نوعين من المدارس: أحدهما طاريء، ونعني بها المدارس الفرنسية العربية، التي أنشأتها الحماية سنة 1883 بإدارة المستشرق لويس ماشويل، الذي بقي مشرفا على حظوظ هذه المدارس ربع قرن، وثاني هذه المدارس هو جامع الزيتونة، وما يتبعه من كتاتيب هي روافد تمد الجامع الأعظم بالطلبة والتلامذة، وقد شجعت الحماية وجود هذا النوع من التعليم: إذ كان من رأي المنظرين ورجال التربية والتعليم في فرنسا أن يتطور السكان ضمن ثقافتهم التقليدية، ووجدت الحماية في بعض الشيوخ الذين يريدون بقاء الأمور على حالها سندا لرأيها المعارض لكل تغيير في مناهج التعليم بجامع الزيتونة، وحتى محاولات لويس ماشويل في إدخال إصلاح جزئي، قابلها شيوخ الزيتونة، ثم المعمرون بالرفض، وربما كانت من الأسباب التي عجلت بإحالته على التقاعد.

ومن جهة أخرى دعا نفر من شيوخ الزيتونة [1] وخريجي الصادقية إلى إصلاح طرائق التعليم الديني، ومن بين هؤلاء نذكر مدير (الحاضرة)الذي كتب سلسلة من المقالات تدعو إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، في مستوى المناهج والطرق، وفي صلب المحتوى والمضمون، فقد تبين ــ وهو الذي انخرط فيه يافعا ــ له أن المناهج المتبعة، من قبل المدرسين، لا تكون فكرا، ولا يحصل الطالب من ورائها على علم: إذ لا تراعي استعداده، ولا تلائم سنه ونموه العقلي، فهل يستفيد المراهق الذي يبدأ له المدرس الدرس الأول بفضيلة الابتداء بالبسملة والحمدلة " ويسرد الأحاديث الواردة في ذلك، ثم

يقرر الفرق بين الابتداءين الحقيقي والإضافي "[2] كما يقول علي بوشوشة، وكيف يفهم الطالب علم النحو إذا بديء له بإعراب البسملة، وتعلق الجار والمجرور فيها، والوجوه التسعة في إعراب البسملة، ويقضي الطالب في جامع الزيتونة أكثر من عشر سنوات، ثم يعود إلى أهله، وهو يردد كالببغاء ألفاظا اصطلاحية، كالمبتدأ والخبر، والفاعل والمفعول، والفرض والسنة " أما إذا سألته عن إعراب جملة، أو الإفصاح عن معنى شعري، أو باحثته في المسائل الاعتقادية، اعتراه الخجل، وتلعثم لسانه، وعزم أن لا يعود لمجالسة أمثال هذا المسائل، وقليل منهم معلوماته مناسبة لمدة مزاولته " [3]

وإزاء هذه الحال المتردية، اقترح بوشوشة الحلول الناجعة لإصلاح ما فسد من هذا التعليم، مع شيء من الحيطة والحذر: إذ لا يقبل مدرسو الزيتونة أن يتدخل في جامعهم أحد، ولو بالنصح والإرشاد، وخاصة إذا كان الناصح من أهل الصحافة[4] التي كانت بدعة سيئة في ذلك العهد، وقد تذرع بوشوشة بالإخوة الدينية، والوحدة القومية، طالبا من حضرات المشائخ الفضلاء أن يعتبروا تدخله من باب الذكرى ليس إلا، وأن يرمقوا مقترحاته بعين القبول والاستحسان، إن كانت من النفع بمكان، ويتفضل جنابهم بالمبادرة إلى العمل، وإصلاح المختل، وتنفيذ ما فيه لياقة، حتى تكون أفكارهم مصدر الإصلاحات والأعمال الصالحات، ووعد بوشوشة قراءه بأن لا يتكلم إلا باللهجة الصادقة، ولا يفوه بعبارة تمس الأعراض أو تشعر بالأغراض.

---

1) لمزيد التوسع راجع الطاهر ابن عاشور: أليس الصبح بقريب ط تونس1967 ص 114 وما بعدها

2) الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة ع 940 بتاريخ 28 ماي 1907

3) نفس المقال ع 944 بتاريخ 25 جوان 1907

4) واجه المعارضون من شيوخ الزيتونة دعوة علي بوشوشة بالسب والشتم، من ذلك أن شيخ الإسلام، قال عن علي بوشوشة في خطاب له أمام الوزير الأكبر: إنه أعمى البصر والبصيرة، وطلب من الوزير أن يوقفه عند حده، لأن مقالاته " أحدثت تشويشا في الأفكار، وفتورا في الهمم، وقالا وقيل، وليس الغرض إلا الإيقاع في التضليل والتخيل " ابن عاشور: أليس الصبح بقريب ص 248 وانظر كذلك مواقف أخرى من هذه المقالات في نفس المرجع ص 136 ـ 151

ولم تمنع هذه المجاملة من الإنكار على بوشوشة، وحشر نفسه فيما لا يعنيه، ولم يبال بوشوشة بمعارضتهم، ولا اهتم بلجاجتهم، فأخذ يبرهن لهم أن إصلاح الطرق والمناهج هو من جوهر التربية والتعليم، الذي توصل إليه علماء الإسلام الكبار كالغزالي والعبد ري وابن رشد وابن خلدون، فهذا الغزالي يدعو المربي إلى مراعاة التدرج في تعليمه والاقتصار على قدر فهمه، ولا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره، إقتداء بالرسول القائل: " نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلمهم على قدر عقولهم "[5] وقال النبي أيضا: " ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم، إلا كانت فتنة على بعضهم "[6]

أما العبد ري فقد أكد هو الآخر على التدريج، ودعا المربي أن يبين المسألة، ويوجهها، ويستدل لها، مراعيا في ذلك حال المتعلمين، حتى تستبين لهم المسألة، ويتفقد طلبته، بتوجيه أسئلة على الدرس، وإجراء تمارين عليها.

وأورد بوشوشة فصلين لابن خلدون من (المقدمة) يبين فيهما أن كثرة الكتب ومختصراتها وشروحها تعيق التكوين الفكري لدى الطالب [7] واستشهد بابن رشد الذي يقول في خصوص المنهج السليم لتلقي المعرفة، يقول: " إن كل مدرس يعد درسه، ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريد أن يكتب، ثم يلقيه على التلامذة، وهم يكتبون عنه، ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالي، تنشر بين الناس في كل علم، فكان العلم لأجل هذا سهل التناول، محفوظا في صدور الرجال "[8] ويبدو أن مدرسي الزيتونة كانوا في ذلك العهد

---

5) لا وجود له في المعجم المفهرس للألفاظ الحديث النبوي

6) م نفس الملاحظة

7) انظر المقدمة ط دار الكتاب اللبناني بيروت 1967 ص 1020 وص 1028 وعنوان الفصلين: كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل، وكثرة الاختصارات المؤلفة ي العلوم مخلة بالتعليم.

8) الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة ع941 بتاريخ 4 جوان 1907

يعتمدون الارتجال، أو حفظ المسائل، ويلقونها أمام الطلبة على عواهنها.

وعرض بوشوشة في القسم الثاني من هذه المقالات المنشور الصادقي، الذي تنوسي أمره لدى شيوخ الزيتونة، فأهملوا الكثير من المواد، وخاصة علمي التفسير والحديث، وهما أساس كل تعليم ديني، بينما وقع التركيز على علمي النحو والفقه، واغرموا بما فيهما من مناقشات ومناظرات لا تغني الطالب، ولا تروي ظمأه إلى المعرفة.

ويبدو لنا اليوم المنشور الصادقي معبرا عن ميل الشيوخ الذين كلفهم خير الدين بإصلاح التعليم بجامع الزيتونة إلى المتون والشروح والحواشي على الشروح، وكلها تقيد الطالب، وتمنعه من الخروج عن الحيز الدي رسمه الشارح أو المحشي، وإذا أضفنا طريقة الإلقاء علمنا إلى أي حد يكون تكبيل الفكر وتجميد العقول.

وتلوح نفحة التقديس عند ذكر المؤلفين أي أصحاب الشروح، فخليل ابن إسحاق هذا الجندي التركي يتحول إلى ولي صالح، فيقال عته (سيدي خليل) وهذا صاحب الأجرومية يصبح (سيدي خالد) الأزهري، وكثيرا ما يذكر اسم المؤلف دون ذكر الأثر الذي تركه ، وهم بالطبع يعرفونه ، ففي الحديث أو مصطلحه يذكرون منظومة أو كتاب يسمى غرامي صحيح ، فمن هو صاحب هذا الأثر ياترى؟وقد ضربنا صفحا عن التعريف ببعض المصنفين ومتونهم وشروحهم وحواشيهم لقلة جدواها من ناحية ، ولعدم توفر هذا التعريف في المراجع المتوفرة لدينا، وخاصة أعلام الزركلي، ومعجم كحالة من ناحية أخرى.

وقدم بوشوشة في القسم الثالث من مقالاته مقترحاته في خصوص برامج التدريس بجامع الزيتونة

بعد أن بين فساد الحالة السائدة، كما أشرنا سابقا، وقد بوب اقتراحاته في نقاط ثلاث:

1) النظر في كيفية تلقين العلوم للمتعلمين وإفادتهم إياها.

2) استبدال بعض الكتب التي يتداولها الطلاب، بكتب مفيدة وجديدة

3) انتظام التدريس من الوجهة العامة، وتصييره على أسلوب يستفز الهمم، ويستنهض العزائم، ومعنى ذلك أن يغرس هذا التعليم حب الوطن في النفوس، ويدعوها بعد ذلك إلى تحرير البلاد من الغاصب المحتل.

1) تمهـــــيد

جامع الزيتونة هو الجامع الأعظم والمعهد الديني الأفخم بشمال إفريقيا، وهو الذي أمر بتأسيسه عبد الله بن الحبحاب [9] فابتدئ بناؤه سنة 114 وتم سنة 141 وربما كان قصد هذا الرجل من تأسيسه حصول أمرين: الأول الاجتماع للصلاة التي هي عماد الدين، وركنه الركين، وعضده المتين، الثاني درس مسائل العلوم، وتحرير المنطوق منها والمفهوم، وحفظ كيان شريعة الإسلام، وإزالة الشكوك والأوهام، وبيان ما يجب سلوكه واتباعه حتى تستنير بذلك الأذهان، وتشرق في سماء مرآتها الصقيلة أنوار العرفان، وقد حقق الله تعالى أمل هذا المحب للدين، وأتم له ذينك الأمرين، وصار جامعة بفضل الله من أشهر المعابد الدينية الفخيمة، والمعالم العلمية الجسيمة، وكعبة البلاد التونسية التي تحجها طلبة العلم، ويشدون إليها رحالهم من كل فج واسع، وصقع شاسع، ولم يزل والحمد لله من غابر الأزمان إلى الآن قبلة الآمال، ومحط الرحال، ومناخ ذكر الله العظيم، وكتابه الكريم، وتدريس علوم الدين القويم، وسيبقى والبقاء لله في العصور الآتية، والأزمنة القابلة، ملجآ اللاجين، وملاذ المتعلمين، وموئلا لتبديد سحب الجهل المنتشرة، والارتواء من ينابيع علومه المتفجرة.

---

9) هو عبيد الله بن الحبحاب والي افريقية من سنة 116 حتى سنة 123 ترك بافريقية مآثر جليلة منها إنشاؤه لجامع الزيتونة سنة 116 /734 وتجديد لدار الصناعة التي غزت مراكبها صقلية

كان أمر التعليم بهذه المدرسة الإسلامية موكولا إلى لياقة الأساتذة المعلمين، فكانوا يدرسون من الكتب ما فيه منفعة عظمى وفائدة كبرى، فنبغ من بين أساطينها أولئك الأئمة الأعلام، والجهابذة العظام الذين قاموا بحراسة الدين، وإيضاح شريعة سيد المرسلين، مثل الإمام ابن زياد الشهير بالتونسي[10] والقاضي ابن عبد الرفيع[11] وولي الدين أبي زيد عبد الرحمان بن خلدون القاضي المغربي(؟) الشهير ومعاصره محرر المذهب المالكي الإمام محمد بن عرفة الورغمي[12] وتلميذي هذا الأستاذ الأخير، وهما العلامتان الجليلان صاحب القريحة الوقادة الإمام الأبي[13] وصاحب الإطلاع العجيب والنقل الغريب الإمام البرزلي[14] وشيخ الشيوخ الإمام ابن عبد السلام[15] أستاذ ابن عرفة، والمجتهد النحوي المشهور الإمام ابن عصفور[16] دفين سوق القماش، والفقيه الحجة الإمام ابن الخباز قاضي المهدية، ومن جاء على شاكلتهم من فطاحل العلماء الذين انتشر صيتهم في الأفاق، وملأ ذكرهم السبع الطباق.

لكن مالنا وحكاية الماضي، فإنما هي ذكرى تبعث إلى القلوب الأسى والأسف، ولنرجع البصر إلى الخلف الذي خلف من بعد أولئك الفحول، حيث تنكب بعضهم عن صراط التعليم السوي، فاحتاج المشير أحمد باي إلى سد تيار ذلك الخطل[17] الجارف، ووضع ترتيبا

---

10) عبد الرحمان بن زياد (توفي 161 / 778) فقيه القيروان وقاضيها الشهير، رحل إلى المشرق للتفقه في الدين، وكان من بين أصدقائه أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي، ولي القضاء بإفريقية إلى أن توفي، كان يقول:" إذا رأيت الهدية دخلت دار القاضي فاعلم أن الأمانة قد خرجت منها"

11) القاضي إبراهيم بن حسن بن عبد الرفيع(توفي 734 / 1333) تولى قضاء الجماعة بتونس، من كتبه الرد على ابن حزم في اعتراضه على مالك

12) محمد بن عرفة (توفي 803 /1402) أحد أعلام المذهب المالكي بتونس ، تولى إمامة جامع الزيتونة وخطة الإفتاء في العهد الحفصي

13) محمد بن خليفة الأبي (توفي 827 / 1424) من نبغاء تلامذة الإمام ابن عرفة، تولى التدريس والقضاء.

14) ابو القاسم بن أحمد البرزلي(توفي 843/ 1439) صاحب النوازل المشهورة من كبار تلامذة ابن عرفة

15) محمد بن عبد السلام(توفي 749 / 1348) من كتبه تنبيه الطالب لفهم ألفاظ جامع الأمهات لابن الحاجب

16) ابن عصفور علي بن مؤمن الحضرمي الأشبيلي (597 / 1265) لغوي وشاعر ومؤرخ توفي بتونس، من كتبه الممتع في التصريف، وشرح ديوان المتنبي

17) الخطل هكذا، ولعلها الخطر

محكما يسير على مقتضاه المعلمون والمتعلمون،وأناط بعهدة تنفيذه بشيوخ النظارة العلمية، فجاء هذا المنشور المشيري ضابطا لأسلوب التعليم، ورغبة في المحافظة عليه كتب بحروف واضحة، وعلق بالقرب من مجاز باب الشفاء، ثم طرأت عليه من الدولتين الصادقية والعلوية تنقيحات اقتضاها الزمان، واستدعاها الحال، عملا بالقاعدة التي قررها ابن خلدون.

بيد أن الهيئة التعليمية انقلبت في هذه الأعصر الأخيرة انقلابا عجيبا، ورجعت لحالتها الأولى، بل نزلت إلى رتبة أحط، ودرجة أسفل، حيث خالف غالب السادة المشائخ المدرسين صريح فصول ذلك القانون، وصار بعضهم إذا قعد لإقراء صغار التلامذة مبادئ علم من العلوم كان أول ما يبدأ به في تعليمهم أن يبين فضيلة الابتداء بالبسملة والحمدلة، ويسرد الأحاديث الواردة في ذلك، ثم يقرر الفرق بين الابتداءين الحقيقي والإضافي، رفعا للتناقض الظاهري بين تلك الأحاديث، ثم يتكلم لهم على البسملة بشيء من غوامض الفن، وما لا يمكنهم أن يتهيئوا لإدراكه إلا بعد زمان طويل وعمل كبير.

فإذا كان يقرئهم شرح الشيخ خالد[18] على الأجرومية مثلا، وهو أول ما يقرؤه الطالب من كتب النحو، وأول مرتبة من مراتب تعلمه أخذ يلقي عليه إعراب البسملة، وبيان متعلق الجار فيها، وهل هو اسم أو فعل، وهل الأولى أن يقدر عاما أو خاصا، وهل يكون مقدما أو مؤخرا، ويفيض القول في تقرير أدلة هذه الاحتمالات، وبيان المختار منها، ثم ينتقل لبيان الظرف المستقر من الظرف اللغو، ويذكر له ما في إعراب البسملة من الوجوه التسعة، وبيان ما يمتنع منها إعرابه مما لم يمتنع، ثم يفسر له معنى الرحيم والرحمان، والسر في تقديم الأول على الثاني، إلى غي ذلك مما هو من غوامض المسائل، وربما نوه لهم بشأن رسالة الشيخ عليش[19] في البسملة، وسرد عليهم جانبا منها، كل هذا

18) الشيخ خالد الأزهري(توفي 905 / 1499) له كتب في اللغة منها شرح الأجرومية
19) محمد عليش (توفي 1300 / 1882) من كبار شيوخ المالكية بمصر من كتبه منح الجليل على مختصر خليل

والطالب يسمع، ولا يفهم مما يلقى عليه، ولطالما ذكر له نبذا من علوم شتى، غير العلم الذي يشتغل به لمناسبات ضعيفة، وهذا من أشد الصوارف عن العلم، وأكثرها ضررا على المتعلمين، وكم من حريص على العلوم الشرعية متهالك عليها رغبت نفسه عنها للتشويش الذي يفعله مدرسونا اليوم.

نعم هذا داء أعيا العلامة ابن خلدون دواءه، وقال إن المرض استحكم، والشلل عم الأعصاب، فهيهات هيهات أن ينجح الدواء، وقد أبان القول وحذر وانذر، وأوجب نسخ هذه الطرق بأقرب منها، ووضع التعليم على ثلاث درجات لا غير في كافة الفنون: مبتدئ ومتوسط ومنته، مع مراعاة أحوال الزمان والمكان، على ما سنوضحه إن شاء الله.

وقد ثبت أن أمير المؤمنين عليا ابن أبي طالب رضي الله عنه حين دخل مسجد الكوفة الجامع أمر بإخراج من به من الوعاظ، ومنعهم من وعظ العامة، غير الحسن البصري، فإنه لما وقف عليه وسمع كلامه أعجب به واستبقاه ولم يمنعه، وغير خاف أن عليا رضي الله عنه لم يأمر بإخراجهم ومنعهم من الوعظ إلا وقد سمع من كلامهم ما لا ينطبق على الواقع، فرأى أن المصلحة في إخراجهم، وفي تركهم مفسدة دينية يجب اتقاؤها.

لأجل ذلك الفساد الفادح الذي تطرق إلى التعليم من بعض مدرسينا كان الطالب يتربع في جامع الزيتونة أكثر من عشر سنوات، ثم يؤوب وهو غالبا لا يعرف في أثنائها إلا بعض ألفاظ اصطلاحية كالمبتدأ والخبر والفاعل والمفعول والفرض والسنة، وهلم جرا، أما إذا سألته عن إعراب جملة، أو الإفصاح عن معنى شعري، أو باحثته في بعض المسائل الاعتقادية أو الدينية اعتراه الخجل، وتلعثم لسانه، وعزم على أن لا يعود لمجالسة أمثال هذا السائل، وقليل منهم من تكون معلوماته مناسبة لمدة مزاولته.

تفطن لفساد ومضار تلك الطريقة التعليمية النبهاء من أبناء المعهد الزيتوني، واعترفوا بأنها طريقة ذات اعوجاج، بعيدة عن الإنتاج، لا فرق في ذلك بين أساتذة وتلامذة، واتفقت كلمتهم على أنه لابد من وجوب الإصلاح، كي تجتنى من قطافه ثمار الفلاح، أما الأساتذة فإنهم يصرحون بذلك في النوادي الخاصة، وأما الطلاب فإن بعضهم أعربوا بواسطة الجرائد عن تلك المفاسد، وفكروا في تأسيس جمعية زيتونية للدفاع عن حقوقهم، وبيان ما يجب أن يسلك بهم، ولم يقرن سعيهم بنجاح في كلا الأمرين، ورجعوا في الحين بخفي حنين، حيث ارتكبوا العقوق، بدلا عن المطالبة بالحقوق.

أجل أن جامع الزيتونة هو المعلم الإسلامي الشهير بإفريقيا الشمالية، ونجاح المسلمين القاطنين بتلك الجهات، وانتشالهم من وهدة الجهل وسباته العميق متوقف على عمرانه، وسيره سير المدارس الإسلامية المنتظمة، وحينئذ يجب على كل مسلم يحب سعادة إخوانه المسلمين أن يسعى في إعادة مجده الأثيل، وفخره الأصيل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعالجة دائه العضال الذي تمكن من جسده، وإعطائه الدواء المتكفل بشفائه، وبقائه يتقلب في بحبوحة آلاء الإصلاح، وهذا لا يكون إلا باستلفات أنظار الهيئة الإسلامية الحاكمة، خصوصا السادة المشائخ النظار.

أما إحداث جمعية مستقلة، أو تداخل يد أجنبية، فهذا أمر لا نرضاه، ولو بلغت الحالة في التقهقر أقصاه.لهذا السبب دعتنا الأخوة الدينية، والوحدة القومية إلى تحرير فصول ضافية، ونشر شذرات متتابعة، لإبداء ما عن لنا، ورأيناه دواء نافعا، لإزالة ذلك السقم، ودفع تلك العلل، مستمنحين من حضرات المشائخ الفضلاء أن يعتبروه من باب الذكرى ليس إلا، وأن يرمقوه بعين القبول والاستحسان، إن كان من النفع بمكان، ويتفضل جنابهم بالمبادرة إلى العمل، وإصلاح المختل، وتنفيذ ما فيه لياقة، حتى تكون أفكارهم السديدة مصدر الإصلاحات، والأعمال الصالحات.

وقد كتبنا على أنفسنا أن لا نتكلم إلا باللهجة الصادقة، ولا نفوه بحول الله بعبارة تمس الأعراض، أو تشعر بالأغراض، وحصرنا الكلام على هذا الموضوع في ثلاثة أوجه:

الوجه الأول في بيان آراء القدماء، من فحول حكماء الإسلام وعلمائهم في التعليم، ونقل عباراتهم، والاستدلال بها على ما ينبغي اتخاذه.

الوجه الثاني في ذكر فصول القانون المشيري، وسبره بمسبار الانتقاد، ويجرنا هذا البحث لتمثيل الهيئة التعليمية، وشرح الحالة التي أوجبت الدهشة والحيرة، وترجونا زوالها وتعويضها بالطريقة الواجب إتباعها، بهمة السادة المشائخ النظار.

الوجه الثالث في الإلماع للطريقة التي تتكفل بالوصول إلى الغرض المطلوب في الزمن اليسير على ما يصل إليه فهمنا.

أثبت ذلك، وإني لراج أن لا يحوم سوء الظن حول كلامي، فإن ما أضاع فيمن قبلنا عمل العاملين، وأضعف همم الداعين إلا ما أصيبوا به من سوء الظن، فيما يكتبون أو يقولون.[20]

2) آراء حكماء الإسلام

الوجه الأول من الأوجه الثلاثة التي حصرنا فيها الكلام على هذا الموضوع هو بيان آراء حكماء الإسلام، وفلاسفة المسلمين في التعليم، والإسفار عن الطريقة التي يجب على المعلمين سلوكها، والمراد بهؤلاء الحكماء أولئك الجهابذة الفضلاء، والأساتذة النبلاء، مثل حجة الإسلام أبي حامد الغزالي، والمعلم الثاني أبي نصر الفارابي، والفيلسوف ابن رشد، وزين الدين الإمام محمد بن الحاج العبدري، وقاضي القضاة عبد الرحمان بن خلدون.

20) ع 940 بتاريخ 28 ماي 1907

أما الغزالي[21] فبين في " الإحياء " أن للمعلم المرشد وظائف لا بد له من تقلدها، والتحلي بجميل وصفها، فذكر أنه يجب عليه أن يراعي التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى أخرى، وأن لا يدع من نصحه شيئا، بأن يمنعه من التصدي لدرجة قبل استحقاقها، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي، وأن يقتصر به على قدر فهمه، ولا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره[22] إقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم، حيث قال:

" نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، ونكلمهم على قدر عقولهم "[23] فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقال صلى الله عليه وسلم: " ما أحد يحدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم "[24]

وقال علي كرم الله وجهه، وأشار إلى صدره " أن هاهنا لعلوما جمة، لو وجدت لها حملة" وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار، فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحد، هذا إذا كان يفهمه المتعلم، ولم يكن أهلا للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه، وقال عيسى عليه السلام: لا تعلقوا الجوهر في أعناق الخنازير، فإن الحكمة خير من الجوهر، ومن كرهها فهو شر من الخنازير، ولذلك قيل: كل لكل عبد بمعيار عقله، وزن بميزان فهمه، حتى تسلم منه، وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار، وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب، فقال السائل: أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار "[25] فقال: اترك اللجام، واذهب فإن جاء من يفقه، وكتمته فليلجمني، فقد

---

21) حجة الاسلام أبو حامد الغزالي توفي(505 / 1111) له مؤلفات كثيرة منها : مقاصد الفلاسفة، وتهافت الفلاسفة وإحياء علوم الدين الذي يهمنا هنا

22) انظر الإحياء ط دار التقوى للتراث مصر 2000 ج 1 ص 112 ـ113

23) رواه أبو داود في سننه

24) ما أحد يحدث.لم اعثر عليه في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي

25) رواه ابن ماجة في سننه

قال الله تعالى: " ولا تؤتوا السفهاء أموالكم "[26] تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق.

وقال أيضا: " أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقا، وهو يدخره عنه، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي، ويشوش عليه قلبه، ويوهم إليه البخل به عنه: إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق، فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله، وأشدهم حماقة، وأضعفهم عقلا هو أفرحهم بكمال عقله"

" وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع، ورسخت في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه، ومن غير تأويل، وحسن مع ذلك سريرته، ولم يحمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي أن يخلي وحرفته فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي، وينقلب شيطانا مريدا، يهلك نفسه وغيره، بل لا ينبغي أن يخاض بالعوام في حقائق العلوم الدقيقة، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار، كما نطق به القرآن، ولا يحرك عليهم شبهة، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلب واحد منهم، ويعسر عليهم حلها فيشقى ويهلك"" وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق، ودوام عيش الخواص "[27] هذا حاصل كلام الغزالي رحمه الله.

---

26) النساء:5

27)الإحياء ج 1 ص 113 ـ 114 وقد أصلحنا الأخطاء الواردة في النقل عن الإحياء

وأما الفارابي[28] فقال في كتاب " إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها" من اللازم المتحتم على المعلم أن لا يلقي على الطالب مسألة، إلا إذا علم أن فيه استعدادا لفهمها وقبولا لها، فإن الملكات تحصل تدريجا شيئا فشيئا، والمتعلم يكون أول أمره عاجزا عن تعلم أصغر الجمل وأظهرها، إلا على سبيل الإجمال والتقريب بالعبارات الصريحة، والإشارات الحسية، ثم لا يزال الاستعداد يتدرج فيه قليلا قليلا بمعاودة النظر في قواعد العلم وتكررها عليه مرة بعد مرة، والانتقال فيها من التقريب والإجمال إلى الشرح والتفصيل، ثم إلى الإحاطة والاستيعاب، حتى تتم الملكة، ويكمل الاستعداد، وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات وهو عاجز عن الفهم، بعيد عن الاستعداد كل ذهنه عنها، وعجز قبولها، فانصرف عن العلم، وعدل إلى هجره، والإعراض عنه بجملته، لعدم علمه أن ذلك ليس من استعداده، وإنما أتى من سوء التعليم.

وأما ابن رشد[29] فذكر أن طريقة الأساتذة في التدريس كانت أن كل مدرس يعد درسه، ويكتب في الموضوع الذي يلقي الدرس فيه ما يريد أن يكتب، ثم يلقيه على التلامذة، وهم يكتبون عنه، ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالي تنتشر بين الناس في كل علم، فكان العلم لأجل هذا سهل التناول، محفوظا في صدور الرجال.

ثم بين إنه طرأت على أسلوب التعليم اختلالات كادت تكون القاضية على العلم، وأنحى، رحمه الله، على رداءة تعليم التوحيد، وفصل ما يدرس إذ ذاك منه تفصيلا، وأخذ يشرح العقائد واحدة واحدة، وقال إن هذا عين ما شرحه القرآن، وما طلبه الرسول، واقتضاه الدين، وأشار بتقييد تلك الطرق بطرق أخرى تطابق كتاب

---

28) أبو نصر محمد الفارابي(توفي 339 /950) يلقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو من كتبه آراء أهل المدينة الفاضلة- وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها

29) أبو الوليد محمد ابن رشد (توفي 595 / 1198) حاول التوفيق بين الفلسفة والشريعة من كتبه بداية المقتصد ونهاية المجتهد

الله الذي طلب النظر في العوالم، ومعرفة الحكمة، وقال بعد ذلك: إن كل ما بينا الآن من المناقشات اللفظية وأمثالها إنما هي فضلات من حثالات اليونان القديمة المحشوة في الكتب المنافية لشريعتنا.

وأما ابن الحاج [30] فقال في كتابه "المدخل": ينبغي للمعلم إذا أخذ يتكلم في الدرس يبين المسألة ويوجهها ، ويستدل لها ، مراعيا في ذلك حال المتعلمين ، ثم ينظرها بما يشبهها من المسائل ، وما يقرب منها ، ثم ينزع عليها ما يحتمل من التفريع بعد حله أولا للفظ الكتاب وتبيينه ، حتى تستبين صورة مسألة الكتاب لجميع من حضر الصغير والكبير ، لأن حل لفظ الكتاب مطلوب من الجميع من الصغير والكبير، ممن يحفظ الكتاب، وممن لا يحفظه، فيكون في أول سيره يسير سير الضعيف للحديث الشريف ، فإذا تحصل للضعيف مقصوده ، وهو حل ألفاظ الكتاب ، حينئذ يرجع في البيان إلى من هو أقوى منه ، ثم يتدرج بعد ذلك قليلا قليلا.

ثم قال: وينبغي له أيضا أن يتفقد جلساءه في أثناء المسائل والفروع بمعرفة السنة والعمل بها، والتنبيه، ومعرفة فضلها، وعلو قدرها، وقدر من يعمل بها ويتبعها، والتجنب عن البدعة والتحذير منها، وما يحصل بها من المقت لفاعلها، فإن هذا العلم هو الأصل، وهو الذي يتعين فرض عين على أكثر الناس، قال: لأننا نجد كثيرا من الطلبة يقعدون في مجالس العلماء وهم صغار، ثم يشيبون، وهم على ذلك الحال من حضور المجالس، وقل أن تجد منهم من إذا ذكرت له سنة أو بدعة يعرفها أو ينتبه لها، كما قد تربى عليه من ترك هذا الفن، إلا قوله إن كان حاذقا نبيها: ذهب الشافعي إلى كذا، وذهب مالك إلى كذا، وقال ابن القاسم كذا، وقال الربيع كذا، فبحث في بعض الفروع، ولا يعرف غير ذلك، وهذا قبح عظيم شنيع أن تكون هذه الطائفة المنسوبة للعلماء تسأل أحدها عن السنة في بعض تصرفه لا يعرفها، أو بدعة

30) محمد ابن الحاج العبدري(توفي737 / 1336) من كتبه مدخل الشرع الشريف على المذاهب الأربعة

في زمانه لا يعلمها، بل يحتج على جوازها بالعوائد المستمرة.

فإذا نبههم المعلم على ما ذكر تيقظوا للسنة في تصرفهم فأحبوها، وتنبهوا للبدعة فابغضوها، وهذا متعين على من يتكلم في مسألة، فكيف بهذا العالم الذي قعد يعلم الأحكام، وواجب عليه التغيير باللسان، فإذا تكلم بذلك في مجلسه عرفت السنة إذ ذاك منه، وعرفت البدعة، وأقل ما يحصل فيه من الفائدة أن يبقى كل من حضر يعلم من أي قسم هو، وفي أي شيء يتصرف، وهل هو في سنة أو في بدعة.

قال:وهذا خير عظيم، لبقاء هذا المنصب الشريف نظيفا، لا ينسب إليه غير ما هو فيه، فتزول بسببه هذه الثلمة التي وقعت في هذه الأزمان الأخيرة من البدع المحدثة التي تنسب إلى أنها من السنة، فإذا نبه عليها هذا العالم عرفت، ومع ذلك فالأكثر منهم يتبع ويمتثل، لأن الخير والحمد لله لم يعدم من الناس، وأن عدم في بعضهم فهو موجود في آخرين.

هذا حاصل كلام ابن الحاج، أما ابن خلدون فسنأتي على بيان رأيه فيما يأتي إن شاء الله تعالى.[31]

3) آراء حكماء الإسلام

نقلنا في العدد قبل هذا كلام نخبة من فحول الإسلام وفلاسفة المسلمين في التعليم، ووعدنا ببيان رأي ولي الدين عبد الرحمان ابن خلدون التونسي في المسألة حتى يزال الأذى عن الطريق الأقوم، وتنكشف الحقيقة، وتتبين الطريقة المثلى، ويتجلى الصراط السوي، ويصير التعليم بالكلية الإسلامية التونسية موافقا لمرغوب أولئك الأئمة الأعلام بحول الله تعالى، ولما كان الوفاء بالوعد مطلوبا شرعا، ولا سيما في هذا المقام تعين علينا بيان رأي هذا الأستاذ النبيل، والفيلسوف الجليل.

---

31) ع 941 بتاريخ 4 جوان 1907

نظر الإمام ابن خلدون[32] رحمه الله في موضوع التعليم نظرتين، وأرجع البصر كرتين، فالنظرة الأولى من حيث الفساد، والنظرة الثانية من حيث الهداية إلى سبيل الرشاد.

أما الفساد فذكر أنه تطرق العلوم والتعليم من أمرين:الأول كثرة التأليف، والثاني كثرة الاختصارات، أما كثرة التأليف فلكونها عائقة عن التحصيل، وأما كثرة الاختصارات فلأنها مخلة بالتعليم، وخص في مقدمته كلا من هذين الأمرين بفصل مستقل.

أما الفصل الأول فأشار إليه بقوله: فصل في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل: اعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم، والوقوف على غاياته كثرة التآليف، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك، وحينئذ يسلم له منصب التحصيل، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها، ومراعاة طرقها، ولا يفي عمره بما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها، فيقع القصور ولا بد، دون رتبة التحصيل، ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا، وما كتب عليها من الشروحات الفقهية، مثل كتاب يونس واللخمي وابن بشير، والتنبيهات والمقدمات، والبيان والتحصيل على العتبية، وكذلك كتاب ابن الحاجب، وما كتب عليه، ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية، وطرق المتأخرين عنهم، والإحاطة بذلك كله، وحينئذ يسلم له منصب الفتيا، وهي كلها متكررة والمعنى واحد، والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز، ما بينها، والعمر ينقضي في واحد منها، ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط، لكان الأمر دون ذلك بكثير،

وكان التعليم سهلا، ومأخذه قريبا، ولكنه داء لا يرتفع، لاستقرار العوائد عليه، فصار كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها.

---

32) عبد الرحمان ابن خلدون(توفي 808 / 1406) مؤسس علم الاجتماع وصاحب فلسفة التاريخ، وشهرته تغني عن كل تعريف.

ويمثل أيضا علم العربية من كتاب سيبويه[33] وجميع ما كتب عليه، وطرق البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين من بعدهم، وطرق المتقدمين والمتأخرين، مثل ابن الحاجب[34] وابن مالك[35] وجميع ما كتب في ذلك، وكيف يطالب به المتعلم، وعمره ينقضي دونه، ولا يطمع أحد في الغاية منه؟ إلا في القليل النادر، مثل ما وصل إلينا بالمعرب لهذا العهد من تأليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام[36] ظهر من كلامه فيها أنه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة، لم تحصل إلا لسيبويه وابن جني[37] وأهل طبقتهما، لعظم ملكته، وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه، وحسن تصرفه فيه، ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين، سيما ما قدمناه مع كثرة الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتأليف، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذا نادر من نوادر الوجود، وإلا فالظاهر أن المتعلم، ولو قطع عمره في هذا كله فلا يفي له بتحصيل علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ، ووسيلة من الوسائل ، فكيف يكون في المقصود الذي هو الثمرة ؟ ولكن الله يهدي من يشاء[38]

وأما الفصل الثاني فأشار إليه بقوله: فصل في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم.

ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يؤلفون[39] بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها، باختصار في الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن، وصار ذلك مخلا بالبلاغة، وعسرا على

33) سيبويه(توفي 80 /796) إمام النحاة ومؤسس علم النحو في العربية
34) عثمان بن الحاجب(توفي646 / 1249) له مؤلفات في النحو والفقه وعلم الأصول
35) ابن مالك بدر الدين بن محمد النحوي(توفي 686 /1287) له شرح الألفية وشرح لامية الأفعال
36) محمد جمال الدين بن هشام(توفي 762 /1360) نحوي ولغوي مشهور من تآليفة مغني اللبيب
37) عثمان بن جني(توفي 393 /1002) نحوي بصري من كتبه سر صناعة الإعراب والخصائص
38) المقدمة ص 1021 ـ 1022
39) في المقدمة (ط دار صادر 1967 ص 1028) يولعون، وما أثبته بوشوشة أقرب إلى الصواب

الفهم، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان فاختصروها تقريبا للحفظ، كما فعله ابن الحاجب في الفقه وأصول الفقه، وابن مالك في العربية، والخونجي[40] في المنطق وأمثالهم، وهو فساد في التعليم، وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يستعد لقبولها، وهذا من سوء التعليم كما سيأتي، ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ

الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعاني عليها، وصعوبة استخراج المسائل من بينها، لأن ألفاظ المختصرات تجدها لأجل ذلك صعبة عويصة، فينقطع في فهمها حظ صالح من الوقت، ثم بعد ذلك كله فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات، إذا تم على سداده، ولم تعقبه آفة، فهي ملكة قاصرة على الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والإحالة المفيدين لحصول الملكة التامة، وإذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته، كشأن هذه الموضوعات المختصرة، فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فاركبوهم صعبا، يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها، ومن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، والله سبحانه وتعالى أعلم[41]

هذا كلام الإمام ابن خلدون في بيان وجوه فساد التعليم، والإسفار عن المضار التي تلحق المتعلمين. أما بيان رأيه في الإرشاد إلى وجه الصواب وطرق الإفادة فسيأتي في العدد القابل إن شاء الله[42]

40) محمد الخونجي(توفي646/1248) حكيم ومنطقي من كتبه مختصر نهاية الأمل في الجمل

41) المقدمة ص 1028 ــ 1029

42) ع 942 بتاريخ 11 جوان 1907

4) آراء حكماء الإسلام

ذكرنا في العدد السابق أن ولي الدين ابن خلدون تكلم على موضوع التعليم من وجهين: الأول بيان أسباب الفساد، الثاني الإهداء إلى سبيل الرشاد، أما الوجه الأول فقد تقدم كلامه فيه مستوفى، وأما الوجه الثاني أشار إليه بقوله: (فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته)

اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدريج شيئا فشيئا، وقليلا قلبلا، يلقى عليه أولا مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال، ويراعى في ذلت قوة عقله، واستعداده لقبول ما يراد عليه، حتى ينتهي إلى آخر الفن، وعند ذلك تحصل له ملكة في ذلك العلم، إلا أنها جزئية وضعيفة، وغايتها أنها هيأته لفهم الفن وتفصيل مسائله.

ثم يرجع إلى الفن ثانيا فيرفعه في التلقين عن تلك الرتبة إلى أعلى منها، ويستوفي الشرح والبيان، ويخرج عن الإجمال، ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه إلى أن ينتهي إلى آخر الفن، فتجود ملكته، ثم يرجع به إلى الفن ثالثا، حيث قويت عارضته، واتسعت دائرة فكره، فلا يترك عويصا ولا مهما إلا وضحه، وفتح له مقفله، فيخلص من الفن، وقد استولى على ملكته.

هذا وجه التعليم المفيد، وهو كما رأيت، إنما يحصل في ثلاث تكرارات، وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك، بحسب ما يخلق له، ويتيسر عليه، وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفاداته، ويحضرون للمتعلم في أول تعلمه المسائل المقفلة من العلم، ويطالبونه بإحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مرانا على التعليم، وصوابا فيه، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله، ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها، وقبل أن يستعد لفهمها، فإن قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجا، ويكون المتعلم أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة، إلا في

الأقل، وعلى سبيل التقريب والإجمال وبالأمثال الحسية، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قلبلا، بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه، والانتقال فيها من التقريب إلى الاستيعاب الذي فوقه، حتى تتم الملكة في الاستعداد، ثم في التحصيل، ويحيط هو بمسائل الفن.

وإذا ألقيت عليه الغايات في البدايات، وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي، وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه، وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه، فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله، وتمادى ي هجرانه، وإنما أتى ذلك من سوء التعليم، ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمة على فهم كتابه الذي انكب على التعلم منه، بحسب طاقته، وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئا كان أو منتهيا، ولا يخلط مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره، ويحصل أغراضه، ويستولي منه على ملكة بها ينفذ في غيره، لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعد بها لقبول ما بقي، وحصل له نشاط في طلب المزيد، والنهوض إلى ما فوق، حتى يستولي على غايات العلم، وإذا خلط عليه الأمر عجز عن الفهم، وأدركه الكلال والوهم، وانطمس فكره، وليس من التحصيل، وهجر العلم والتعليم، والله يهدي من يشاء [43]

إلى ها هنا انتهى كلام ابن خلدون، وهو خاتمة كلام الأئمة الفحول الذين أتينا على آرائهم في التعليم، لتكون حجة على ما أردناه، وشاهدا صادقا لما توخيناه، وقد تضمن كلام هؤلاء الجهابذة النحارير مجموع أمرين:

الأول: نبذ المختصرات والشروح والحواشي والتقارير والهوامش والطرر المشحون جميعها بالأبحاث العقيمة، والأفكار السقيمة، والمماحكات اللفظية والمباحث الأجنبية، وانتخاب الكتب النافعة التي تزيل استعصاء العلوم على المتعلمين، وهي التي كان مطمح أنظار مؤلفيها، تشخيص المسائل وتقريبها وتحريرها وإيصال

43) المقدمة ص 1030 ـ 1032

الطالب لمعرفتها من غير تشتيت للنظائر، ولا إغلاق في العبارة، أو اتجار في الألفاظ، حتى تلحق بالكلام المعمى والألغاز، كما هي شنشنة بعض المؤلفين من المتأخرين الذين تجاوزوا الحد في إخفاء المعنى، والإرشاد إلى المقصود من طرف خفي جدا، ولربما نظر أحدهم في مؤلفه يوما، فلم يهتد لمراد نفسه فيه، ولم يعلم الغرض الذي بنى الكلام عليه، فاحتاج إلى إمعان النظر، وإعمال الفكر فيما حرره، لينفع به الناس على ظنه، فلم يكن في إمكانه أن ينتفع به هو، ثم جعل عليه مؤلفا آخر لحل رموزه، وقد نقل بعضهم أنه اتفق مثل هذا للخيالي[44] فإنه كتب حاشية على شرح سعد الدين التفتزاني[45] على العقائد النسفية، اختصر فيها الألفاظ، وأكثر المعاني لدرجة أنه لم يدع لنفسه جهدا في الاختصار، قالوا ثم إنه رجع إلى حاشيته هذه بعد زمن فلم يهتد إلى شيء من مراده فيها، واعضل عليه فهمها، فعكف زمنا طويلا عليها، يطالع ويراجع وينقب، حتى كشف الله له عن رموزها، فكتب عليها حاشية سماها + مهوات الخيالي " إشارة إلى ما اتفق له في حاشيته الأولى.

الأمر الثاني: تحذير المعلم من أن يلغز التلميذ المسائل المعضلة في أول تلقينه، ويكلفه بإحضار ذهنه في حلها وكشف غامضها، ويخلط عليه في أول الأمر، فيلقي عليه غايات الفن في مباديه، حتى تعجز نفسه، وينبذ التعلم وراء ظهره، أو يشتغل طول عمره بما لا يفيد ولا يجدي، بل يعطيه المسائل على نسبة قبوله، وحسب استعداده للتعليم، ولا يزيده على طاقته، ولا يكلفه ما لا يتحمله، ولا يمزج له مسائل الكتاب بغيرها، إلا ما كان منها ناقصا، والطالب محصل على جانب من العلم والفهم، فلا بأس من ذكر المتمم له لئلا يظن أن المسألة كاملة، وهي ليست كذلك، حتى يعي الكتاب من أوله إلى آخره، ويحيط

44) أحمد الخيالي(توفي 886 / 1136) من مؤلفاته حاشية على شرح العقائد العضدية

45) مسعود بن عمر التفتزاني(توفي 793 /1390) من أئمة البيان والمنطق من كتبه المطول والعقائد النسفية

بجميع مسائله، فإذا علم المعلم أن الطالب قد صار لديه من الملكة ما يهيئه لكتاب أرقى نقله إليه على بصيرة به، على نحو ما تقتضيه القاعدة التدريجية.

وعلى منوال ما قرره أولئك الفلاسفة المسلمون نسج الفصل الثاني من ترتيب التعليم بالجامع، على ما سنوضحه بإرادة الله، ومنه يتجلى، تجلي العروس على المنصة، أن صنيع بعض المدرسين اليوم مخالف لصريح القانون، ولما قاله الأئمة الهادون المهتدون.

هذا آخر الكلام على ما يعتقد بالوجه الأول من الأوجه الثلاثة التي حصرنا الكلام على موضوع الدعوة إلى إصلاح التعليم، وسنشرع في بيان الوجه الثاني في العدد الموالي، إن شاء الله تعالى[46]

5) المنشور الصادقي

أسلفنا في طالعة هذا الفصل أن المولى أحمد باي[47] لما رأى سوء التعليم تفاقم أمره، ووجه الفساد تضاعف حاله، تلافى هذا الخلل بعمل ترتيب مؤرخ في 27 رمضان 1258 على سنن المدارس النظامية المعتبرة، وأذن بكتابته بحروف واضحة، وعلق بالقرب من باب الشفاء، فانتعش هيكل التعليم، وشفي من عذاب السقم الأليم، ودبت فيه روح الرقي والتنظيم، وتحسنت الحالة نوعا ما، ثم سعى الوزير الخطير المصلح الشهير خير الدين باشا[48] في توسيع نطاق دائرة التحسين، وزيادة إشادة صرح التعلم والتعليم، وإقامته على أساس متين، فأصدر المشير الصادق باي[49] منشورا ساميا مؤرخا بالثامن والعشرين من ذي القعدة الحرام سنة 1292 اشتمل على سبعة وستين فصلا، ذات ترتيب عجيب، وأسلوب غريب في تحرير أحوال الدروس، وإرشاد المشائخ المدرسين، لما ينبغي سلوكه، فألغي الترتيب

---

46) ع 943 بتاريخ 18 جوان 1907

47) المشير الأول أحمد باشا باي الأول تولى الحكم من سنة 1839 ــ 1855

48) خير الدين باشا (1820 ــ 1890) تولى الوزارة الكبرى من سنة 1873 ـ 1877

49) المشير الثالث محمد الصادق باي، تولى الحكم من سنة 1859 حتى سنة 1882

الأحمدي، وعوض بالمنشور الصادقي، واشتهر هذا الأخير بين الأساتذة اشتهارا تاما،حيث طبعت منه نسخ شتى، وزعت على أهل العلم ليطالعوه، ويسرحوا النظر في رياض تحبيره ويمعنوه، فأحاطوا به خبرا، وساروا على مقتضاه طوعا أو قسرا، وألصق كل تلميذ نسخة منه بدفتره، ليكون على بصيرة من أمره، واعتبر هذا المنشور لدى ولاة الأمور دستورا وحيدا، يستند إليه، وتجري كافة الأعمال عليه، وحظي بهذا الاعتبار من الزمان إلى الوقت الحاضر.

بيد أنه كاد يصير في وقتنا هذا اسما بلا مسمى، ولفظا بلا معنى، حيث تطرق الإلغاء جانبا منه، وأدبر عنه لزوم الاعتبار، وأعرض عنه، فأهمل غالب المدرسين واجب خطتهم، وغضت النظارة العلمية البصر عن مراقبتهم، فساء الحال وعظم الاختلال، وصارت بضاعة المتعلمين مزجاة، أما لو وقعت المحافظة على العمل بالقانون لكانوا يرقون كل آونة مدا رج النجاح، ويتصدرون على أرائك الفلاح، ولا نحتاج حينئذ إلى طلب الإصلاح.

لذلك وجب علينا الاصداع بالحق مع تحري الصدق، وإثبات ما به الحاجة من فصول القانون، وشرح الحالة التي عليها غالب المدرسين اليوم، حتى تنجلي وجوه الفساد، ويستبين سبيل الرشاد، مستمنحين من أصحاب الفضيلة شيوخ النظارة العلمية أن يتكرموا على ما نسطره بجانب من النظر والاعتبار، ويبادروا بإنجاح العمل في إصلاح المختل، حيث كان القصد من هذا العمل الجليل، وتحمل عبئه الثقيل، مجرد الإخلاص في خدمة عامة، وأهل العلم خاصة، والله على ما نقول شهيد.

اقتضى الفصل الأول من الباب الأول بيان الفنون التي يكون الجامع الأعظم عامرا بقراءتها، ولا يسوغ خلوه منها، وهي:

1) علم التفسير
2) " الحديث
3) " التوحيد
13) علم المعاني والبيان
14) علم اللغة والأدب
15) علم السير والتاريخ

4) علم القراءات والتجويد
5) علم المصطلح
6) علم أصول الفقه
7) علم الفقه
8) علم علم الفرائض
9) ″ التصوف
10) ″ الميقات
11) ″ النحو
12) ″ علم الصرف

16) + الرسم والخط
17) ″ العروض
18) ″ المنطق
19) ″ آداب البحث
20) ″ الحساب
21) ″ الهندسة
22) ″ الهيئة
23) ″ المساحة

فتلك ثلاثة وعشرون علما صرح بها القانون بأن مزاولتها أمر لابد منه، ولا يجوز العدول عنه، وقد خولف هذا النص الصريح، فإن العلوم التي تدرس منها الآن بالجامع حقيقيا محكما ثمانية: التوحيد، القراءات، والتجويد، الفقه، أصوله، النحو، الصرف، المعاني والبيان،المنطق، أما الخمسة عشر علما الباقية فتسعة، منها، لا أثر لها لإقراء كتبها بالجامع أصلا، وهي: التصوف والميقات واللغة والأدب والسير والتاريخ والرسم والخط وآداب البحث والهندسة والهيئة والمساحة، بحيث إن الإنسان لو جاب أنحاء الجامع في كل وقت من الأوقات التي تكون غاصة بحلقات التدريس، وطاف عليها قاطبة لما وجد منها درسا البتة، حيث نسجت عليها عناكب الإلغاء، ولربما اعتقد البعض أن بعضها مباين للدين، ومناف لشريعة سيد المرسلين.

وأما الستة الأخرى التي هي التفسير والحديث والمصطلح والفرائض والعروض والحساب فقد اشتركت في حكم واحد، وهو قلة المزاولة ونزارة المناولة، إلا أنها اختلفت في ذلك قلة وكثرة نسبيتين، فدروس التفسير لا يوجد منها إلا درس واحد في يومي الأربعاء والخميس من بعض الأسابيع، ودروس الحديث غير موجود منها إلا أربعة، يقوم بإلقائها بعض الشيوخ في الأيام الشبيهة بأيام الراحة، فهل يرتضي أحد من أهل العلم أن يصرف ثلث عمره في تعلم

النحو مثلا من حواشي المتأخرين، ويمضيه في قراءة قيل وقال، وأعترض وأجيب، ويضن بسنتين على كتاب الله، وقانون دينه، ومبدأ سعادة البشر في النشأنين، ومثافنة حديث سيد الثقلين، إحداهما يصرفها في قراءة تفسير من التفاسير اللطيفة الموثوق بها، والمعلومة درجة مؤلفيها وطبقتهم بين العلماء، والأخرى يقضيها في فهم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وحفظ جانب منها، حتى يكون منور القلب، مطلعا على أحاديث الرسول الكريم، مع أن أول ما يقوله الأستاذ لتلميذه عند إرادة شروعه في تعليم النحو: ″ إن فائدته الاستعانة به على فهم كتاب الله تعالى، وكلام رسوله″ فأين هذه الفائدة؟

وليس ما نقوله خاصا بالبلاد التونسية بل طلاب العلوم الشرعية في جميع الأمصار والأقطار الإسلامية قد اطرحوا هذين القسمين من الفنون، وجعلوهما دبر آذانهم، ولم يعيروهما أدنى نظر والتفات، إلا طلبة العلوم الشرعية بالآستانة العلية، فقد نقل صاحب كتاب التعليم والإرشاد[50] أنه من المتحتم على الطالب عندهم أن يقرأ من كتب التفسير تفسير القاضي البيضاوي[51] فإن لم يحضره على أحد الشيوخ في جملة كتب العلوم الشرعية لم ينل درجة العالمية. وعلم المصطلح لا يوجد منه إلا درس أو درسان في منظومة ″ غرامي صحيح ″[52] عند حلول امتحان التطويع السنوي، وعلم الفرائض لا يزاول منه إلا شرح الشنشوري[53] على الرحبية في يومي الأربعاء والخميس، ولا

---

50) كتاب التعليم والإرشاد، من هو مؤلفه؟ يبدو أن بوشوشة قد تأثر بمحرري المنشور الصادقي الذين يقتصرون على ذكر الكتاب، ويهملون مؤلفه، كأن شهرة الكتاب تغني عن اسم صاحبه، ولكن بوشوشة عاد فذكر مؤلف هذا الكتاب في الحلقة الثامنة من هذه الدراسة، وهو محمد بدر الدين ، ولم نعثر على ترجمة له إن في الأعلام للزركلي أو معجم المؤلفين لكحالة

51) عبد الله بن عمر البيضاوي(توفي 698 / 1463) له أنوار التنزيل وأسرار التأويل، في التفسير

52) غرامي صحيح منظومة في مصطلح الحيث في عشرين بيتالابن فرح الاشبيلي(توفي بين 600 و700) انظر في خصوص هذه المنظومة وشروحها الشاذلي النيفر: بلقاسم البجائي (في اربع حلقات) الهداية ع1 ماي 1997 وما بعده

53) محمد بن عبد الله بن علي الشنشوري(983 / 1576) فقيه شافعي مصري، له مؤلفات في الفرائض وغيرها

شك أن هذا الشرح يشتمل على بعض مسائل هذا العلم الخلافية بين أئمة المذاهب الأربعة التي يشير بيانها للتلميذ تشويشا في فكره، وتذبذبا في عقله، وتخليطا في فهمه، فكيف يقتصر على تدريسه لكافة التلامذة على اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم، ويترك ما سواه من بقية الكتب التي أوجب القانون إقراءها، سيما وليس في هذا الكتاب بيان كيفية العمل التي هي إحدى مدلولي الفن، وأما الدرة البيضاء فلا يقرأ التلميذ منها إلا دروسا لا تتجاوز عدد الأصابع، ثم ينال رتبة التطويع، ويخيل له إن كان ضعيف العقل أنه أحاط بكل شيء علما.

وعلم العروض لا يدرس منه إلا متن الكافي بالشرح الصغير عندما يطلب دلك أحد التلامذة، ولطالما يمضي العام والعامان، ولا تفتح دفتا هذا الكتاب بالجامع، ولهذا كان الكثير من الشيوخ لا يقدرون على سرد بيت من الشعر، طبق ما تقتضيه الموازين الشعرية، والقواعد الفنية، حتى أن بعضهم ظن أن قوله:" من طابت سريرته حمدت سيرته" من الكلام الشعري الموزون.

أما علم الحساب، وما أدراك ما علم الحساب، فلا يقرأ منه إلا " متن الدرة" بأسلوب مطول جدا، حيث إن الشيخ يفتتح الدرس بسرد عبارات المصنف وبيانها، بما علقه عليها الشارح والمحشي من إعراب وبلاغة ولغة وبديع وتقديم وتأخير، فيفني في تقرير باب الجمع الشهر ونحوه، ولا يستوفي المسائل الحسابية البيسطة إلا بعد انقضاء أربعة أعوام في الأقل، لا يحصل التلميذ في أثنائها إلا على بعض مسائل سطحية، ولو عكف نصف هذه المدة على مزاولة قواعد هذا الفن بالطريقة الحديثة لصار من أرباب الاختراع والتأليف.

وقد اخبرنا واحد من أهل العلم أنه كان لازم درس أحد أعيان الشيوخ بالجامع في حساب "الدرة" مدة ثلاث سنوات، بلغ فيها مبلغ القسمة، فتعذر على التلامذة فهم هذا المبحث، وصعبت عليهم معرفة الخارج، فأراد الشيخ أن يزيل عنهم تلك الكروب الشداد بشي ذي شكل منبري، يستعان به على التوصل لمعرفة الخارج يسمى" الزنزير"

فأتى لهم به مرسوما على قرطاس، ومكث مدة طويلة في بيان هذا الزنزير، وكيفية وضعه، والاهتداء منه إلى المطلوب، فازداد باب القسمة إغلاقا، وكانت الوسيلة أصعب من المقصد، فتغيب هذا الفاضل عن درس الشيخ، وهو حيران، وخال أن القسمة لا يقدر عليها إنس ولا جان، فاجتمع ببعض أصدقائه، وأخبره بما وقع له، فأشار عليه بالتباعد عن ذلك الدرس، وتخصيص ساعة من كل يوم، يزاول هذا العلم بالمدرسة الخلدونية، وأقبل على دروسها مدة سنة مدرسية، فسار نحريرا في الحساب والهندسة والجغرافية والمكاييل والمقاييس، وحصل على شهادتها، وألم ببعض علوم أخرى في تلك المدة الوجيزة، وتيقن أن علم الحساب ليس من الأمور الصعاب.

ثم ظهر له أن يحضر في العام الموالي لذلك العام بدرس شيخه، ليرى ما فعل الله به، وبباقي التلامذة، فحضر فيه وجلس في موضعه، فوجد الشيخ أنهى الكلام على الزنزير، وانتقل لبيان العدد المنطق والعدد الأصم، وتوضيح الفرق بينهما، فقضى من ذلك العجب العجاب، وطلق ذلك الدرس طلاقا، ليس بعده إياب، فاعتبروا يا أولي الألباب[54]

6) المنشور الصادقي

قلنا في العدد السابق أن الترتيب الصادقي اقتضى أن العلوم التي لا يجوز إخلاء الجامع منها ثلاثة وعشرون علما، مع أنها يدرس الآن منها به درسا حقيقيا محكما إلا ثمانية فقط، أما الخمسة عشر الأخرى فمنها تسعة لا أثر لتدريسها أصلا، وأما الستة الباقية فقد ينالها الحظ، وتدرس على قلة ونزارة تامتين.

ولذا أردنا اليوم أن نبين كتب المراتب الثلاثة التي صرح القانون بلزوم تدريسها بالجامع حتى يكون معمورا بقراءتها، مع الملاحظة عليها بيان ما يقرأ منها مما لا يقرأ، ومنه يظهر جليا مقدار انحطاط الحالة الحاضرة عن الحالة القانونية عسى أن يبادر المشائخ النظار

54) ع 944 بتاريخ 25 جوان 1907

بإعارة المسألة جانبا مهما من الاعتبار، حيث كان ذلك من وظيفة فضيلتهم، بمقتضى الفصل السادس من الترتيب الصادقي.

كتب المرتبة العالية

فمن علم التفسير " أسرار التنزيل للبيضاوي" يوجد منه الدرس الذي أشرنا إليه سابقا.

" ذو الجلالين"[55] لا وجود له.

ومن علم الحديث: الموطأ [56] متنا وبشرح الزرقاني[57] صحيح البخاري[58] متنا، وبشرح القسطلاني[59] صحيح مسلم[60] متنا، وبشرح الأبي، الشفاء[61] متنا، وبشرح الشهاب، المواهب اللدنية[62] وبشرحها الزرقاني.

توجد أربعة دروس في الكتب الأربعة الأولى، أما الخامس فلا يوجد منه ولو درسا من علم التوحيد: السيد[63] على المواقف، السعد على العقائد، الكبرى للشيخ السنوسي[64] لا يوجد درس في الأولين، ويوجد في الثالث درس واحد.

ومن علم المصطلح: مقدمة القسطلاني ، لا تدرس أصلا .

ومن علم أصول الفقه: التوضيح لصدر الشريعة بالتوضيح [65]

---

55) ذو الجلالين تفسير مختصر اشترك في تأليفه جلال الدين المحلي(توفي 864 /1456) وجلال الدين السيوطي (توفي 911 / 1505)

56) الموطأ للإمام مالك(توفي سنة179 / 759)

57) محمد الزرقاني (توفي1122 /1710) شرح موطأ الامام مالك ط مصر 1936

58) محمد بن إسماعيل البخاري(توفي 256 /870) من أكابر علماء الحديث، اشتهر بكتابه الجامع الصحيح

59) شهاب الدين أحمد القسطلاني(توفي923 /1517) محدث مصري من مؤلفاته إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري

60) مسلم بن الحجاج(توفي 261 /874) يأتي كتابه الجامع الصحيح بعد صحيح البخاري

61) للقاضي عياض (توفي سنة 544 /1149) فقيه ومؤرخ أندلسي من كتبه، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى

62) المواهب اللدنية في السيرة النبوية للقسلاني المذكور أعلاه

63) السيد علي الجرجاني(توفي816 /1413) له رسائل في الفلسفة، ومن كتبه التعريفات وشرح المواقف للإيجي

64) محمد بن يوسف السنوسي (توفي895 /1489) فقيه تلمساني له أم البراهين في العقائد أو السنوسية الصغرى

65) التوضيح لصدر الشريعة عبيد الله البخاري(توفي747 /1346) من كتبه التوضيح في حل غوامض التنقيح

العضد[66] على مختصر ابن الحاجب، المحلي على جمع الجوامع[67] يدرس هذا الأخير بكثرة، أما الأولان فلا وجود لهما.

ومن علم الفقه: التبيين شرح الكنز[68] الدرر شرح الغرر[69] الشيخ عبد الباقي على المختصر[70] الشيخ محمد الخرشي عليه[71] الأولان يدرسان بقلة، والثالث يوجد منه درس واحد، أما الرابع فلا وجود له.

ومن علم التصوف: الإحياء لا يدرس بالكلية، مع أنه لاغنى عنه لمن أراد تهذيب النفس.

ومن علم المعاني والبيان: المفتاح متنا[72] وبشرح السيد، المطول[73] الأول لا يقرأ أصلا، أما الثاني فقد كانت توجد منه دروس في الأعوام السالفة، وفقدت الآن بحيث لم يبق منها ولو درسا واحدا.

ومن علم اللغة والأدب: المزهر[74] فقه اللغة، المرزوقي[75] على الحماسة، الثلاثة مهجورة منذ سنين، ما عدا الأول فقد كان أستاذ القطر الإفريقي الشيخ سالم بوحاجب[76] أقرأ منه دروسا حافلة، ثم تخلى عنه منذ خمسة أعوام، فعسى أن يتفضل بإعادته.

ومن علم السير والتاريخ: السيرة الكلاعية[77] تاريخ ابن خلدون، كلاهما مهجور

---

66) عضد الدين الإيجي (توفي 756/ 1355) مؤلف كتاب المواقف في العقائد وعلم الكلام

67)المحلى على جمع الجوامع

68) كنز الدقائق كتاب في فروع الحنفية لحافظ الدين النسفي(توفي710 /1310) شرحه الكثير من الفقهاء

69) درر الحكام في شرح غرر الأحكام كتاب في الفقه الحنفي وضعه ملا خسرو(توفي885 /1480)

70)عبد الباقي الزرقاني(توفي1099 /1987)له شرح على مختصر خليل

71) محمد الخرشي(توفي1101 /1689) أستاذ المالكية بمصر له مختصر على شرح سيدي خليل

72) المفتاح في الصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع للسكاكي(توفي627 /1229)

73) المطول في البلاغة للسيالكوتي، سيأتي ذكره فيما بعد

74) المزهر في فقه اللغة للسيوطي(توفي 911/1475) نابغة في العلوم الدينية ، يذكر أن مؤلفاته زادت عن خمسمائة

75)الحماسة كتاب لأبي تمام(توفي189 /804) جمع فيه عيون الشعر من الجاهلية إلى العصر العباسي وشرحه المرزوقي وهو أحمد بن محمد(421/ 1030) لغوي نحوي من آثاره شرح الحماسة لأبي تمام

76) سالم بوحاجب(توفي1344 /1925) من مشاهير علماء عصره ومن أكابر شيوخ الزيتونة

77) السيرة الكلاعية لسليمان الكلاعي(توفي 635 /1237) من محدثي الأندلس وفقهائها له الاكتفاء في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفاء77) القطب على الشمسية، كتاب في المنطق، ألفه الكاتبي القزويني(توفي675 /1276) شرحه قطب الدين الرازي والتفتزاني

ومن علم المنطق: القطب على الشمسية[78] يوجد منه درس واحد.

ومن علم الحساب شرح ابن غازي[79] على المنية، التلخيص بشرح المسراتي

ومن علم الهيئة: السيد على التذكرة[80]

ومن علم الهندسة تحرير الطوسي لمقالات إقليدس[81]

العلوم الثلاثة السابقة مهجورة هي وكتبها المذكورة، ما عدا العلم الأول، فإنه يدرس منه حساب "الدرة" بالأسلوب الذي ألمعنا إليه في العدد الفارط.

كتب المرتبة المتوسطة

فمن علم الحديث: شرح اللقاني[82] على الأربعين النووية[83] الشمائل بشرح المناوي[84] كلاهما في حيز الإلغاء

ومن علم التوحيد: الوسطى للشيخ السنوسي، عبد السلام[85] على الجوهرة، الأول يدرس بكثرة، والثاني لا وجود له.

ومن علم القراءات، متن الشاطبية[86] وبشرح ابن القاصحيزاول بكثرة.

ومن المصطلح: ألفية العراقي متنا وبشرح القاضي لا تدرس البتة.

ومن علم أصول الفقه: شرح المنار[87] لابن مالك، الشرح البيرمي[88]

---

78) القطب على الشمسية، كتاب في المنطق، ألفه الكاتبي القزويني(توفي675 /1276) شرحه قطب الدين الرازي والتفتزاني

79) شرح ابن غازي وهو محمد بن أحمد(919 / 1513) مؤرخ حاسب فقيه له غنية الطلاب في شرح منية الحساب

80) التذكرة النصيرية كتاب في الهيئة لنصير الدين الطوسي(توفي 673 /1273)

81) إقليدس(القرن الثالث ق. م) فيلسوف يوناني، واضع الهندسة المسطحة

82) محمد بن هارون اللقاني(توفي1041 /1631) من علماء الكلام والحديث له جوهرة التوحيد

83) يحي بن شرف النووي(توفي677 /1278) من كبار علماء الحديث، له الأربعون حديثا النووية

84) الشمائل النبوية للإمام الترمذي(توفي279 /892) وشارحه عبد الرؤوف المناوي(توفي1031 /1621) من أئمة الشافعية، من مؤلفاته التيسير بشرح الجامع الصغير

85) عبد السلام بن إبراهيم اللقاني(توفي 1078 /1667) شيخ المالكية بالقاهرة في عهده، له إتحاف المريد في شرح جوهرة التوحيد

86)أبو إسحاق إبراهيم الشاطبي(توفي791 /1388) من علماء الأصول والحديث والتفسير

87) منار الأنوار كتاب في أصول الفقه لحافظ الدين النسفي(توفي710 /1310) شرحه ابن مالك

88) بيرم الثاني(توفي1247 /1831) حاشية على شرح الشيخ قاسم بن قطلوبغا على مختصر لابن حبيب الحلبي (توفي 808 /1406) ولبيرم الثالث(توفي1259 /1843) حاشية على المنار كذلك

على مختصر المنار، شرح التنقيح.للقرافي[89] الحطاب[90] على الورقات[91] الأولان لا وجود لهما، والثالث قليل التداول، أما الرابع فيزاول بانتشار

ومن علم الفقه: الدر المختار برد المحتار[92] شرح الوقاية[93] لصدر الشريعة، المنظومة المحبية ميارة[94]

على لامية الزقاق[95] متن المختصر[96] وبشرح الدر دير[97] التاودي[98] على العاصمية[99] الأربعة الأولى لا وجود لها، والأخيران يوجدان بكثرة.

ومن علم الفرائض: السيد على السراجية[100] شرح الدرة الصغير[101] للشيخ بن ملوكة[102] الشنشوري على الرحبية[103]

يدرس هذا الأخير بكثرة، أما الأولان فلا وجود لهما.

---

89) شهاب الدين أحمد القرافي الصنهاجي(توفي684/1285) من أشهر فقهاء المالكية بمصر / من كتبه أنواع البروق في أنواء الفروق طبع بتونس 1302 /1884)

90) محمد بن محمد الحطاب (954 / 1547) فقيه مالكي من كتبه مواهب الجليل في شرح مختصر خليل

91) الورقات في أصول الفقه عبد الملك الجويني(توفي 478 /1085)

92) محمد أمين ابن عابدين(توفي 1252/1836) ولد في دمشق وبها توفي، له رد المحتار على الدر المختار في شرح تنوير الأبصار أو الحاشية

93) شرح الوقاية في الفقه الحنفي لعبيد الله المحبوبي البخاري(صدر الشريعة) المتوفى 747 / 1346

94) أبو عبد الله محمد الفاسي ميارة(توفي1072 /1661) فقيه تلميذ ابن عاشر الأندلسي له سرح على تحفة الحكام في الفقه المالكي

95) علي بن قاسم الزقاق(توفي912 /1506) ألف لامية في الأحكام تعرف بلامية الزقاق، ومنظومة في القواعد، وتقييد على المختصر لخليل

96) المختصر لخليل بن إسحاق(توفي 769 /1367) وتناول العلماء كتبه بالشرح والتلخيص

97) أحمد الدر دير(توفي1201/1786) له مؤلفات في الفقه والبيان والتصوف، من كتبه الخريدة البهية في العقائد التوحيدية

98) محمد التاودي الفاسي(توفي 1209 / 1794) من مشاهير علماء المغرب الأقصى له تآليف كثيرة منها حاشية على شرح الزرقاني على المختصر

99) العاصمية أرجوزة في الأصول لمحمد بن عاصم الغرناطي (توفي829/1425)

100) السراجية مجموعة فتاوى على المذهب الحنفي، ألفه سراج الدين السجاوندي(توفي نحو597 /1200) فيه أحكام في الإرث على المذاهب الأربعة

101) شرح الدرة الصغير أي الغرة في فقه الدرة لمحمد الصادق الشطي توفي 1364 /1945

102) محمد بن ملوكة(توفي1276 / 1859) من آثاره شرحا على الدرة في الفرائض

103) محمد الرحبي(توفي677 /1278) فقيه شافعي له بغية الباحث عن جمل المواريث، على المذاهب الأربعة وتعرف يالرحبية

ومن علم التصوف: الحكم بشرح ابن عباد[104] الطريقة المحمدية

ومن علم الميقات: منظومة ابن غانم في العمل بالربع المجيب، رسالة سبط المارديني فيه [105] العلمان السابقان وكتبهما المذكورة في حيز الإهمال والإلغاء.

ومن علم النحو: الأشموني[106] على الألفية، المكودي[107] عليها، التوضيح، الأولان يزاولان بكثرة، أما الثالث فهو محشور في علم الدثور.

ومن علم الصرف: شرح لامية الأفعال لابن الناظم[108] دنقوزعلى المراح ،الشافية[109] بالشرح، السعد على الزنجاني[110] لا وجود لواحد منها.

ومن علم المعاني والبيان: متن التلخيص[111] وبشرح مختصر السعد، العصام على السمرقندية[112] شرح السمرقندي على رسالة الوضع الأول يدرس بكثرة والأخيران مهجوران.

ومن علم اللغة والأدب: المقامات للحريري[113] العمدة لابن

---

104) محمد ابن عباد(توفي792 /1389) صوفي وفقيه من مؤلفاته غيث المواهب العليه في شرح الحكم العطائية، والعطائية نسبة إلى ابن عطاء الإسكندري(توفي709 /1309) من مشاهير الصوفية في زمانه، له تاج العروس وقمع التقوس

105) محمد بن مجمد سبط المارديني(912 / 1501) عالم بالفلك والرياضيات من آثاره تحفة الأحباب في علم الحساب، وجداول رسم المنحرفات في الميقات وشرح الرحبية

106) علي الأشموني توفي 929 / 1523 فقيه متكلم نحوي من كتبه شرح ألفية ابن مالك

107) عبد الرحمان المكودي توفي 807 / 1405 من آثاره شرح ألفية ابن مالك، وشرح الأجرومية

108) ابن الناظم ابن مالك بدر الدين بن محمد النحوي (توفي 686 / 1287) له شرح الألفية وشرح لامية الأفعال وهما لوالده

109) الشافية في التصريف، تلخيص مشهور في فن الصرف لابن الحاجب

110) عبد الوهاب الزنجاني(توفي646 /1248) له تصريف الزنجاني أو العزي شرحه السيد الجرجاني

111) للخطيب القزويني(توفي791 /1388) ولد في الموصل له الإيضاح في علوم البلاغة، وتلخيص المفتاح للسكاكي

112) السمرقندية لأبي القاسم الليثي السمرقندي (توفي بعد888 /1483) من آثاره الرسالة السمرقندية في البلاغة

113) القاسم بن علي الحريري(توفي516 /1122) من مؤلفاته المقامات ، قلد فيها بديع الزمان ، وعددها خمسون كمقامات الهمذاني

رشيق[114] شرح ابن هشام[115] على قصيدة بانت سعاد[116] متن الهمزية وبشرح الجمل[117] متن البردة بشرح الشيخ ابن عاشور[118] والجامي

ومن علم السير والتاريخ: القرماني[119]

ومن علم الرسم والخط: المطالع النصرية، ابن عاشر[120] على نظم الخراز[121] اشتركت الفنون الثلاثة السابقة مع كتبها المذكورة في الإهمال والإلغاء.

ومن علم العروض: القاضي على الخزرجية، لا وجود له.

ومن علم المنطق: شرح الخبيصي[122] على التهذيب، شرح مختصر الشيخ السنوسي[123] الأول موجود بكثرة والثاني ملغى.

ومن علم آداب البحث: مولى حفني على العضدية، مسعود الروميعلى السمرقندية، القوانين لسجقلي زاده

ومن علم الحساب: المرشدة لابن الهايم[124] القلصادي[125] ومن علم الهندسة: القاضي على أشكال التأسيس.

ومن علم الهيئة: القاضي زاده على الجغميني[126] استأثر علم الخفاء بالعلوم الأربعة المذكورة آنفا وبكتبها. فمن علم القراءات: القاضي على الجزرية[127] منتشر.

---

114) أبو الحسن علي بن رشيق (توفي457 / 1064) من أدباء القيروان في العهد الصنهاجي أهم آثاره العمدة

115) محمد جمال الدين ابن هشام(توفي762 / 1360) نحوي ولغوي مشهور له معني اللبيب

116) بانت سعاد قصيدة مشهورة في مدح الرسول لكعب بن زهير (توفي 42/ 662)

117) لعله سليمان الجمل(توفي1307/1889) فقيه شافعي له فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب والفتوحات الإلهية، والهمزية قصيدة للبوصيري في مدح النبي صلى الله عليه وسلم

118) محمد الطاهر ابن عاشور(توفي 1284 / 1868) من آثاره شرح على بردة البوصيري

119) أحمد القرماني(توفي1019 / 1610) مؤرخ من دمشق له أخبار الدول وآثار الأول ويعرف بتاريخ القرماني

120) ابن عاشر الفاسي الأندلسي(توفي1040، 1630) فقيه ونحوي له منظومة فقهية على مذهب مالك عنوانها المرشد المعين على الضروري من علوم الدين طبع بالمغرب وتونس.

121) محمد الشر يشي الشهير بالخراز(توفي718 / 1308) له منظومة مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن

122) محمد بن أب بكر الخبيصي(731 / 1331) من آثاره : الموشح في شرح الكافية لابن الحاجب وغيره

123) محمد بن يوسف السنوسي(895 / 1490) من كتبه متن الرسالة في العقائد

124) أحمد شهاب الدين ابن الهائم(توفي815 /1412) حسابٌ له اللمع في الحساب والمرشدة

125)علي القلصادي (توفي بباجة 891 /1486) له مؤلفان في الرياضيات منها كشف الجلباب عن علم الحساب

126) محمود بن محمد الجغميني(618 /1221) فلكي من كتبه الملخص في علم الهيئة، ترجم إلى الألمانية

127) شمس الدين الجزري(توفي833 /1429) حجة في القراءات ، له النشر في القراءات العشر

كتب المرتبة الأخيرة

ومن علم التوحيد: صغرى الصغرى، الباجوري[128] على الجوهرة، منتشران جدا.

ومن علم المصطلح: غرامي صحيح بالشرح، يدرس قرب الامتحان السنوي.

ومن علم الفقه: متن الكنز، متن القدوري[129] الشيخ حسن الصغير[130] نظمه بشرحه، شرح أبي الحسن على الرسالة[131] ميارةالصغير على ابن عاشر ابن تركي على العشماوية[132] الثلاثة الأخيرة تزاول بكثرة، أما الأربعة قبلها فمنها الموجود، ومنها المفقود.

ومن علم الفرائض: متن الرحبية[133] للشيخ الأول، يقرأ مع الشرح، والثاني يزاول أحيانا.

ومن علم الميقات: السوسي، السراج للأخضري ،سلم السعادة، الثلاثة ملغاة.

ومن علم النحو: متن الأجرومية وبشرح الشيخ خالد، شرح القطر للمصنف، متن الألفية، شرح المقدمة لسيدي خالد، كلها تزاول ما عدا الأخير.

ومن علم الصرف: متن لامية الأفعال، متن الزنجاني، لا يدرس واحد منهما إلا مع شرحه.

ومن علم البيان: متن السمرقندية، شرح الدمنهوري[134] شرح

---

128) إبراهيم الباجوري(توفي1278 /1961) شيخ الأزهر، من كتبه التحفة الخيرية في فرائض المذاهب الأربعة

129) أحمد القدوري (توفي429 /1037) فقيه حنفي، له المختصر في الفقه

130) أبوالحسن علي بن عبد الحق المشهور بالصغيرتوفي 719 / 1319 له شرح رسالة ابن ابي زيد الآتي ذكرها

131) أبو الحسن علي بن محد الشاذلي توفي له كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني

132) أبو العباس أحمد بن تركي شارح العشماوية توفي998 / 1590 والعشماوي أكتفى مخلوف في شجرة النور بذكره فقط، ولم يترجم له.

133) هي بغية الباحث عن جملة المواريث وتعرف بالرحبية، وقد عرفنا بمؤلفها أعلاه

134) محمد الدمنهوري(توفي1288 /1871) له الإرشاد الشافي على متن الكافي لابن عباد المعروف بالحاشية الكبرى

الملوي[135] الثلاثة موجودة.

ومن علم العروض: الكافي بالدمنهوري، قد تقرأ منه دروس قليلة في بعض الأحيان.

ومن علم المنطق: متن ايساغوجي(8م) شرح الجربي عليه، الشرح البيرمي[136] عليه، متن السلم، شرح الشيخ، شرح الملوي عليه، كلها موجودة ما عدا الثالث.

ومن علم الحساب: النخبة الحسابية لا تدرس أصلا.

تلك الكتب التي أوجب القانون تدريسها، ويتبين من الملاحظات السابقة أن غالبها، ولا سيما كتب الطبقتين العليا والوسطى، ألغي ولم يعوض بغيره، فتقا صرت الهمم، وضعفت الملكات، وانحطت الدرجات، وسنبين في العدد القابل الطريقة التي ينبغي للمدرس أن يتوخاها في التعليم، ويسلك سبيلها القويم، عسى أن يقع سلوك هذه الطريقة المثلى، ويقع التنكب عن تلك الطريقة العوجاء[137]

7) المنشور الصادقي

اقتضى الفصل الثامن من المنشور أن المدرس أول ما يفتتح به درسه أن يبين مقاصد المسألة المفتتح بها، ويتدرج في شرحها قليلا قليلا، وينتقل من السهل إلى ما فوقه، إلى أن يلم بشرح المسألة، ويبين أثناء ذلك في المحل المحتاج إليه مراجع الضمائر والمعاطيف والموصوفات، وما يجري هذا المجرى مما يتعلق به شرح المعنى وإيضاح المقصود، ويضرب الأمثال بالمألوفات، ويأتي منها قلة وكثرة على حسب الحاجة، وإن كانت المسألة ذات شعب يضبطها بجهة واحدة، ويسعى في إرجاعها إلى أقسام منضبطة، وهكذا إذا

135) أحمد بن عبد الفتاح الملوي توفي 1181 / 1767 له شرح السمرقندية في البلاغة، وحاشية على شرح القيرواني على متن السنوسية أم البراهين في التوحيد، وحاشية على شرح إيسلغةجي في المنطق 8م) كتاب للفيلسوف اليوناني بورفيريوس تلميذ أفلوطين ، وإيساغوجي (المدخل باليونانية) كتاب في المنطق معروف ياسم المقولات الخمس.

136) بيرم الثالث (توفي 1259 /1843) ط الشرح المذكور أعلاه بتونس ومصر

137) ع 945 بتاريخ 2 جويلية 1907

انتقل إلى مسألة أخرى.

هذا إذا كان يقري مجرد المتن، فإن أقرأ بالشرح، فبعد الإلمام بمسألة المتن يبين ما تعلق بالشرح على النمط السابق، ثم ما يتعلق به من الحاشية كذلك، إن كان الدرس مما تسوغ فيه الحاشية، ولا ينتقل من مسألة إلى أخرى إلا بعد تيقن حصول التلامذة على فهمها، بحيث يقدر المدرس أن التلميذ لو سئل بعد الفراغ من الدرس عن أي مسألة مما قرأه لأجاب عن فهم وبصارة، ويتقي المدرس الإجمال والإسراع المجحفين بكمال التلقي، والمخلين بالتحصيل.

واقتضى الفصل التاسع منه أن المدرس إذا تصدى لإقراء كتاب، فأما أن يكون من الوسائل والمقاصد، فأما كتب المرتبة الأخيرة من المقاصد أو الوسائل وكتب المرتبة المتوسطة من الوسائل فلا يزيد فيها على شرح مرادات الكتاب وبيان مسائله، ولا يضيف إلى ذلك شيئا من كتاب آخر، ولو حاشية كتابه، إلا تخصيص عام، أو تقييد مطلق أو إيضاح مجمل، أو تفسير مبهم، أو التنبيه على ضعف قول، أو غير ذلك مما يدور على إيضاح المسألة، والإسفار عن الوجه المطلوب في تفهيمها.

أما كتب المرتبة العالية من المقاصد والوسائل، وكتب المرتبة المتوسطة من المقاصد فيتوسع فيها بقدر ما تدعو إليه الحاجة، ويحسن إلقاؤه، ويتجنب التفريط والإفراط، لكن لا تبلغ في التوسع مرتبة المقاصد.

هذا ما سنه القانون للمدرسين في التعليم، وأوجب عليهم سلوك منهجه القويم، وهو عين ما صرح به الفارابي وابن رشد والغزالي وابن الحاج العبدري وابن خلدون وأمثال هؤلاء الفحول الذين طرزنا جيد هذا الموضوع بكلامهم، وطلبنا من كافة الأساتذة النهج على منوالهم.

لكن غالبهم أضاعوا تلك الطريقة وتنكبوا عن سبيل الحقيقة، فإن من جملة ما اقتضاه كلام صاحب القانون، وكلام أولئك الأئمة الجهابذة، أن المعلم يلقي للتلميذ في أول دور من أدواره التعليمية

مسائل المتن البسيطة، ثم يترقى معه شيئا فشيئا إلى أن يرى فيه استعدادا لمسائل الشرح، فيتوسع معه حينئذ، ويمليها عليه، حتى تتسع دائرة فكرته، وتقوى عارضته، ويصير من أهل الفهم والأفهام.

فالمعلم بمثابة الطبيب الحاذق الذي يعطي الدواء الناجع المناسب للداء والجسد.

وأين هذا مما عليه ذلك السواد الأعظم من المعلمين اليوم، فإننا ما سمعنا ولا رأينا أن بعضهم أقرأ المتن مجردا، بل أن أحدهم إذا أراد الشروع في إقراء "كتاب الأجرومية الذي هو أصغر تأليف في علم النحو يتعرض لذكر الأسرار التي اشتملت عليها البسملة، وبيان سر الابتداء بالفاتحة، وأمثال هذه المباحث التي ألمعنا إليها في طالعة هذا المقال، ثم ينتقل لشرح خطبة الأزهري، والإسفار عن معانيها الخافية، والكشف عما اشتملت عليه من المحسنات البديعية الزاهية، ثم يتخلص لبيان وجه ابتداء المصنف بالكلام، وتقديمه على الاسم والفعل والحرف، ثم لذكر الغرض الداعي إلى عدم التبويب له، ثم لإيضاح معنى الكلام عند أهل اللغة والنحو والكلام والفقه، وبيان النسب بين هذه المعاني، ثم ينقل الاحتمالات التي ذكرها أبو النجا في "ال" الداخلة على الكلام هل هي عوض عن المضاف إليه؟ أو لتعريف العهد؟ وعلى الأول فهل المضاف إليه اسم ظاهر أو مضمر؟ وعلى العهد فهل هو ذهني أو ذكري أو كيف الحال ؟

ثم يبين متعلق الجار والمجرور: أعني قول الأزهري " في اصطلاح النحويين" فيقول قال الشيخ أبو النجا: هو متعلق بمحذوف حال من الكلام، ولا يقال حينئذ إنه حال من الابتداء، ومجيء الحال منه ممنوع على الصحيح، لأنا نقول: إنه ليس حالا في الواقع من المبتدأ، لأن قوله: الكلام على حذف مضاف تقديره تفسير الكلام، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، فارتفع ارتفاعه، فهو حال من المضاف إليه، ومجيء الحال من المضاف إليه صحيح مع المسوغ، ومن المسوغ عمل المضاف في المضاف إليه، كما هنا، فإن تفسير مصدر

فهو على حد "إلى الله مرجعكم"[138]

فيفني في تقرير ما يتعلق بلفظة الكلام اليوم واليومين، ثم ينتقل لبيان معنى اللفظ لغة واصطلاحا، ثم لتعريف الصوت عند أهل السنة والفلاسفة، وتقسيمه إلى ساذج وغيره، ثم لبيان حقيقة المركب لغة واصطلاحا، ثم يذكر أقسامه من إضافي ومزجي وتقييدي وإسنادي متوقف على غيره أو مجعول علما ثم يبين معنى المفيد لغة واصطلاحا، ويذكر الخلاف الواقع بين النحويين في أن الذي يحسن سكوته هل هو المتكلم أو السامع، أو هما معا، ثم ينتقل لشرح معنى الوضع، وذكر أن الشارح ذكر أن هذا الخلاف له التفات إلى الخلاف في أن دلالة الكلام هل هي وضعية أو عقلية، وقال: إن الأصح الثاني، ثم ينقل انتقاد أبي النجا عليه، فيقول: قال المحشي قوله، والأصح الثاني، هذا خلاف المختار، والمختار موضوع الوضع النوعي، فدلالته وضعية، ثم يبين ما يخرج على كل التفسيرين للوضع.

فيفني في تقرير مبحث الكلام الأسبوع والأسبوعين، ولا يختم الكتاب إلا بعد عامين، كل ذلك والتلامذة منصتون لا يفهمون معنى، ولا يفقهون للأستاذ مغنى.

اكتب هذا والصدق رائدي والواقع دليلي، ومن خامره ريب في ذلك فما عليه إلا أن يحل بالجامع، ويحضر دروس الأجرومية، فيشاهد ما أمليناه، وعلى مسامع السادة المشائخ النظار عرضناه، ولا شك أنه يصفنا حينئذ بالتقصير في وصف الحالة، حيث حذفنا أمورا شتى، لم يساعدنا القلم على تحبيرها.

ولا أقول إن هذا أسلوب كافة المدرسين أو شنشنة عامة المتطوعين فإن فيهم النحارير الذين يقدرون الأمور حق قدرها، ويضعون الأشياء في محالها، ولكنهم لسوء البخت قليلون، ومن غريب ما يؤثر هنا أمران:

138) المائدة:48 و105

الأول أن أحد المدرسين كان ابتدأ في إقراء كتاب القطر لابن هشام الذي هو من أصغر كتب النحو، ومكث في تدريسه ما يقرب من عشرة أعوام، لم يختمه في أثنائها حيث كان الشيخ يرى أن مما لاينكر "الشيء بالشيء يذكر" فطلب منه التلامذة الاكتفاء بما حصل من هذا الكتاب، وتعويضه بشرح القطر للدر دير على المختصر الخليلي فأجاب مطلبهم ولبى دعوتهم، وابتدأ شرح الدر دير من أوله، وتمادى على مزاولته أربع سنوات بلغ في أثنائها مبحث النجاسة.

الأمر الثاني ما أخبرنا به أحد الثقات من أهل العلم، وهو أنه دخل في هذه الأيام جامع الزيتونة على الساعة التاسعة صباحا، فألفى مدرسا يقرئ وأمامه تلميذان، فسأل بعض من في الجامع عن موضوع هذا الدرس، فأخبره بأن الشيخ ابتدأ إقراء شرح الدمنهوري على السلم المنورق الذي هو من صغار كتب علم المنطق، فتاقت نفسه للدنو من الدرس والاطلاع على الطريقة التي يسلكها الأستاذ في تعليمه، فجلس بالقرب منه، والقى إليه سمعه.

فكان أول ما سمعه من الشيخ قوله " نقتصر في الكلام على البسملة على إشكال أورده الشيخ عيسى الصفوي شيخ العبادي[139] رحمهما الله على تقدير المتعلق خاصا مناسبا لما جعلت التسمية مبدأ له، كما ذهب إليه الزمخشري ومن وافقه، وحاصله أن جملة البسملة لا بد أن تكون خبرية أو إنشائية، ضرورة انحصار الكلام في الخبر أو الإنشاء، فإن كانت خبرية توجه عليه أن من لازم الخبر الصادق أن يتحقق مدلوله في نفس الأمر بدونه، ويكون هو حكاية عنه، كما صرح بذلك العلامة التفتزاني وغيره، وجملة البسملة ليست بهذه الصفة، لأن من تتمة مدلولها مصاحبة الاسم والاستعانة به، ولا يقع ذلك إلا بالتلفظ به، وإن كانت إنشائية توجه عليه أن من لازم الإنشاء أن يقارن وجوده حصول مدلوله، وهذه الجملة ليست كذلك، لأن مدلولها وهو

139) لعله رضي الدين المصري العبادي (توفي800/1397) له مؤلفات في التفسير والفقه

حصول التأليف مصحوبا بالاسم الشريف لا يقع بمجرد النطق بها، نحو الأكل والسفر والذبح مما ليس بقول، لا يحصل بالبسملة، فكيف يقدر مثلا اذبح أو أسافر باسم الله بقصد الإنشاء، وإنما أورد الإشكال على تقدير المتعلق خاصا، لأنه لا إشكال في الإنشائية على تقديره، عاما لحصول الابتداء بالبسملة، بمجرد النطق بها.

ثم ذكر أن الشيخ أبا حفص الفاسي أجاب عن هذا الاعتراض بجواب طويل الذيل، لم يحرم تلميذيه منه، وبقي يقرر فيه لهما نحو الساعة، وانتهى الدرس فقضى مخبرنا الفاضل من هذا الصنيع أقصى العجب، ورجع من الغد للدرس نفسه، فوجد الشيخ يتصبب عرقا من شدة التعب الذي لحقه من بيان معنى الحمد والشكر لغة وعرفا لتلميذيه، وتفهيمهما النسبة بين معانيهما نظما ونثرا، وبانتهاء هذا البحث انتهى الدرس.

فقام المخبر الصادق مأسوفا مما رآه، وسأل أحد التلميذين عن أن يبين له ما فهمه من درس أستاذه، فلم يفه له أولا ببنت شفة، ثم قال: إني لم أفهم شيئا حيث كنت مبتدئا في الفن، ولم تسبق لي مزاولة لهذا الكتاب سابقا.

فأين هذا من صريح القانون ومن قولهم: خاطبوا الناس بما يفهمون ؟[140]

8) المنشور الصادقي

قايسنا في العدد الفارط بين الحالة القانونية، وبين الحالة الموجودة الآن، وأوضحنا الفرق بينهما، وظهر منه ظهور الشمس في رابعة النهار أن بينهما بونا بعيدا وشوطا مديدا، والآن أردنا أن نزيد هذا الموضوع بسطة بنقل بقية فصول المنشور، والكشف عن رموز مخبياتها، والزيادة نوعا ما في تشخيص الحالة الراهنة، وبيان

---

140) ع 946 بتاريخ 9 جويلية 1907

مضراتها، حتى تنجلي وجوه الفساد، وتتبين سبل الرشاد.

اقتضى الفصل العاشر أن المدرس عليه أن يختبر، حال الإقراء، تلامذته في الفهم، فمن وجده لم يفهم بين له، وعليه أن يمرنهم على تطبيق القواعد على أمثلتها وجزئياتها، وعلى سرد الكتاب، ويزيد في صغار الكتب النحوية مطلقا، ومتوسطها، إن اقتضى الحال، التمرين على الإعراب، كما يختبر حال من استعد للدرس بالنظر ممن لم يستعد، ويحرك عزيمة من تغافل عن النظر بالإقبال على من لم يتغافل، وبنوع من إيثاره، وغير من وجوه الملاطفات الباعثة على تحريك العزائم أو دوامها، ويتنزل من أبنائه الروحية منزلة والد شفيق في بذل النصح التام.

فقد أمر صاحب القانون المعلم بالنظر في كيفية تلقين العلوم وإفادته إياها على التدريج شيئا فشيئا، وقليلا قليلا، بأن يلقي عليه أولا مسائل قليلة من كل باب من أبواب الفن الذي يقرئه إياه، ويقتصر له على أصول الباب، وأمهات قواعده لا يتجاوزها إلى غيرها، ويبالغ له في شرحها له شرحا مجملا، ويقربها لفكره مراعيا في ذلك قوة فكر الطالب، ومقدار عقله واستعداده، فلا يلقي عليه ما يرى أن في ملكته قصورا عنه.

فإذا كان المعلم يعلم الجم الغفير من الطلاب فيلاحظ أضعف الطلبة فكرا وأقلهم استعدادا، فإنه إن تجاوز ذلك القدر أضر به، وليس في ملاحظة حال الضعيف إيذاء بذي الملكة التامة، والفطنة المتقدمة. وليكثر، عند ذكر كل قاعدة من القواعد، من ذكر الشواهد والأمثلة، لأن من الطلاب من لا يفهم القاعدة إلا إذا سمع لها أمثلة متعددة، وليبين له عند كل مثال يذكره له كيفية دخول هذا المثال تحت القاعدة.

ثم يتعهده بعد ذلك بسؤاله عن تلك القواعد وأحكامها، ويكلفه أن يذكر لها من الأمثلة ما يناسبها، ويبين وجه دخول المثال تحت القاعدة.

فإذا انتهى بالطالب إلى آخر الفن تكون قد حصلت له ملكة فيه، إلا أنها جزئية وضعيفة، وتهيئ لفهم الفن، وتحصيل مسائله، فحينئذ يرجع به إلى الفن مرة ثانية، فيرفعه في التلقين عن الرتبة الأولى إلى رتبة أعلى، ويستوفي له الشرح والبيان، ولا يقتصر على الإجمال، كما فعل أول مرة، وإن كان هناك خلاف يرجع إلى طائل، وله دخل في الفن، وأثر بين في العمل به، كالاختلافات التي تقع في كتب الفقهاء، ذكره له، مع بيان وجه الخلاف وأدلة المخالفين، أما ما كان من الاختلافات العقيمة كاختلاف النحويين في واو أبوك هل هي لام الكلمة أو حرف الإعراب ؟ وهل حركة إعراب المقصور مقدرة في ذنب الألف أو في رأسه أو في جوفه ؟ وهل رافع المضارع التجرد أو أحرف المضارعة؟ أو مضارعته للاسم أو حلوله محله؟ وهل أصل المرفوعات المبتدأ أو الفاعل أو كل منها أصل باستقلاله ؟ وهل المبتدأ مرفوع بالابتداء والخبر بالابتداء أو كل منهما رافع للآخر ؟ أو الابتداء رافع لهما معا؟ أو الابتداء رفع المبتدأ، وهما رفعا الخبر، وأمثال هذه الخلافات، فمثل هذه لا ينبغي أن تلقى إلى الطالب، ولا أن يمكن من النظر فيها، فإنها مشوشة لفكره، قاطعة له عن تحصيل ما هو بصدد تحصيله.

وعلى المعلم في هذه المرة أن يكلف الطالب بتطبيق العلم على العمل، فإذا كان يقرئه النحو مثلا كلفه أن يقرأ أمامه جملا من كتابه، مراعيا فيما يقرؤه وجوه الأعاريب، فما أخطا فيه رده إلى الصواب، وبين له وجه خطئه، وما وافق فيه الصواب أقره عليه، وسأله عن وجه استحقاقه لما أعطاه من الإعراب، وأنكر بعضه ونازعه فيه وشككه، ليتعود بالجزم على ما يعلم، ويدفع عنه رعونة الجهل، ويستقر على الصواب فيما علم وترسخ فيه قدمه، ويصير ذلك الحال ملكة عنده.

فإذا انتهى به إلى آخر الفن مرة ثانية على الطريقة التي شرحناها آنفا عاد به إلى الفن مرة ثالثة، وقد قويت فيه ملكته، واشتد ساعده، وأحاط بكل قواعده إجمالا وتفصيلا، فلا يترك عويصا ولا مهما ولا

مغلقا إلا وضحه، وفتح مقفلة، وقرب بعيده.

وليجتهد المعلم المرشد هذه المرة في تمرين الطالب على إلقاء العبارات وتعليمها وتفهيمها غيره، ويكون ذلك بتكليفه بين يديه بعبارة يقرؤها ويفسر معناها، ويوضح مشكلها على رفقائه ويمده ببعض ما عسى أن يغرب عنه من المعاني، ويذكره بما يغيب من حفظه من الألفاظ، ولا يبالغ في توبيخه على غلط يقع منه، فربما كان ذلك قاطعا له، عما هو بصدد استفادته.

وليتلطف في إرجاعه إلى الصواب، فإن كان له جمع من الطلاب يقرؤون عليه جعل بينهم ذلك على الترتيب، فإن رأى في أحدهم مزيد فطنة وفضل تنبه لما يلقيه إليه من الإرشادات بالغ في مدحه وإطرائه، على مسمع من الطلاب، فإن ذلك يبعث همم البطيئين المتغافلين إلى التيقظ والانتباه، فإذا انتهى من الفن المرة الثالثة على الطريقة التي أسلفناها، كان قد استولى على الفن من أطرافه، وجمع إليه كل ما يحتاج له، وقويت ملكته فيه، وانطلق لسانه بالنطق، فصار يمكنه أن يعلمه غيره، كما تعلمه، ويؤمن عليه إذا جلس للتعليم أن لا يخلط ويشوش ويضيع على الناس ساعات عمرهم فيما يضر ولا ينفع.

فهذا وجه التعليم المفيد الذي أسفر عنه القانون، واجتباه الشيخ محمد بدر الدين، صاحب " التعليم والإرشاد" وأوجب صاحب القانون المحافظة عليه، والاستناد إليه، وقد أكد تمام رعايته بالفصل الحادي عشر حيث ذكر فيه " أن المدرس عليه أن يراعي حال المخاطبين في القبول والاستعداد، فيلقي إليهم على حسب ما يقتضيه حالهم، وما يليق بفهمهم من التعبير"

لكن هذا كله ذهب أدراج الرياح، واعتبر نداء محرر القانون كالصراخ في الواد والنفخ في الرماد، وخولف أمره وتدبيره، وألغي نهيه وتحذيره، فصارت الحالة كما هي مشاهدة الآن.

ولكنا لا نزال نرجو ونأمل أن ينتبه رؤساؤنا لما في سلوك هذه الطريقة من المضار، وصرف غالب الأوقات في غير طائل، فينصرفوا

بنا إلى الطريقة النافعة، وأن تلين شكيمة أهل العصبية، فيحملوا نفوسهم على الاعتراف بالحق والعمل به، وللباطل دولة ثم يضمحل، والحق حي، وإن دفن، ولن يعدم حق له أنصار به مطالبون[141]

9) المنشور الصادقي

اقتضى الفصل الثاني عشر أن المدرس عليه أن يراعي في الفنون نتائجها، والمقاصد منها، فيكثر مما يعينه عليها، كالبرهان في مهمات كتب العقائد، والإعراب في علم النحو، ولطائف التراكيب في فهم البيان.

فأشار صاحب القانون بهذا الفصل إلى أن ثمرة كل علم العمل به، واستخدامه فيما وضع لأجله، لا لمجرد معرفة عباراته الاصطلاحية، واستحضار قواعده الكلية، وحفظ مسائله الجزئية:

فعلم العقائد يزاوله الإنسان لإرشاد المسترشدين، ورد شبه الماردين المارقين، وتوهين ضلالات المفسدين.

وعلم النحو يقرؤه ليتمكن بمراعاة قواعده من النطق بالكلمات على الأسلوب العربي الفصيح، وحفظ لسانه عن الخطأ فيها، ويتسنى له فهم معاني كلام الله عز وجل، والاطلاع على أسرار تنزيله، وفهم الأحاديث النبوية والتراكيب العربية.

وعلم البيان يدرسه لتربية ملكة يقتدر بها على إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، في الوضوح والخفاء، والتوصل به إلى فهم معاني كلام العرب: من شعر منظوم، وكلام منثور، والوقوف على محاسن الكلام، ومعرفة كون القرآن الكريم معجزا، ودرجة ارتفاعه في الفصاحة والبلاغة على سائر كلام العرب الذين أنزل بلغتهم، وتحدوا بأقصر سورة منه، فعجزوا، وانتقلوا من المعارضة باللسان إلى المقارعة بالسنان، ومن المكالمة باللهاذم إلى الملاكمة باللهازم.

---

141) ع 947 بتاريخ 16 جويلية 1907

فالطالب لا ينتفع بتلك الفنون، ولا يجني زهرة منها يتمتع بلذتها إلا إذا حصل على فائدتها، وقطف يانع ثمرنها، وذلك لا يكون إلا بالإكثار من التمرينات، وسوق الشواهد والمثالات.

أما الاقتصار على حفظ القواعد فلا يجدي نفعا، ولا يحسن صنعا، بل لا ينال من ورائه إلا مقاساة آلام حملها، وتجرع مرارة ثقلها، ولهذا قال صاحب المثل السائر[142]: " واعلم أيها الناظر في كتابي أن مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب ، وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذا ، وإذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل لك هذا ، فإن الدربة والإدمان أجدى عليك نفعا وأهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ، ويجعلان عسرك من القول إمكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا ، فخذ هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بإدمانك ما أخطاك ، وما مثلي فيما مهدته لك من هذه الطريق إلا كمن طبع سيفا، ووضعه في يمينك لتقاتل به، وليس عليه أن يخلق لك قلبا، فإن حمل النصال غير مباشرة القتال "

وإنما يبلغ الإنسان غَايَتَهَ　　　ما كل ماشية بالرِّجْلِ شمَلْاَلَ

هذا كلامه، وهو عين ما تضمنه القانون من الأمر، بإقامة البرهان في العقائد والإكثار من الإعراب في النحو، ولطائف التراكيب في فن البيان، وقد أهمل هذا الأصل إهمالا كليا، واعتبر نسيا منسيا ، فترك الأساتذة تلك التمارين، وربما ظن بعضهم أنها من العبث المبين، ووكلوا الطالب إلى ما أتيح له من المواهب، ولا تجد عندهم ذرة من الإحساس بما ناله في حلقاتهم.

فيقرأ شرح سعد الدين التفتزاني، على تلخيص الخطيب القزويني الذي لخصه من كتاب الإيضاح، الذي لخصه من القسم الثالث من مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي، مع إضافة ، حاشية الشيخ الدسوقي عليه، المنحوتة من حواشي الإمام عبد

142) نصر الدين بن محمد ابن الأثير(637 / 1239) من الكتاب المترسلين ومن كتبه المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

الحكيم السيالكوتي[143] على المطول، والسيد السند عليه، وبعض حواشي أخر على المختصر.

فيمضي الطالب في حضور هذا الكتاب أكثر من ست سنوات، وإنما يحضره بعد أن يكون قد أمضى في الجامع أربعة أعوام على الأقل، وربما كان قد قرأ في موضوعه "الجوهر المكنون" بحاشية مخلوف في سنتين أو ثلاث، وربما قرأ بعده أوائل شرح المطول، في أربع أو خمس سنين، ثم لا يحصل من وراء ذلك شيئا من فوائد هذا الفن، ولو كلف أن يتكلم على آية أو بيت شعر، ويبين ما فيهما من البلاغة، لم يأت بشيء يسمع، ولو سئل تحرير رسالة، لم يستطع، بل ربما كان بعض الشيوخ الذين قرؤوا هذه الكتب على أساتذتهم، ثم أقرؤوها تلامذتهم، واشتغلوا بهذا العلم كذا كذا سنة لا يستطيعون شيئا من ذلك.

لا أظن أحد يشك لحظة في أن هذا الطالب المسكين ينكسف باله ويتغير حاله، ويرى نفسه أنه قادم على" بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض"[144] إذ مرت على سمعه كلمات لم يفقه لها معنى، فيرى ولابد أن ما هو آت شبيه بما فات، فتضعف همته، وتهوي عزيمته.

أما وربك لو رأى سلفنا ملوك اللسان وأساطين البلاغة ما صرنا إليه لكسروا أقلامهم، وجففوا محابرهم، ولم يخطوا ما كتبوا حرفا.

فمن ضرورات التدريس حينئذ تمرين الطلاب على استعمال الفنون التي أقبلوا على دراستها، والاستفادة منها، فإن أقرأ الأستاذ نحوا مرن تلاميذه على القراءة والكتابة من غير لحن، وإن أقرأ البيان مرنهم على اختيار أجود الأساليب وأحسنها، حتى إذا كتبوا استلبوا العقول ببلاغتهم، وأثروا فيها التأثير الذي نرى أن لا قوام للدين إلا به، وإن

---

143) عبد الحكيم بن شمس الدين الهندى السيالكوتي(1067 /1656) له شروح وحواش على المطولفي البلاغة

144) النور:40

أقرأ الأصول مرنهم على استخراج الأحكام من مظانها، مراعين القواعد العامة التي فهموها، وإن أقرأ المنطق مرنهم على الاستنتاج من الأقيسة الصحيحة، وهكذا.

فتكون الغاية مضمونة للطالب، ويكون النجاح رائده والفوز دليله، فهل نرى من ذلك في الجامع شيئا ؟ لا وربك لا هم لغالب الشيوخ إلا الإلقاء، لا يعنيهم تمرن الطلاب أم لم يتمرنوا، جنوا أثمار أتعابهم أم خابوا، ولذا قد نرى الطالب يختم الألفية، ولا يحسن أن يكتب سطرا واحدا بفصاحة وانسجام.

ومن أغرب ما يسطر، أن لسان الشيخ في الدروس النهائية لسان العامة، فتراه لا يلتفت إلى مراعاة القواعد التي يقررها فيما يقول، وهذا من الفساد بالمكان الأقعس، والمقام التعس.

لطريقة التعليم في المدارس النظامية، وعند الأمم الحية شأن عظيم، ولهم بها اهتمام، وأي اهتمام، فألفوا فيها الكتب الضخمة، وتراهم دائبين كل وقت على ما يرقيها، وكلما رأوا حديثا عنها حسنا استمعوه واتبعوه، فنضجت ثمارهم في قليل من الزمن، ونرى شبانهم قبل أن تطر شواربهم قد ملئوا علما، واستعانوا بما عندهم من العلم على الانتفاع بما أودعه الله سبحانه من الأسرار العظام في أرضه، ونحن وراءهم قد خالفنا هذا المبدأ فصرنا نقرأ العلوم العقلية للتعبد بعبارات مؤلفيها والتماس البركة من مصنفيها.

فاللهم وفقنا لأن نطلب الخير حيث كان، ووفق أئمة ديننا وهداتنا إلى اتباع خير الطرق في إرشاد قومهم[145]

10) الخطابة والكتابة

لقد اتضح مما قررناه آنفا أن عدم الاشتغال بتمرين التلامذة على تطبيق العمل على العلم الذي هم بصدد مزاولته كان السبب الوحيد في الحرمان من التمتع باجتناء ثماره واقتطاف أزهاره، ولذلك ضعفت

145) ع 948 بتاريخ 23 جويلية 1907

ملكة الإنشاء، وقل من يحسن أن يزوج بين جملتين أو يقارن بين لفظتين، ولما كان كتاب كل أمة وخطباؤها هم القابضين على صولجانها، والماسكين لها من عنانها، وكنا في عصر امتدت فيه الأبصار لنشر الأفكار، حبا في انتشار العلوم والأخبار، وصارت المواضيع الإنشائية تباع وتشترى، كما هو ديدن أوروبا أردنا أن نطرز جيد هذا العدد بنبذة في موضوع الحطابة والكتابة، والزيادة في التلميح إلى شيء ما مما نحن عليه الآن، عسى أن تنبجس روح الحمية في أجساد علمائنا، فلا يمضي حين من الدهر حتى تفتح أبواب المواضيع العلمية والعمرانية، وتكتب المقالات، وتنشر المؤلفات، وتتناوح الأفكار، وتتبادل الآراء، فتحصل النتيجة المقصودة والضالة المنشودة.

قال الله سبحانه لنبيه:" ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن"[146] وهذا، وإن كان خطابا للسيد العربي صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه بإجماع المجتهدين عام لكل من تسمى بالنيابة عنه في تبليغ شريعته، والدعوة إليها، وهم العلماء هداة الآمة، ومصابيح الظلام، ولا يقدر على الدعوة إلى دين إلا من عرف سره من منابعه أولا، ثم راض لسانه وقلمه على النطق والكتابة ثانيا.

فأما الأول فقد بينا بعض ما عندنا منه، وشرحنا ما أصيب به منبع الدين من الإهمال، حتى انسدت مسالكه.

واما الثاني فحالنا فيه ما نعرفه من أنفسنا، ولا ننكره، فإذا أمر واحد منا بمعروف أو نهي عن منكر صخب وآذى المسلمين والمسترشدين بألفاظ جعلها درعا يتقى بها، وتلك الألفاظ لا تخرج عن زنديق وكافر ومبتدع استبدلوها بالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، كما أمر الله، ومن بلغ شرعه عليه الصلاة والسلام.

---

146) النحل:125

أعلن بعض الحمقاء بملء فيه على الملأ من سامعيه أن تأخرنا سببه الإسلام، وما نحن فيه سببه القرآن، فهل منا من أدركته الغيرة، وحركته الحمية حتى يقول كلمة يبين بها للناس خطأ هؤلاء المغترين، ويتلو عليهم من كتاب الله ما يرشدهم إلى ما فيه من الأسرار؟

يقوم كل يوم بيننا دعاة إلى آراء في الدين والعلم، فيها الحق والباطل والغث والسمين، فهل منا من رفع عقيرته يوما ببيان وجه الحق فيما اختلف فيه الناس؟

وذلك لأن الأمة تنتظر من أحد منهم الكلمة يثلج بها فؤاده، فتثوب إلى الصواب، إذا هي سمعت صوتا من جامع الزيتونة المعمور معهد العلم والعلماء.

هذا شأننا، في منطقنا سكوت، فإذا تحولنا فإلى صخب، وما هكذا كان السلف من المرشدين، حالنا في الكتابة أشنع، لا نكتب للناس حقا ولا باطلا، وأرباب الأقلام والمحابر منا لا هم لهم إلا أن يكتبوا ″ قوله كذا ″ فيه نظر، ثم تحلل هذه العبارة تحليلا كيمياويا، ثم يتهافت بعضهم على تقريظ كتب لم يقرأ منها حرفا، إذا تقدم إليه كاتبها بخضوع، وقبل يده، ثم زين له ما في الكتاب ببعض ألفاظ، وربما يجد القارئ في ضمن هذه التقاريظ عجبا من سخيف الاستعارات، وركيك الإشارات، ومضحك الكلمات، وهو يظن ذلك من آياته البينات، وتراه يغلو في ألفاظ المدح حتى يخيل إليك أن الكتاب ثالث أصلي الدين[147] وإذا نبغ واحد منا، واطلع على شيء فيما يدور بين الأمة من المسائل المختلف فيها، ثم أراد أن يكتب حلى جيد كتابته بما يظنه برهانا على أنه محق من ألفاظ لا تليق بالعلماء الأعلام.

ذلك لأننا لم نعر جانب الصناعتين ″ الخطابة والكتابة″ أدنى لفتة في دراستنا، فكأننا إنما نقرأ ما عندنا من العلوم الآلية لذاتها، لا لنفوز بشيء من آثارها.

147) أي بعد القرآن والحديث النبوي

لم نعرف من القرآن الكريم طرق الإقناع التي أرشد إليها نبينا صلى الله عليه وسلم، فاكتفينا من القرآن بحفظ ألفاظه، ومن صحيح البخاري بأن قراءته تمنع الحرق والغرق، وتنصر الجيوش التي لم تعد لأعدائها ما استطاعت من قوة، وتدفع عنا هذه الأسواء التي أحاطت بنا إحاطة السوار بالمعصم.

فيا ليت علماءنا يتبصرون، ويفكرون أننا في حاجة شديدة إلى تعليم الصناعتين بين جدران الجامع الأعظم، لنؤدي ما طلب منا، وقد كتب فيهما السلف من الكتب ما لو قرئ على وجهه لأفادنا فائدة عظمى، فعندنا كامل أبي العباس المبرد(148) وبيان الجاحظ(149) والعقد الفريد(150) وأمالي أبي علي القالي(151) ورسائل الصابي(152) وابن العميد(153) والصاحب ابن عباد(154) وعبد الله بن المقفع(155) والحسن ابن سهل(156) وأحمد بن مسعده(157) ورسائل البيساني والعماد الأصفهاني(158) ونظائرها من الكتب التي تكون للطالب ملكة الكتابة والخطابة، ثم ندرس خطب النبي صلى الله عليه وسلم، وشيئا من خطب أصحابه، أئمة البيان وفرسان البلاغة، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم خطب الخلفاء بعدهم، ونسبر غور الطرق التي عرفها السلف في إقناع مخالفيهم، حتى رجعوا إلى الصواب في اعتقادهم وأعمالهم، ونتطلع إلى هذه الأمة

---

148)أبو العباس محمد المبرد(توفي 285 / 898) ممثل مذهب البصرة في النحو، من مؤلفاته الكامل جمع منتخبات شعرية ونثرية، وفسر ما جاء غيها من غريب

149) أبو عثمان الجاحظ (255 / 868) من رواد الأدب العباسي له كتاب الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء

150) ابن عبد ربه(توفي329 / 940) من أدباء الأندلس، اشتهر بكتابه العقد الفريد

151) أبو علي القالي(توفي357 / 967) مشرقي رحل إلى الأندلس وتوفي بها من كتبه الأمالي

152) إبراهيم الصابي(توفي384 / 994) أديب من كتاب ديوان الإنشاء في دولة بني بويه، اشتهر برسائله

153) علي بن العميد(توفي387 / 997) لقب بذي الكفايتين السيف والقلم، وزير ركن الدولة ومؤيد الدولة

154) إسماعيل بن عباد(توفي 385 / 995) وزير مشهور لمؤيد الدولة بن بويه له كتاب الرسائل وغيره

155) عبد الله بن المقفع (توفي142 / 759) نقل من الفهلوية إلى العربية كتاب كليلة ودمنة، وله كذلك الأدب الكبير والأدب الصغير

156) الحسن بن سهل(توفي236 / 850) حكم الجزيرة والعراق، رعى الشعراء والأدباء

157)أحمد بن مسعدة(توفي 66/ 685) قائد أموي، أصبح قائدا لجند دمشق بعد معركة الحرة

158) العماد الأصفهاني وهو محمد بن أحند توفي 597 / 1201

الحائرة البائسة التي صار بأسها بينها شديدا، لتكون لنا في اختلافها وحيرتها كلمة تؤلف بين تلك القلوب الشتيتة والأهواء المختلفة.

إنا إذا فعلنا ذلك حفظنا لنا بين الأمة مركزا عظيما، وأرضينا الله والدين والسيد الأمين، فأما إذا رضينا لأنفسنا ما نحن فيه، ونسينا ذلك الواجب، فيوشك أن الأمة تلوي عنا أعناقها، وتعتبر وجودنا عدما، وهذا شيء ظهرت أمارته، ولتعلمن نباه بعد حين[159]

11) الصناعة الشعرية

قلنا سابقا إن شنشنة السادة المدرسين إلقاء المسائل العلمية على تلامذتهم، مجردة من ضرب الأمثال وسوق الشواهد، أو تكليفهم بتحرير أمور تناسب موضوع الدرس، يتمرنون بها على تربية ملكة في الكتابة، وتقوية العارضة في الأثناء، ولهذا لم ينالوا إلا كلل الفكر من حفظ الألفاظ، وتحمل أثقال استحضار معانيها، وحرموا من لذة العمل بها، واستخدامها فيما خلقت لأجله، فضعفت فينا صناعة النثر والنظم، وصار حظنا من اللغة العربية، لغة ديننا وقومنا، كمثل حظ الأعجمي الدخيل منها.

أما حالنا في الصناعة النثرية الشاملة للخطابة والكتابة فقد أعربنا عنه في عددين(؟) فارطين، وأما حالنا في الصناعة الشعرية فأردنا الإلماع إليه اليوم بعبارات وجيزة، راجين من كبراء علمائنا الاعتناء بلغتهم الفصحى، وإحياء ما اندرس منها، حيث إن اللغة عنوان حياة الأمة، والعكس بالعكس.

لا ينكر أحد ما كان لقدماء التونسيين من الاقتدار على الصناعة الشعرية، وصوغ المعاني الرائقة، وسبك الحكم الفائقة، وخوض بحور الآداب الخضمة، واستخراج نفائس جواهرها المهمة، ونفقت إذ ذاك أسواق الأدب وراجت، فأخذت زخرفها وازدانت، وبقدر ما كان

---

159) ع 948 بتاريخ 23 جويلية 1907

لها من النفاق والرواج في هاتيك الأعصر الماضية كان لها من الكساد والبوار في هذه الأعصر الأخيرة، ومن أجل ذلك استبدلت تلك الحلل الفخارية بأطمار خلقة بالية، وصار الإقليم في هذا الزمن بلقعا من روائق الأشعار والمستملحات، ومستحسن المخاطبات والمستظرفات، خاليا من النوادر الغريبة، والنكات العجيبة، والحكايات البارعة والحكم النافعة، فانحططنا من النجد إلى الغور، والى الحور بعد الكور.

أخبرنا أحد الأدباء من أفاضل أصدقائنا أنه لما حل بإحدى النقط المشرقية، وتجاذب أعنة أطراف الحديث مع بعض أدبائها، ووجدوا جانبا عظيما من اللطائف، قضوا العجب العجاب، وقالوا له: ما كان يخطر ببالنا أن نشاهد تونسيا مثلك.

وقد قرأنا بمزيد الخجل في الصحيفة 79 من رحلة محمد بك فريد المصري[160] ما وسم به شعراءنا، إذ قال فيها عند ذكر تفصيل الاحتفال بمبايعة الباي المقدس مما نصه:

" وعند انتهاء أعيان القبيلة أو المدينة من تأدية فروض المبايعة يقف قاضيها أو أكبر علمائها، ويلقي خطبة نظما أو نثرا، حشوها الأوصاف غير المنطقية على الواقع، والمدح الزائد، وكلها ركيكة العبارة، واضحة الإشارة في غاية التكلف، وبعضهم كان لا يحسن إلقاء ما يتلوه، مع أنه مكتوب في ورقة بيده، ولقد نشرت الحاضرة أبلغ هذه القصائد، ومنها يرى القارئ مكانة ما لم ينشر من البلاغة، وحسن السبك"[161]

هذا كلامه، وهو لعمر الله قول حق، وخبر صدق، على أن أشعار شعرائنا اليوم، زيادة على كونها، كما ذكر ذلك الفاضل، أصبحت

---

160) محمد فريد (1338 / 1919) زعيم الحزب الوطني في مصر بعد مصطفى كامل زار تونس في صائفة 1902 وسجل مشاهداته في رحلة بعنوان " من مصر إلى مصر"

161) من مصر إلى مصر مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمدس 1902 ص 79 (مع تصرف من علي بوشوشة فيما ينقل)

مقصورة على المديح والنياحة، مملوءة بالتملقات الباردة، والمختلقات الفاسدة، والمعاني المستثقلة المنحطة الساقطة.

فمثل غالب شعرائنا، والحالة ما شرحنا، كمثل الماشطة والنائحة والشحاتين في الأزقة والطرقات، بيد أن هؤلاء يزيدون عليهم بنقر الدفوف، والجلوس وسط الصفوف، والتوكؤ على المنساة، وحمل المزود والمخلاة.

ولأولئك النظامين شغف شديد بالانتساب إلى الأدب، ومحاولة الالتحاق بشعراء العرب، والتحصل على لقب شاعر الذي لا ينالونه، ولن ينالوه، ما دامت شنشنتهم البكاء على خلاء الأطلال، واندراس الربوع والديار، وأعظم من هذا أن أحدهم إذا نظم أبياتا يتخذ كل الوسائل لنشرها بالجرائد بعد الطواف بها على سائر المجتمعات، وسردها على كافة المجتمعين، ولو كانوا أميين، طمعا في إشعار نفسه، وانخراطه في سلك الشعراء، ولكنه من سوء بخته وتعاسة حظه لا ينال إلا السخرية والاستهزاء.

لم نسمع، ولو يوما ما، أن أحد شعرائنا تنكب عن تلك الطريقة العوجاء، ومال إلى نظم بيت أو بيتين أتى فيها بمعنى مخترع، وأسلوب مستظرف، كوصف مناظر الطبيعة، وكتمثيل واقعة حال، أو الحث على أمر نافع، كشد عضد الاتحاد، والأخذ بناصر التعاضد والتكاتف، واجتماع الكلمة، والإيقاظ من سبات الغفلة، والحث على طلب العلم، وترك التعمق في اللهو والمجون، والأمر بالإقبال على أسباب انتشالنا من وهدة السقوط، ودهاليز التأخر والتقهقر والهبوط.

وخلاصة القول إن من كان نظمه مقصورا على الرثاء والمديح لا ينال اسم شعرور، فضلا عن لقب شاعر، فعسى أن يستنهض الأدباء هممهم، ويبعثوا عزائمهم، وينبذوا وراء ظهورهم تلك الأشكال العقيمة، ويحلوا أشعارهم بالتشابيه المناسبة للاختراعات العصرية

الكثيرة، التي لو شاهدها أبو عبادة البحتري[162] أو أبو تمام أو أبو الطيب المتنبي[163] أو الحسن بن هاني[164] أو ذو المذلتين(؟)أو غيرهم من فحول الشعراء لأتوا بها في قصائدهم بأسلوب تخر له أملاك(؟) الفصاحة والبلاغة سجدا[165]

12) الطريقة المثلى

أعربنا في الفصول السابقة عن آراء حكماء الإسلام وفلاسفة المسلمين، في الطريقة التي ينبغي سلوكها في التعليم، وشخصنا الحالة المشاهدة بالمعهد الإسلامي، الذي يلجأ إليه سكان أفريقيا الشمالية، لدراسة قواعد دينهم الأغر، والاطلاع على أسرار شريعتهم السمحة، ومثلنا على مر سح العيان ادوارها دورا دورا، فتجلى للعموم أنها حالة تعيسة يجب التملص منها، والإسراع بالتنكب عنها.

ولذا أردنا الإشارة إلى الطريقة المثلى، والتلويح إلى شيء من التنبيه على ما يلزم من العمل للخروج عنها، والخلوص من آلامها، رجاء أن يبعث ذلك في قلوب أهل النقض والإبرام نشاطا، فيتولون أمر تلك الحركة، ويديرونها بأيديهم، فنظفر ساعتئذ بالضالة المنشودة، والغاية المقصودة.

بساط وتمهيد

الولد أمانة الله ووديعته، عند من يتولى كفالته، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش، مائل إلى كل ما يوجه إليه، فإنه إنما يولد صغيرا مجردا عن كل مميزات الرجال، فكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا، وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ساذجة مائلة للكمال،

162) أبو عبادة البحتري(توفي284 /897) شاعر عباسي اشتهر بوصف الطبيعة والعمران، له ديوان شعر وكتب الحماسة مثل أستاذه أبي تمام

163) أبو الطيب المتنبي(توفي355 /965) من أشهر شعراء العصر العباسي، أفضل شعره في الحكمة وفلسفة الحياة ووصف المعارك الحربية

164) الحسن بن هاني(توفي362 /972) شاعر أندلسي يلقب بمتنبي المغرب، له ديوان شعر

165) ع 949 بتاريخ 30 جويلية 1907

فإن علم الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد حاله، وشاركه في ثوابه أبواه، وكل معلم ومؤدب له، وإن عود الشر شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيم عليه، والمتولي أمره.

فمن الكفلاء من يعبث بحقوق تلك الأمانة، ولا يراقب لها إلا ولا ذمة، ومنهم من يقوم بواجباتها أتم قيام، فيحافظ عليها، ويبذل غاية جهده، ونهاية استطاعته في إيصال الخيرات إليها.

فأما العابثون فهم الذين يهملون الولد إهمال بهيمة الأنعام، يفعل ما يشاء، ويجلس أين شاء، فيفطم على الازدراء بحقوق آبائه وأقاربه، وكافة أهل بيته، ويشب على مخالطة الأنذال السفهاء، الذين يفعلون الفواحش، ما ظهر منها وما بطن، ويشيب وهو قد أدرك من نفسه التوغل في الفسوق، والتعمق في العقوق، وخسارة الدنيا والآخرة. فتارة تتصاعد منه الزفرات، وتتوالى عليه الحسرات، ويندم على ما فات، ولكن ندم البغاة، ولات ساعة مندم، وطورا يتمادى على مجونه، والانغماس في غياهب جنونه، حتى يفاجئه المنون، ويؤوب بصفقة المغبون، ولسوء الحظ كان هذا القسم عندنا هو السواد الأعظم الذي ألحق قومه وبلاده المعرة الكبرى، والنقيصة العظمى.

وأما المحافظون فهم الذين يقومون بصيانته وتربيته التربية الحسنة، بأن يؤدبوه ويهذبوه ويعلموه محاسن الأخلاق، ويحفظوه من قرناء السوء، ويراقبوه من أول أمره، حتى إذا رأوا فيه مخايل التمييز أحسنوا مراقبته.

ثم يسلموه إلى معلم حاذق لبيب صبور دمث الأخلاق، عارف بقواعد التربية وأسس التعليم، فيعلمه القراءة والكتابة بأسلوب بسيط مناسب لذهنه، ويثبت له مع ذلك في عقله العقائد الدينية، التي تأمر بالمعروف، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، ويبين له مزايا الفضيلة ليحبها، ويتمسك بها، ويقبح عنده الرذيلة لينفر منها، ويبعد عنها، ثم يلقنه شيئا من مبادئ العلوم الفكرية التي تكسبه عقلا صقيلا، ثم يجعل له نصب عينيه حفظ كلام الله، ويبين له بعض ما تضمنه من

الإعجاز، وحكم الأسرار التي عجز عن معارضته الأولون والآخرون، حتى يزداد نشاطا في حفظه، وإقبالا على تلاوة لفظه.

فإذا وقع نشوء الصبي كذلك، وقارب سن البلوغ أو بلغ بالفعل، فينبغي للمؤدب العارف بأحواله أن يشعر كافله بالوجهة التي لهذا الولد رغبة فيها وميل إليها، أهي العلم أو الفلاحة أو التجارة أو صنعة من الصنائع، فيدخله المعهد الإسلامي، وهو عالم بالنتيجة التي سينالها، فيمكث هناك مدة كافية لإصلاح لسانه، ودرس قواعد دينه، ومعرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بتلك الوجهة التي هو موليها، فإذا كانت العلم واللحوق بصف علماء الشريعة فليذهب إلى الإمام، وإن كانت غيره فلينتقل لها، وليدرس قواعدها.

وبهذا تكون الأمة قائمة بنفسها، غير محتاجة في القيام بمهام شؤونها لغيرها، وتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

لكن هذا الأمر كان متيسرا في الصدر الأول، ريثما كان تلقين العلوم الشرعية للمتعلم بالمعاهد الإسلامية مفيدا، ونبغ فيها علماء الأمة وقادة الملة، وفطاحل رجال الدين والفلسفة، مثل مدرسة قرطبة العليا التي أمها البابا " وسيلبستروس" الثاني[166] وأخذ عنه ما أدخله إلى أوروبا من علوم العرب، وأثار الحمية في أهل فرنسا وانقلترا وايطاليا وجرمانيا فقصدوا الأندلس، وتعلموا الرياضيات وعلوم الطب والكيمياء والفلك والجبر، وما يتبع ذلك من فنون الفلسفة والجغرافيا والزراعة، كما أخذوا عنها أيضا حرفة صنع الورق والسكر والخزف والبارود، ومعرفة تربية دود القز وتنميته الخ.

أما الآن فأين ما يناظر عندنا تلك المدرسة التي كانت منبثق أنوار العلوم، والينبوع الذي استقى منه الجم الغفير من كبار العلماء وعظماء المؤلفين ؟ أهو جامع الزيتونة الذي كثيرا ما يقضي فيه المتعلم الثلاثين من عمره النفيس، ولا يصل إلى نتيجة مرضية، ولا يحصل ما

166) لعله سيليستينوس الثاني(1143 ـ 1144)

ينتفع به في دنياه إن سلمنا انتفاعه به في دينه؟ أم المدرسة الصادقية التي كادت تمحى منها آثار رسوم التعليم العربي، وإن كان لنا أمل ضعيف في تحسين حالة تعليم بعض العلوم العربية بها، عندما يقع تنفيذ فصول التنقيحات التي لحقت قانونها؟

أما جامع الزيتونة، فحالة التعليم به صارت معلومة، وأسرار خلله غير مكتومة، وكل من حاول الدعوة إلى الإصلاح وسمه البعض بالمروق من الدين واللحاق بالمبتدعين، والحشر مع أصحاب الضلال والخذلان، حيث رام في آخر الزمان مخالفة قاعدة لزوم إبقاء ما كان على ما كان.

فاللهم لا يأس ولا قنوط، فقليل من التبصر في حكم الله وآياته في الكتاب العزيز والسنة الشريفة يحملنا على التسليم بأن علماء الإسلام، ورثة صاحب الشريعة، لو اهتموا بإيفاء وظائفهم المفروضة على ذمتهم، المأخوذة على عهدتهم بالنشاط والحكمة، وتولوا تربية النشء على أصول الدين، وأحكام الشريعة، واقنعوا البائسين من أن في قلوبهم مرضا، ثم سعوا سعيا حثيثا في جمع كلمتهم، وتوحيد جامعتهم، وبثوا روح العزة والشهامة في نفوس المسلمين، بما يضعونه من طرق الإصلاح، لرأيت.

أيها الصاغي من نهضة هذه الأمة الإسلامية في إعادة تاريخها، واسترجاع مجدها، ما لم تكن تظنه وسأناجي علماء الإسلام وأئمة المسلمين، فيما عن لي من طرق إصلاح التعليم، وإماطة الأذي من سبيله المستقيم، والكشف عن الطريقة المثلى، وموعدنا الأعداد القابلة إن يسر الله[167]

13) الطريقة المثلى

الطريقة المثلى للتعليم الموصلة إلى نتيجة حسنة لا يمكن

---

167)954 بتاريخ 17 سبتمبر 1907

الحصول عليها إلا إذا قدم مريدو الإصلاح بين يدي كل عمل من أعماله الشروط الآتية:

1) النظر في كيفية تلقين العلوم للمتعلمين وإفادتهم إياها.
2) استبدال بعض اكتب التي يتداولها الطلاب الآن، ويعتدون عليها في معلوماتهم.
3) انتظام التدريس من الوجهة العامة وتصييره على أسلوب يستفز الهمم، ويستنهض العزائم.
4) انتخاب المعلمين.

هذا أنموذج شروط التعليم النافع وطريقته المثلى، وسنشرح بحول الله كل شرط منها، بما تنجلي به الحقيقة أجلى بيان، وينبلج نورها للعيان.

أما النظر في كيفية تلقين المتعلمين فالمراد منه إلقاء المسائل عليهم على التدريج شيئا فشيئا، وقليلا قليلا، وهو إنما يكون بتقسيمهم إلى ثلاث طبقات صغرى ووسطي وكبرى، بحيث لا ينتقل التلميذ من طبقة إلى أخرى إلا بعد أن يختبره شيوخ النظارة العلمية بأنفسهم في أمهات المسائل التي زاولها، ويتحققوا أنه أحاط بها خبرة وبصارة، وصار جميعها على طرف لسانه، ويسفر لهم صبح الاختبار على ترشيحه للانتقال إلى الطبقة التي فوق طبقته، فتلامذة الطبقة الصغرى تلقى عليهم مسائل قليلة من كل باب من أبواب الفنون المعينة لهم بالمنشور الصادقي، ويقتصر لهم على أصول العلم وأمهات قواعده، لا يتجاوزونها إلى غيرها، ويبالغ لهم الأستاذ في شرحها شرحا مجملا، وتقريبها إلى أفكارهم، مراعيا في ذلك قوة أذهانهم، ومقدار عقولهم واستعدادهم.

فلا يلقي عليهم ما يرى أن في ملكتهم قصورا عنه ونشوزا منه، ويلاحظ أضعفهم فكرا وأقلهم استعدادا، فإنه إن تجاوز ذلك القدر أضر به، وليس في ملاحظة حال الضعيف إيذاء بذي الملكة التامة والفطنة المتقدمة.

وليكثر عند ذكر كل قاعدة من القواعد من ذكر الشواهد والأمثلة، لأن من الطلاب من لا يفهم القاعدة إلا إذا سمع لها مثلا عديدة، وليبين لهم عند كل مثال يذكره لهم كيفية دخوله تحت لقاعدة.

ثم يتعهدهم بعد ذلك بسؤالهم عن تلك القواعد وأحكامها، ويكلف كلا منهم بأن يذكر لها من الأمثلة ما يناسبها، ويبين وجه دخول المثال تحت القاعدة.

فإذا انتهى بهم إلى آخر تلك الفنون يكونون قد حصلوا على ملكة فيها، إلا أنها جزئية وضعيفة، ويتهيأ للفهم، وتحصيل المسائل، فحينئذ ينقلهم إلى الطبقة الوسطى، فيدرسون كتبها، ويرفعهم في التلقين عن الرتبة الأولى، ولا يقتصر لهم على الإجمال، كما فعل أول مرة، وإن كان هناك خلاف يرجع إلى طائل، وله دخل في العلم وأثر بين في العمل به، كالاختلافات الواقعة بين أئمة الفقهاء ذكره وبينه لهم، أما الاختلافات العقيمة التي كنا ألمعنا إلى شيء منها فلا ينبغي أن تلقى إليهم، ولا أن يمكنوا من النظر فيها، فإنها مشوشة للفكر قاطعة عن التحصيل.

ويكلفهم زيادة على ذلك بتطبيق العلم على العمل، فإذا كان يقرئهم النحو مثلا كلفهم أن يقرؤوا أمامه جملا من الكتاب الذي بأيديهم، مراعين وجوه الأعاريب، فما أخطأ فيه أحدهم رده إلى الصواب، وبين لهم وجه خطئه، وما وافق فيه الصواب أقره في بعضه، وسأله عن وجه استحقاقه لما أعطاه من الإعراب، وأنكر عليه بعضه ونازعه فيه وشككه، ليتعود على الجزم بما يعلم، ويدفع عنه رعونة الجهل، ويستقر على الصواب فيما علم، وترسخ فيه قدمه، ويصير ذلك الحال عنده ملكة، فإذا بلغوا

تلك الفنون على الطريقة التي شرحناها آنفا فينبغي أن ينقلوا إلى:

الطبقة العليا

حيث قويت ملكتهم، واشتد ساعدهم، وأحاطوا بكل القواعد التي درسوها إجمالا وتفصيلا، فيناولون الكتب المناسبة لهم من الفنون

الموضحة بالقانون الزيتوني، ولا يترك الأساتذة عويصا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضحوه وفتحوا مقفله، وقربوا بعيده، ويمرنونهم على إلقاء العبارات وتعليمها وتفهيمها غيرهم، بأن يكلفوا كلا منهم بأن يقوم بين أيديهم بجمل يسردها ويفسر معناها، ويوضح مشكلها على رفقائه.

فإذا انتهوا من تلك الفنون على الطريقة التي أسلفناها كانوا قد استولوا عليها من أطرافها، وجمعوا إليهم كل ما يحتاجون له، وقويت ملكتهم فيها، وانطلق لسانهم بالنطق بها، فصار يمكنهم أن يلقنوها ويعلموها غيرهم كما تعلموها، وصار يؤمن منهم إذا جلسوا للتعليم أن يخلطوا ويشوشوا ويضيعوا على الناس ساعات عمرهم فيما يضر وينفع.

فهذا وجه التعليم الذي ذكره الشيخ محمد بدر الدين الحلبي، وهذه طريقة أهل العلم والعقل في إفادته، وقد استشهدنا سابقا عليها بما صرح به فلاسفة الإسلام والمسلمين، ولا شك أن التلامذة إذا تناولوا هاتيك العلوم على الأسلوب المتقدم إيضاحه فإنهم يحصلون على غاياتها، ويجنون قطاف ثمرتها في مدة وجيزة، ويكونون قد نفعوا ذواتهم وأمتهم وبلدتهم، ونالوا الشرف الأثيل، واكتسبوا الفخر الجزيل، وخلدوا الذكر الجميل.

هذا بالنسبة لمريدي الانخراط في سلك ألائمة العلماء، وكذلك من انقطعوا عن التعليم بعد إتقان علوم الطبقة الأولى أو الثانية، واشتغلوا بالحياة الدنيا، فإنهم ينتفعون تمام الانتفاع بما حصلوه في الأمر الذي وقع إقبالهم عليه.

وبهذا تكون الأمة بصيرة عن الجهل، عالمة بقواعد دينها، مطلعة على أسرار شريعتها، عارفة بأمور دنياها، بالغة شأنها، نائلة من السعادة منتهاها.

نعم أن من تلك العلوم علوما لا يمكن بالجامع التعمق فيها، والإطلاع على خوافيها، حيث كان محل ذكر وعبادة يجب احترامه، وكانت تستدعي آلات ومواد لا يناسب إدخالها إليه، إذ لربما تشغل العابدين عن العبادة، فهذه ينبغي أن تقرأ في أمكنة خاصة، كما كان

يفعل بعض الشيوخ رحمهم الله تعالى، أو تزاول بالمدرسة المنسوبة إلى أكبر عالم ديني، وأعظم فيلسوف إسلامي، وهي "المدرسة الخلدونية" حيث إنها معتبرة قسما تكميليا للجامع، يقرأ فيها ما تتعذر أو تتعسر قراءته فيه بالأسلوب الكافي [168]

168) ع 960 بتاريخ 29 أكتوبر 1907

كيف يتلاعبون

لبعض الجرائد الفرنسية أساليب عجيبة في أفانين التلاعب بالأفكار، والتلبيس على العقول، تلبيسا برعوا فيه، حتى أصبحوا في مقدمة المداهنين الذين لا ينسى التاريخ لهم اسما، ولا تمحو لهم الأيام رسما، فمن ذلك ما وقفنا عليه قي عدد يوم الجمعة الفارط من التونزي فرانسيز[1] من أن المحرر رأى أحد شبان التونسيين المهذبين الذين نعتهم بشبان الأتراك، أي أحرارهم، يناجي امرأة مزيات يالزي الإفرنجي مكشوفة الوجه، على رأسها قبعة، فطن أنه وجد ضالته المنشودة، ودرته المعقودة، وهي أن المرأة المسلمة أطلقت من عقال خدرها، الذي يعبر عنه بالاستعباد، إلى مراتع الحرية التي جاءت بها المدنية الإفرنجية، فحاكت أو ماثلت أختها المرأة الأوروبية، فما لبث عشية ضحاها حتى أسمعت المرأة صداها، فإذا هي من بنات إسرائيل، والشاب الذي لبس الطربوش العثماني من هذا القبيل الثاني، فاندهش المغرور، وانقلب فرحه ترحا، بعد ذلك السرور، وبذلك علم المحرر أن سعيه في الكشف عن وجه المسلمات ذهب أدراج الرياح، وأن عمله لم يقرن بالنجاح، فانقلب يردد قول الشاعر:

ما كُلّ ما يتَمنّى المَرْءُ يدْرِكُهُ   تَجْرِي الرّيَاحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ

وعلى ذكر هذه النادرة الغريبة نورد للقارئ قضية عجيبة، وهي أن أحد سائقي عربات الترمواي النابغين المخلصين في خدمة الكمبانية من سنوات عديدة، ترجى من رئيس مصلحته أن يرقيه لرتبة مراقب، فما كان جواب المدير له إلا أن أثنى على حسن خدمته، ووعده بالزيادة في أجرته، لكن اشترط عليه في تسميته مراقبا أن يلبس البرنيطة في خدمة المراقبة، على خط تونس وحلق الوادي، على أن هناك من المراقبين المسلمين من هو قائم بهذه الوظيفة بتونس

---

1)ع 987 بتاريخ 30 جوان 1908 لصاحبها المعمر فيكتور دو كارنيار

(1) La Tunisie Française 28 Août 1908

وأحوازها، وإن كان عددهم أقل من القليل، ولم يكلف بلبس البرنيطة، وهذه الإهانة التي لحقت التونسي في خدمة بلاده، فوق ما يناله مستخدمو هذه المصلحة التونسية من الغبن والعسف في حقوقهم، فإن الكمبانية تأخذ غالب مستخدميها الأوروباويين، خصوصا الإيطاليين والمالطيين، ولا تستخدم التونسي إلا عند الضرورة المطلقة، مع أنها لولا الوطنيون لأصبحت خزينتها خالية، وأسهمها لا تبلغ معشار قيمتها، فالتونسي عليه الغرم، وليس له غنم، ومن جورها أنها تنقد الأورباوي في مبدأ خدمته أجرة تختلف بين الثلاث فرنكات ونصف، والأربعة ونصف في أجرة يومه، ولا تنقد التونسي إلا بفرنكين ونصف، ونهاية ما تصل إليه أجرته5، 3 في يوم بعد طول، وإن كان يحسن التكلم والكتابة أحسن من الصقلي، فإلى هذه الحالة الأسيفة الدالة على إهمال إدارة الأشغال العامة، لتصرف هذه الكمبانية بالجور والاعتداء، نستلفت أنظار جهة الاقتضاء، ونرجو من همتها أن تتلافى هذا الخلل بصنوف التدبير والاعتناء[2]

2)ع 993 بتاريخ 1 سبتمبر 1908

إذا حقت الشفقة على بني الإنسان، في هذه الأزمان، التي احتدم فيها الجدال، وحمى وطيس الجلاد والكفاح في ميادين الأعمال، فلنا قي هذا المجال، مجال تحرج الأحوال، من حال التونسي عبرة ومثال، بما يشخصه لنا عامة الأهالي من أدوار التعاسة، وأطوار التذبذب ومظاهر البؤس والشقاء، ومضامير الكد والعناء، وكل من كان مخلص النزعة، شريف العواطف والإحساس، تهتز نفسه الكريمة إشفاقا ، وتنفطر كبده أسفا، لما أصبح عليه ابن البلد من التذبذب والتردد في ما تهيئه له الأقدار، وهي حالة تظهر من الموقف الحرج الذي أصبحت فيه الهيئة الموكول إليها النظر في تأمين استقباله من الآثار، آثار الترقي والإصلاح، وتأهله ليضرب بسهم مصيب في ميدان الكفاح، لمقاسمة مواطنيه في الفوائد والأرباح.

ولقد أصبحت هذه المسألة المعروفة اليوم بالمسألة الأهلية، بين أصحاب الجرائد، وقادة الأفكار وعلماء العمران البشري حديث السمر، ومحط البحث والتنقيب، للاهتداء على وجه القبول في شرعة التمدن، ورأي في حل هذا الإشكال نصيب، ولكل وجهة هو موليها، وغاية يرمي إليها.

ولولا تفرق المشارب وتعدد الغايات، وتقلب دواعي الأثرة والجشع على النفوس، أو سدول غاشية الأغراض النفسانية، والمصالح الذاتية، على عقول الباحثين، لانبلج صبح الحقيقة لذي عينين، وارتفع عن خاطر المنقبين جلباب الريب والمين، ماذا يؤمل التونسي والتونسيون في الظروف الحالية من الهيئة الحاكمة والحكومة التي ألقوا إليها زمام أمورهم، وأناخوا بساحة مطايا آمالهم؟

لو سألتهم عن قصارى أمانيهم، وبغية قاصيهم ودانيهم، لأجابوا عن بكرة أبيهم أنهم إنما يبتغون معاملتهم بالعدل والإحسان، واستنامتهم في ظلال الراحة والأمان.

ولا يخفى أن من مقتضى العدل ـ إذا صح أن هذه الفضيلة الإنسانية لم ترفع من الأرض، وتمحى ونسخت آياتها من لوحة الوجود ـ أن يشرك ولاة الأمور كافة من تظلهم رايتها، أو نشرت عليهم أعلام شوكتها، من المفرد والجمهور، في منافع البلاد التي ائتمنوا على إصلاح شؤونها الدولة الحامية لراية العدل والمساواة، في هذه الأوقات، وتخويلهم حق التمتع بخيراتها مع أبنائها، كما هم شركاؤهم، وأعوان يتكاتفون على تنمية مصلحة العمران، بهذه الأوطان، وأن لا تطرح جموعهم وسوادهم في زوايا الإهمال والنسيان.

ومن أهم المصالح القاضية بالتشريك والتعاون المشروعات النافعة، التي تقوم بها الحكومة، وتنفق في سبيل انجازها الملايين الطائلة من مجابي الرعية، عملا بقاعدة أصولية اقتصادية مدنية وهي: أن من عليه الغرم له الغنم، وتخفيفا لوطأة الشقاوة والشرادة على عاتق الفقراء الذين يطوون كشحا من شدة العوز.

ولئن لم تتوفر في الرعية شروط الكفاءة والأهلية، للقيام بتلك الأعمال، أو المشاركة فيها بصورة فعلية، فالواجب اتخاذ التشبثات اللازمة لتأهيلهم لذلك، ببث تعليم الصنائع والفنون المتعارفة في البلاد الأوروباوية، قياما بواجب الترقي والإصلاح، الذي كتبت الدولة الحامية على نفسها بمداد الشرف على لوحة الوجود والعهود انجازه لخير البلاد والعباد، فلو أهملت الحكومة هذا الإصلاح، انصياعا للمؤثرات الخصوصية، وانحدارا مع تيار الأهواء العدوانية، أو محاباة لفريق من أرباب الغايات السياسية، الذين يرون سعادتهم في شقاء التونسي، وحريتهم في استعباده، ونجاحهم في غبن حقوقه المشروعة، وإغماره في بحار الجهل والضلالة ، حتى لا يهتدي

للصواب سبيلا، وينهض من كبوته، أو يستيقظ من نومته، ويهب من غفلته، لحقت على الهيئة الحاكمة نقمة الخالق الذي لم يخلق عبيده

ليعذبوا بنخز (؟) العوز ، ويتيهوا في أودية الشر والعصيان، فضلا عن اهتزاز عالم المدنية لهذه الحالة الدنية، والمعاملة القاسية المشعرة بالهمجية.

ولئن استحكمت حلقات الخلاف بين أنصار العدالة والإنصاف، وأشياع الجور والاعتساف، واستظهر جيش القوة الفتاكة البهيمية على فريق الخضوع والضعف والمغلوبية، فالأقدار أحق بالانتصار، وسلطان الجور مخذول زائل آيل إلى التقهقر والاندبار، يدل على ذلك تاريخ الأمم التي دالت على هذه الديار، وخلفت فيها من الآثار، ما يقضي بالتبصر والاعتبار.

لذلك نرى مصلحة العنصرين التونسي والفرنساوي في التكاتف والتعاون على مشروع الإصلاح، بما يعود عليهما باقتسام المنافع والأرباح، وتحقيق غاية النجاح، وواجب الحكومة في الأخذ بأسباب التقارب والتآلف بين العنصرين، بدون اعتبار إلى حزب مفرق أو فريق، من الذين اتخذوا سياسة التدجيل، والتبجح بالوطنية أحبولة لصيد المنافع الخاصة، ولو من وراء تعكير مجاري الصفاء ، وإعنات أهالي هذه الديار، ومعاملتهم بالجفاء والاحتقار.

ولا شك أن هذه الأضاليل، وصنوف هذا التلبيس والتدجيل، لما توالت وتبينت غاياتها للجليل والحقير، لم تخف على فطنة رجال الدولة الحامية الذين برهنوا لنا أخيرا على أن التونسي جدير بالتمتع بحقوقه المدنية، والمشاركة بالنظر في المصالح الإدارية، بتشريك عمده في المفاوضات الشورية، وهي نتيجة ابتهج لها عموم أهالي المملكة التونسية، غير أن من المصالح العامة ما يستدعي دفة أنظار ولاة أمورنا، ويقضي بإصلاح حال مفردنا وجمهورنا.

ولا غرو إن قلنا: إن من أخص تلك المصالح تشريك الأهالي في

الأشغال العامة، بحق مشاركته في الحظ الأوفر من نفقاتها.

وفي تعليم الصنائع والفنون التي تؤهله لإتقان العمل ، وتحقيق الأمل، وإلا اعترى مصلحة العمران الأهلية من الدور والتسلسل ما يعود على الحكومة بالمسؤولية، إذ لا يتم نصاب التأهل للخدمات العامة إلا بالتعليم والتدريب على أصولها، ولا تعليم ما دامت الهيئة الحاكمة تتردد وتباطئ السير، ولا تتمنطق بالعزم، لطرق باب الإصلاح من وجهه لا من جوانبه، حتى لا تكثر الظنون ، ويرتاب أهل التفكر في مقاصد الحكومة وسياستها الحقيقية، وهم كلما زاد التباطؤ والتردد قلت ثقتهم بالعهود المنبرمة ، واكفهر في وجوههم أفق الاستقبال، بتضاؤل الآمال، بإبعادهم من ساحة المصالح العامة والأعمال النافعة.

على أن الناقد البصير، الجامع بين أصالة الرأي وحسن التدبير، كجناب المقيم العام، لا نخالهم إلا قائلين بأن التونسيين حيث لم يلاقوا الدولة الحامية بمظاهر المقاومة والعداء، بل بدلائل القبول والوثوق والاحتفاء، هم جديرون بالرعاية والإنصاف، وأنهم إنما يحسبون أنفسهم من الموالين المحالفين، يقاسمونها في السراء والضراء، ولما كان لا شيء أجلب للقلوب وأبلغ في تحريك دواعي الشكر والألفة في النفوس من العدل والإحسان، فمن أسد السياسات الكبرى ، وأجل المقاصد العليا، أن تبذل الدولة الحامية مجهودها في جبر خواطر المسلمين بالبر (والهـ ة ؟) التي هي شعار الكرماء أمثالها، مع من ساقتهم الأقدار لحكمها، حتى تخفف عنهم وطأة سلطتها، وتملك أرواحهم بعد امتلاك أشباحهم، فلا شيء أبقى للملك من العدل ، وهو قيام الممالك وسياجها، ولا عبرة بقول من استعمل السفسطة والمغالطة في تدعيم مزاعمه كالتونيزي فرانسيز حيث قال في معرض الرد على الطان، إذ فند مزاعم المصادرين للأمة التونسية: إن ألد أعداء الدولة هم من تثقفت أذهانهم بأنوار العرفان من الشبان

التونسيين، حيث يحملهم ذلك الترقي على الطموح إلى الاستقلال ، كما ظهر ذلك الطموح في المتنورين من المصريين، كمصطفى كامل باشا[1] فإن هذا القياس مع وجود الفارق، وهو أن انقلترا لم تنصب حمايتها على مصر رسميا، بل احتلت الديار المصرية بصفة وقتيا، وأعلنت بعزمها على الانجلاء، وبذلك تألف الحزب الوطني المطالب لها بإنجاز ما وعدت، فالأمة التونسية عالمة بضعفها وعجزها عن القيام بأمورها بذاتها، فهي غير طامحة، والحالة هاته، إلى هذه الأمنية، بل غاية ما تسعى إليه هو إصلاح حالتها الاقتصادية، على معنى بث العلوم والفنون بين الطبقات الأهلية، وتشريكها في منافع البلاد المادية والمعنوية، حتى تأمن من عواقب الشرور والشقاوة، التي هي مطية العوث والتمرد واللصوصية، ولا يتذرع بذلك ولاة الأمور بعامل التأثيرات السياسية إلى إخضاعها إلى قوانين صارمةن ومحاكم زاجرة خصوصية، من حيث لم تقترف ذنبا، ولم تأت وزرا، يحمل على عاتقها أعباء المسؤولية.

فلو جرى عمل الحمايةعلى خلاف هذه القاعدة العمرانية من تحسين حال الرعية، بتوفير أسباب عيشهم واستنامتهم في ظل الأمنية، وتحقيق غاية الكفاف والعفاف، إن لم نقل أسباب التثري والرفاهية، فإن مصيرها إلى الشقاء والفساد والتمرد والعناد والعوث في أكناف البلاد، وإذ ذاك لا لوم من النزلاء إلا على من اختبر الداء، فشح بالدواء، ولم يتدارك خطارة الموقع، وسوء المغبة بمرهم الحكمة، وصنوف الاعتناء.

ولنا الأمل الوطيد بأن جناب عمدة الدولة الحامية يقابل هذا النداء بمظاهر الاهتمام والإصغاء، بما يوجب للدولة الحامية وافر الامتنان، ولجنابه السامي جزيل الشكر والثناء[2]

---

1) مصطفى كامل(1874 ـ 1908) زعيم الحزب الوطني المصري، كان شعلة من الحماس والنشاط، امضى حياته يدافع عن بلاده، ويطالب برحيل الانجليز عن مصر عن طريق جريدته اللواء باللغات الثلاث العربية والفرنسية والانجليزية، وكذلك عن طريق خطبه في المحافل الدولية، وكان بوشوشة قد اجتمع بمصطفى كامل في باريس 1895(راجع الحاضرة ص350 وما يعدها، وتأبين علي بوشوشة في جريدته لصديقه مصطفى كامل ع 950 بتاريخ 18 فيفري 1908 موت وطني)

2) ع 932 بتاريخ 26 مارس 1907

توثيق
مُجمَل افتتاحِيّات علي بوشوشة

عناوين الافتتاحيات التي كتبها علي بوشوشة

تتنوع الافتتاحيات التي حررها بوشوشة في جريدة الحاضرة كما يلي :
1) افتتاحيات محررة أساسا
2) وصف وسرد لأحداث ووقائع سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية
3) افتتاحية معربة عن الصحف الأجنبية
4) خطب لساسة وغيرهم يقوم مدير الجريدة بتعريبها
5) رد على الصحف الأجنبية المناوئة للتونسيين (صحف المعمرين مثلا)
6) كثيرا ما يعيد بوشوشة عنوان الافتتاحية أو المقالة مع اختلاف المضمون
7) قد تكون الافتتاحية عبارة عن تقرير في شأن من الشؤون التي تخص المملكة، فيلجأ بوشوشة إلى تعريبه
وفيما يلي نعرض هذه الافتتاحيات، فنذكر العنوان وعدد الجريدة وتاريخه:

ع/ر	العنوان	العدد وتاريخه
1	روسيا والباب العالي	14 ــ 30 أكتوبر 1888
2	المسائل الحاضرة	16 ــ 13 نوفمبر 1888
3	الأحوال الحاضرة	22 ــ 25 ديسمبر 1888
4	سياسة الانجليز في مصر	23 ــ 1 جانفي 1889
5	المسائل الحاضرة	24 ــ 8 جانفي 1889
6	الأحوال السياسية	25 ــ 15 جانفي 1889
7	المحاكم الأهلية	29 ــ 12 فيفري 1889
8	العثمانيون والانجليز	30 ــ 19 فيفري 1889
9	النقود	33 ــ 19 مارس 1889
10	الزراعة	36 ــ 2 أفريل 1889
11	التنافس	39 ــ 23 أفريل 1889
12	جواب للمجلس الشرعي	40 ــ 3 ماي 1889
13	تقدم الصنائع	43 ــ 28 ماي 1889
14	زيارة ملك ايطاليا...	45 ــ 4 جوان 1889
15	الأحوال بالحجاز	48 ــ 25 جوان 1889
16	فوائد الإشهار	49ـ 2 جويلية 1889
17	الأفق السياسي	50 ــ 9 جويلية 1889
18	المعارف العمومية	51 ــ 16 جويلية 1889
19	شكر عن(؟) إقبال	52 ــ 23 جويلية 1889
20	المدرسة الصادقية	53 ــ 30 جويلية 1889

88	الدنيا مطية الآخرة	155 ــ 21 جويلية 1891
89	المسألة البلغارية	156 ــ 28 جويلية 1891
90	نظرة في سياسة انقلترا	158 ــ 11 أوت 1891
91	المسألة المصرية	159 ــ 18 أوت 1891
92	القضاء	160 ــ 25 أوت 1891
93	انقلترا والدول	161 ــ 1 سبتمبر 1891
94	الحرابة(أي القرصنة والاختطاف)	162 ــ 8 سبتمبر 1891
95	تغيير الوزارة العثمانية	163 ــ 15 سبتمبر 1891
96	واقعة ماتلين	164 ــ 22سبتمبر 1891
97	المدارس التونسية	165 ــ 29 سبتمبر 1891
98	أحوال أوروبا	166 ــ 6 سبتمبر 1891
99	التنظيرات السياسية	167 ــ 13 أكتوبر 1891
100	حوادث سياسية	168 ــ 20 أكتوبر 1891
101	المجابي والأعشار	169 ــ 27 أكتوبر 1891
102	المجبى	172 ــ 24 نوفمبر 1891
103	إجمال السياسة	173 ــ 1 ديسمبر 1891
104	التنظيمات	175 ــ 15 ديسمبر 1891
105	زراعة الدخان(2)	176 ــ 22 ديسمبر 1891
106	أوروبا والباب العالي	177 ــ 29 ديسمبر 1891
107	مصلحة الأخبار	178 ــ 5 جانفي 1892
108	مسألة مراكش	180 ــ 19 جانفي 1892
109	أفكار حربية	181 ــ 26 جانفي 1892
110	جمعية الفلاحة التونسية	182 ــ 2 فيفري 1892
111	نظرة في القانون العسكري	183 ــ 9 فيفري 1892
112	أخبار المغرب	184 ــ 16 1892
113	مكس بيع التريبونال	185 ــ 23 1892
114	واقعة باب البنات لدى مجلس الجنايات	186 ــ 1 مارس 1892
115	من اشتغل بما لا يعنيه	188 ــ 15 مارس 1892
116	نظرة في معلوم البيع	189 ــ 22 مارس 1892
117	بنزرت	190 ــ 29 مارس 1892
118	المفسدون في الأرض	191 ــ 5 أفريل 1892
119	انقلترا ومستعمراتها	192 ــ 12 أفريل 1892

154	الجمعيات الخيرية	233 ـ 7 فيفري 1893
155	جمعية التعاون على البر	235 ـ 21 فيفري 1893
156	تعليقان على جمعية التعاون	236 ـ 28 فيفري 1893
157	المحاكم التونسية	237 ـ 7 مارس 1893
158	رسالة من الحجاز محكم الطراز	238 ـ 14 مارس 1893
159	دسائس الأرمن	239 ـ 21 مارس 1893
160	الإسلام في أمريكا	240 ـ 28 مارس 1893
161	الأداء على الزيتون	241 ـ 4 أفريل 1893
162	جامع الزيتونة	242 ـ 11أفريل 1893
163	الحالة السياسية	243 ـ 25 أفريل 1893
164	عرب خمير	244 ـ 2 ماي 1893
165	العقلة العدلية	245 ـ 9 ماي 1893
166	أسباب المجاعة بالجزائر وملافاتها	246 ـ 16ماي 1893
167	الأمة الإسلامية	247 ـ 23 ماي 1893
168	حقوقنا الشرعية	248 ـ 30 ماي 1893
169	أحرب أم سلم	250 ـ 13 جوان 1893
170	من لم يتقدم تأخر	251 ـ 20 جوان 1893
171	سياستنا الداخلية	252 ـ 4 جويلية 1893
172	نظرة في الدخان	253 ـ 11 جويلية 1893
173	سفر الجناب الخديوي	254 ـ 18 جويلية 1893
174	المحاكم التونسية	255 ـ 25 جويلية 1893
175	إنصاف بعد اعتساف	256 ـ 1 أوت 1893
176	المغرب الأقصى	257 ـ 8 أوت 1893
177	نظرة في الأعمال في التهم	258 ـ 15 أوت 1893
178	رجوع الكلام إلى أراضي خمير	259 ـ 22 أوت 1893
179	تفقد المدارس	260 ـ 29 أوت 1893
180	الأمن العام	261 ـ 5 سبتمبر 1893
181	تعليم الزراعة	262 ـ 12 سبتمبر 1893
182	جملة سياسية	263 ـ 19 سبتمبر 1893
183	احترم العوائد	264ـ 26 سبتمبر 1893
184	التناسل	265 ـ 3 اكتوبر 1893
185	الأسطول العثماتي	266 ـ 10 اكتوبر 1893
186	الحرب بمراكش	267 ـ 17 اكتوبر 1893
187	أفغانستان	268 ـ 24 أكتوبر 1893

212	سياسة فرنسا	312 ـ 4 سبتمبر 1894
213	الصنائع	313 ـ 11 سبتمبر 1894
214	اليد العاملة	314 ـ 18 سبتمبر 1894
215	جملة سياسية	316 ـ 2 أكتوبر 1894
216	الدجالون	317 ـ 9 أكتوبر 1894
217	علم التاريخ	318 ـ 16 أكتوبر 1894
218	مسألة مدغشقر	319 ـ 23 أكتوبر 1894
219	الأمن العام	320 ـ 30 أكتوبر 1894
220	الأحوال الحاضرة التونسية	321 ـ 6 نوفمبر 1894
221	المسألة المصرية والسياسة العمومية	322 ـ 13 نوفمبر 1894
222	مطالبنا(1)	323 ـ 20 نوفمبر 1894
223	مطالبنا(2) احترام الشعائر	324 ـ 27 نوفمبر 1894
224	مطالبنا(3) الطبقات العالية	325 ـ 4 ديسمبر 1894
225	مطالبنا(4) مصلحة الأوقاف	326 ـ 11 ديسمبر 1894
226	مطالبنا(5) توسيع نطاق المعارف	327 ـ 18 ديسمبر 1894
227	مطالبنا(6) الحقوق الشورية	328 ـ 25ديسمبر 1894
228	مطالبنا(7) حماية الصنائع التونسية	329 ـ 1جانفي 1895
229	مطالبنا(8) المحاكم التونسية	330 ـ 8 جانفي 1895
230	مطالبنا(9) التونسي والخدمة الإدارية	331 ـ 15 جانفي 1895
231	مطالبنا(10) اليد العاملة	332 ـ 22 جانفي 1895
232	الفلاح التونسي	333 ـ 29 جانفي 1895
233	مطالبنا(11)	334 ـ 5 فيفري 1895
234	مسألة الفواكه والخضر	335 ـ 12 فيفري 1895
235	المصالح البلدية	336 ـ 19 فيفري 1895
236	الدين النصيحة	345 ـ 23 أفريل 1895
237	انبرام الصلح بين الصين والجابون	346 ـ 30 أفريل 1895
238	إيقاظ الهمم	347 ـ 7 ماي 1895
239	فواتح الأعمال	348 ـ 14 ماي 1895
240	أعداء العرب	349 ـ 21 ماي 1895
241	الآداب	350 ـ 28ماي 1895
242	الاعتراف بالفضل واجب	351 ـ 11 جوان 1895
243	الاعتناء بتعليم الزراعة	352 ـ 18 جوان 1895
244	انقلترا في مصر	363 ـ 10 جوان 1895
245	المسألة الأرمينية(2)	370 ـ 29 أكتوبر 1895

246 المرء بأصغريه	371 _ 5 نوفمبر1895
247 الخط الشريف	372 _ 12 نوفمبر1895
والتنظيمات العثمانية	
248 الإصلاحات الأرمينية	373 _ 19 نوفمبر1895
249 مسؤولية الأعمال	374 _ 26 نوفمبر1895
250 خطاب القس الوازون	375 _ 3 ديسمبر 1895
(تعريب الخطاب)	
251 أحوال المغرب الأقصى	376 _ 10 ديسمبر 1895
252 أحوال الدولة العثمانية	377 _ 17 ديسمبر 1895
253 التنبر والتسجيل	381 _ 14 جانفي 1896
254 لحا الله الخرب(تعريب)	383 _ 28 جانفي 1896
255 حب العرب	386 _ 18 فيفري1896
256 ايطاليا والتحالف	389 _ 10 مارس 1896
257 الواضحات الفاضحات	391 _ 31 مارس 1896
258 المحاكم التونسية	392 _ 7 أفريل 1896
260 نظرة في السياسة العثمانية	393 _ 14 أفريل 1896
261 تقدم العلوم والصنائع	394 _ 21 أفريل 1896
262 تداركات لازمة	395 _ 28 أفريل 1896
263 مقتل شاه العجم	396 _ 5 ماي 1896
264 إرساليات البروتستان	397 _ 12 ماي 1896
265 خطب جلل(وفاة أحمد ابن الخوجة)	398 _ 19ماي 1896
266 تاريخ حياة الفقيد أحمد أبن الخوجة	399 _26 ماي 1896
267 الناموس الشرعي	400 _ 2 جوان 1896
268 أحباب الإسلام	401 _ 9 جوان 1896
269 المعاليم الكمركية	402 _ 16 جوان 1896
270 ذكرى لأولي الألباب	403 _ 30 جوان 1896
271 السلطة الحاكمة	405 _ 7 جويلية 1896
272 أحوال المشرق	407 _ 21 جويلية 1896
273 فرنسا والإسلام	408 _ 28 جويلية 1896
274 العلم الشريف	409 _ 4 أوت 1896
275 المترجمون بالمراقبات المدنية	413 _ 1 سبتمبر 1896
276 توقف الإشهاد في أكناف البلاد	414 _ 8 سبتمبر 1896
277 مظهر سياسي جديد	415 _ 14سبتمبر 1896
278 المعاهدة التجارية	416 _ 22 سبتمبر 1896

279	انقلترا والدولة العثمانية	417 ـ 29 سبتمبر 1896
280	المعاهدة التجارية الجديدة	418 ـ 6 أكتوبر 1896
281	التوازن السياسي	419 ـ 13 أكتوبر 1896
282	بقرات عجاف	420 ـ 20 أكتوبر 1896
283	نمو الترقي	422 ـ 3 نوفمبر 1896
284	المسألة المصرية	423 ـ 10 نوفمبر 1896
285	المعاهدة التجارية	424 ـ 17 نوفمبر 1896
256	الجباية	425 ـ 24 نوفمبر 1896
257	نصيحة سياسية	426 ـ 1 ديسمبر 1896
258	المجلس الشرعي	427 ـ 8 ديسمبر 1896
259	تعديل معاليم الحبوب	428 ـ 15 ديسمبر 1896
260	مظهر سياسي جديد	429 ـ 22 ديسمبر 1896
261	حرية المطبوعات	430 ـ 29 ديسمبر 1896
262	الضبط والربط	431 ـ 5 جانفي 1897
263	مظهر سياسي جديد لانقلترا	432 ـ 12 جانفي 1897
264	الجمعية الخلدونية	433 ـ19 جانفي 1897
265	حالة الثروة العمومية بالساحل	434 ـ 26 جانفي 1897
266	نظرة سياسية	435 ـ 2 فيفري 1897
267	موالاة الإسلام	436 ـ 9 فيفري 1897
268	أوروبا والدولة العثمانية	439 ـ 2 مارس 1897
269	المسألة الشرقية	440 ـ 9 مارس 1897
270	أوروبا واليونان	441 ـ 16 مارس 1897
271	أوروبا والمسألة الشرقية	442 ـ 23 مارس 1897
272	استقلال الدولة العثمانية	443 ـ 30مارس 1897
273	الدولة العثمانية واليونان	445 ـ 13 أفريل 1897
274	كيف تروى الأخبار؟	447 ـ 11 ماي1897
275	أخطار البذاءة	448 ـ 18 ماي1897
276	سنة 1314	450 ـ 1 جوان 1897
277	خطب جسيم(وفاة أخمد كريم)	451 ـ 8جوان 1897
278	وجوب الاحتياط	452 ـ15 جوان 1897
279	حفظ الآداب	453 ـ 22جوان 1897
280	مصلحة الفلاحة	454 ـ 29 جوان 1897
281	الجمعية الفلاحية الاقتصادية بالسواسي	455 ـ 6 جويلية 1897
282	فرنسا واتقلترا	456 ـ 13جويلية 1897

283	المغرب الأقصى	457 ـ 20 جويلية 1897
284	الإسعاف	458 ـ 27 جويلية 1897
285	مخابرات الصلح	459 ـ 7 أوت 1897
286	انقلترا بالهند	461 ـ 24 أوت 1897
287	فيما بين المحالفتين	462 ـ 31أوت 1897
288	السلف في البذر	463 ـ 7 سبتمبر 1897
289	تعليم الأهالي	464 ـ 14 سبتمبر 1897
290	مصلحة البوليس	465 ـ 21 سبتمبر 1897
291	وجوب التعليم	466 ـ 28 سبتمبر 1897
292	مصلحة الإرشاد والمساعدة العدلية	468 ـ 5 أكتوبر 1897
293	تقرير في أحوال المملكة	469 ـ 12 5 أكتوبر 1897
294	حفظ النفس واجب	471 ـ 2 سبتمبر1897
295	الصنائع ببوسنة وهرسك	472 ـ 9 سبتمبر1897
296	موسم الزراعة	473 ـ 16 سبتمبر1897
297	الجمعية الخلدونية	474 ـ 23 سبتمبر1897
298	العنصر الجاني	475 ـ 30 سبتمبر1897
299	نظرة سياسية	476 ـ 7 ديسمبر 1897
300	اجياء الصنائع التونسي	477 ـ 14 ديسمبر 1897
301	الترقي في العلوم	478 ـ 21 ديسمبر 1897
302	أوروبا والصين	479 ـ 28 ديسمبر 1897
303	تقرير في الصنائع التونسية	480 ـ 4 جانفي 1898
304	المكوس على المواشي والدواب	481 ـ 11جانفي 1898
305	الربا	482 ـ 18جانفي 1898
306	ايطاليا والحبشة	483 ـ 25 جانفي 1898
307	زراعة الدخان	484 ـ 1 فيفري 1898
308	كبح الربا بالجزائر	485 ـ 8 فيفري 1898
309	مفاوضات مجلس النواب الفرنسي	486 ـ 15 فيفري 1898
310	التصرف في الأوقاف	487 ـ 1 مارس 1898
311	مصر والسودان	488 ـ 8 مارس 1898
312	إيقاظ الهمم	489 ـ15مارس 1898
313	إجمال السياسة	490 ـ 22 مارس 1898
314	إرشادات فلاحية	491 ـ 29 مارس 1898
315	المغرب الأقصى	492 ـ 5 أفريل 1898
316	مدرسة الصنائع	493 ـ 12 أفريل 1898

317 الاتحاد التجاري	494 ـ 19 أفريل 1898
318 إشهار الحرب بين اسبانيا وأمريكا	495 ـ 26 أفريل 1898
319 مفاوضات الجمعية الشورية	496 ـ 10 ماي 1898
320 المعاليم الكمركية	497 ـ 17 ماي 1898
321 نظرة سياسية	498 ـ 24 ماي 1898
322 تصريحات مهمة	499 ـ 31 ماي 1898
323 المقاطع الفوسفاتية	500 ـ 7 جوان 1898
324 الهندسة	501 ـ 14 جوان 1898
325 استعفاء الوزارة الفرنسوية	502 ـ 21 جوان 1898
326 العفو الملوكاني	504 ـ 5 جويلية 1898
327 انتصار الأمريكان على الأسبان	505 ـ 12 جويلية 1898
328 أساطيل الدول البحرية العظام	506 ـ 19 جويلية 1898
329 المعارف	508 ـ 9 أوت 1898
330 ارتفاع أسعار المعاش	509 ـ 16 أوت 1898
331 مدرسة الفلاحة التونسية	510 ـ 23 أوت 1898
332 الأفق السياسي	511 ـ 30 أوت 1898
333 المسألة العامة	512 ـ 6 سبتمبر1898
334 مدرسة الفلاحة التونسية	513 ـ 13 سبتمبر 1898
335 فرنسا وانقلترا في السودان المصري	514 ـ 20 سبتمبر1898
336 كـــريت	515 ـ 27 سبتمبر
337 شجاعة المصريين والسوذانيين	516 ـ 4 أكتوبر1898
338 إيضاح وشكران	517 ـ 11 أكتوبر1898
339 مسألة العملة	518 ـ 18 أكتوبر1898
340 تمخض الجبل فولد فأرا	519 ـ 25 أكتوبر1898
341 سكة حلق الوادي الحديدية	520 ـ 1 أكتوبر1898
342 التعاون	521 ـ 8 أكتوبر1898
343 الأحوال الحاضرة	522 ـ 15 أكتوبر1898
344 المسألة المصرية	523 ـ 22 أكتوبر1898
345 افتتاح المرستان المدني	524 ـ 29 أكتوبر1898
346 وفاة الطيب باي	525 ـ 6 ديسمبر 1898
347 المسألة الشرقية	527 ـ 20 ديسمبر1898
348 سنة 1898 السياسية	528 ـ 27 ديسمبر1898
349 تحريك الهمم	529 ـ3 جانفي 1899
350 نظرة في التسجيل العقاري	530 ـ 10جانفي 1899

419 الدباغة	609 ـ 14 أوت 1900
420 صون العرض	610 ـ 21 أوت 1900
421 الإسلام وحوادث الصين	611 ـ 28 أوت 1900
422 خطب جسم(وفاة محمد بيرم)	612 ـ 4 سبتمبر 1900
423 مشيخة الإسلام	613 ـ 11 سبتمبر 1900
424 تأثير الإرشاد في نفوس الأفراد	614 ـ 18 سبتمبر 1900
415 المسألتان	615 ـ 25 سبتمبر 1900
422 المدنية والإسلام	622 ـ 13 نوفمبر 1900
423 الدين النصيحة	623 ـ 20 نوفمبر 1900
424 المدنية الحقة	624 ـ 27 نوفمبر 1900
425 العلم بالعمل	625 ـ 4 ديسمبر 1900
426 استنهاض الهمم	626 ـ 11 ديسمبر 1900
427 جملة سياسية	627 ـ 15 ديسمبر 1900
428 الأوقاف	628 ـ 25 ديسمبر 1900
429 فوائد الصوم الصحية	629 ـ 1 جانفي 1901
430 إنزال الأوقاف	630 ـ 8 جانفي 1901
431 تجزئة الإنزال في الأوقاف	631 ـ 15 جانفي 1901
432 تعليم الزراعة	632 ـ 29 جانفي 1901
433 مضار المسكرات	634 ـ 12 فيفري 1901
434 المملكة التونسية(ق. هانوتو)	636 ـ26 فيفري 1901
435 شركات التعاون على الفلاحة الأهلية	637 ـ 5 مارس 1901
436 نظرة في تعليم المرأة	638 ـ 12 مارس 1901
437 شركات التعاون الفلاحية بالجزائر	639 ـ 19 مارس 1901
438 التربية والتعليم	640 ـ 26 مارس 1901
439 التربية والتعليم	641 ـ 9 أفريل 1901
440 مراسم الاحتفالات بطولون	642 ـ 16 أفريل 1901
441 التحالف الثلاثي والتحالف الثنائي	643 ـ 23 أفريل 1901
442 الرفق بالحيوان	644 ـ 30 أفريل 1901
443 تعليم الصنائع والحرف	445 ـ 7 ماي 1901
444 المسألة الصينية	646 ـ 14 ماي 1901
445 ديار المقامرة	647 ـ 21ماي 1901
446 المعاملات بالربا مصدر كل بلاء	648 ـ 28 ماي 1901
447 التعليم بالهند	649 ـ 4 جوان 1901
448 التطويع والتحصيل بالجامع الأعظم	651 ـ 18 جوان 1901

449 خطبة حكمدار الهند في النهضة الإسلامية
450 العشر والقانون(1)
451 العشر والقانون على الزيتون(2)
452 العشر والقانون على الزيتون (3)
453 جويلية 1901 (4) إدارة الغابة
454 رهبان الانجليز
455 سر الحماية
456 خلاصة سياسية
457 التربية والتعليم
458 فرنسا والروسيا
459 زيارة قيصر الروسيا لفرنسا
460 بلاد الكونغو البلجيكية (توحش المدنيين)
461 صناعة الطحن بتونس
462 مدرسة الفلاحة الأهلية(1)
463 مدرسة الفلاحة الأهلية (2)
464 مارستانات الفقراء
465 حفظ الكرامة بحفظ الآداب ذكرى لأولي الألباب
466 السكك الحديدية الصفاقسية
467 القرض التونسي والسكك الحديدية
468 التربية
469 المجلس المختلط والجمعية الشورية
470 السكك الحديدية بالقارة الإفريقية
471 السكك الحديدية التونسية
472 لا يعدم العلم أنصارا
473 السياسة الإسلامية
474 كل نفس بما كسبت رهينة
475 طريق الهند
476 يمين القسامة
477 مؤتمر التربية الإسلامية
478 كلمة في الصحافة العربية
479 صناعة الزرابي التونسية
480 تحالف انقلترا والجابون
481 النهضة الأدبية
482 مضار المسكرات ووجوب مقاومتها

652 ـ 25 جوان 1901
653 ـ 9 جويلية 1901
654 ـ 16 جويلية 1901
655 ـ 23 جويلية 1901
656 ـ 30 جويلية 1901
657 ـ 6 أوت 1901
658 ـ 13 أوت 1901
659 ـ 20 أوت 1901
660 ـ 27 أوت 1901
663 ـ 17 سبتمبر 1901
664 ـ 24 سبتمبر 1901
665 ـ 1 أكتوبر 1901
666 ـ 8 أكتوبر 1901
667 ـ 15 أكتوبر 1901
668 ـ 22 أكتوبر 1901
669 ـ 29 أكتوبر 1901
670 ـ 5 نوفمبر 1901
671 ـ 12 نوفمبر 1901
672 ـ 19 نوفمبر 1901
673 ـ 26 نوفمبر 1901
674 ـ 3 ديسمبر 1901
675 ـ 10 ديسمبر 1901
676 ـ 17 ديسمبر 1901
677 ـ 24 ديسمبر 1901
678 ـ 31 ديسمبر 1901
679 ـ 7 جانفي 1902
680 ـ 21 جانفي 1902
681 ـ 28 جانفي 1902
682 ـ 4 فيفري 1902
683 ـ 11 فيفري 1902
684 ـ 18 فيفري 1902
685 ـ 25 فيفري 1902
686 ـ 4 مارس 1902
687 ـ 11 مارس 1902

517 ألعاب المقامرة
518 علوم الدين
519 الحديث الشريف وأختام رمضان
520 الكفاءة والتكافؤ
521 أحوال جزيرة العرب
522 الجمعية الخلدونية
523 وتعاونوا على البر والتقوى
524 الأحوال بالمغرب الأقصى
525 صندوق الاقتصاد(بالبوسطة التونسية)
526 شركات التعاون على الزراعة الفرنسية
527 الاعتقاد السني
528 تعليم اللغة العربية
529 صناعة الشاشية
530 مسألة مقدونيا
531 كشف اللثام عن حقيقة الإسلام
532 قراءة العلم الشريف
533 مصلحة الأفراد في فضيلة الاتحاد
534 سياسة انقلترا بخصوص البلقان
535 الصنائع والحرف
536 الفوضى بالمغرب الأقصى
537 زارنا الفخيم
538 رئيس جمهورية فرنسا بتونس
539 صدى الأفراح(بمناسبة الزيارة)
540 نتائج الزيارة الرئاسية للبلاد التونسية
541 ضبط الزياتين العشرية وإدارة الغابة
542 الاحتياطات الصحية
543 نفثة مصدور
544 ولائم الملوك
545 مؤامرة قتل ملك الصرب
546 الفوضى بالمغرب الأقصى
547 وذكر إن نفعت الذكرى
548 الفوضى بالمغرب الأقصى سبب الأسباب
549 الفوضى بالمغرب الأقصى سبب الأسباب
550 التعليم بالجامع العظم

721 ـ 11 أكتوبر 1902
722 ـ 18 أكتوبر 1902
723 ـ 25 أكتوبر 1902
724 ـ 2 ديسمبر 1902
725 ـ 9 ديسمبر 1902
726 ـ 16 ديسمبر 1902
727 ـ 23 ديسمبر 1902
728 ـ 6 جانفي 1903
729 ـ 13 جانفي 1903
730 ـ 20 جانفي 1903
731 ـ 27 جانفي 1903
732 ـ 3 فيفري 1903
733 ـ 10 فيفري 1903
734 ـ 17 فيفري 1903
735 ـ 24 فيفري 1903
735 ـ 3 مارس 1903
736 ـ 17 مارس 1903
737 ـ 23 مارس 1903
738 ـ 31 مارس 1903
739 ـ 7 أفريل 1903
740 ـ 14 أفريل 1903
741 ـ 21 أفريل 1903
742 ـ 30 أفريل 1903
743 ـ 5 ماي 1903
744 ـ 12 ماي 1903
745 ـ 19 ماي 1903
746 ـ 26 ماي 1903
747 ـ 2 جوان 1903
748 ـ 19 جوان 1903
749 ـ 23 جوان 1903
750 ـ 30 جوان 1903
751 ـ 7 جويلية 1903
752 ـ 14 جويلية 1903
753 ـ 21 جويلية 1903

585 جمعية التعاون الزراعية بالجزائر	799 _ 21 1904
586 الروسيا والجابون	800 _ 28 1904
587 الرحلة الملوكية لباريز	801 _ 5 جويلية 1904
588 الحضرة العلية بباريز	802 _ 12 _ 1904
589 بعد السفر وقبل الرجوع	802 _ 17 _ 1904
590 الاحتفال بموسم 14 جويلية	803 _ 20 _ 1904
591 مؤدى الزيارة الملوكية	804 _ 26 _ 1904
592 احتفال بسراية العدلية الفرنسوية	805 _ 2 أوت 1904
593 مسألة تعليم الأهالي(1)	806 _ 9 _ 1904
594 مسألة تعليم الأهالي (2)	807 _ 16 _ 1904
595 قضية مصرية أخلاقنا وأخلاقهم	808 _ 23 _ 1904
596 مسألة تعليم الأهالي(3)	809 _ 30 _ 1904
597 السلطان مراد خان الخامس	810 _ 6 سبتمبر 1904
598مسألة تعليم الأهالي(4)	811 _ 13 سبتمبر 1904 (1)
599 كلمة في التعاون	812 _ 20 سبتمبر 1904
600 الشبان التونسيين(؟) والجند	813 _ 27 سبتمبر 1904
601 مسألة تعليم الأهالي	814 _ 4 أكتوبر 1904
602 مؤتمر حرية الفكر	815 _ 11 أكتوبر 1904
603 حرية الفكر والاعتقاد: أسباب الزيغ	816 _ 18 أكتوبر 1904
604 أحوال البلكان	817 _ 25 أكتوبر 1904
605 الاحتفال بالمدرسة الإسلامية بالجزائر	818 _ 1 نوفمبر 1904
606 انقلترا ودول أوروبا بالصين	820 ،، 15 نوفمبر 1904
607 مصير القمار	821 _ 22 نوفمبر 1904
608 إحياء الصنائع العربية	822 _ 29 نوفمبر 1904
609 المستعمرة الفلاحية	823 _ 6 ديسمبر 1904
610 تدوين فقه الأحكام	824 _ 20 ديسمبر1904
611 مصـــر	825 _ 27 ديسمبر1904
612 العاب القمار والقوانين	826 _ 3 جانفي 1905
613 الحادث العظيم انتصار اليابان في بورت ارتور	827 _ 10 جانفي 1905
614 السنة الثامنة عشرة للحاضرة	828 _ 17جانفي 1905
615 الإعانة الطبية	829 _ 24 جانفي 1905
616 الإسلام والترقي	830 _ 31 جانفي 1905
617 الإسلام والترقي	831 _ 7 فيفري 1905
618 الإسلام والترقي	832 _ 14 أو 21 فيفري 1905

1) تنبه الحاضرة في هذا العدد إلى أن كل مقال ليس به إمضاء صاحبه فهو لمدير الجريدة، ومعنى ذلك أن المقالات المذكورة أعلاه، والتي هي بدون إمضاء هي من تحرير علي بوشوشة.

619 الإسلام والترقي
620 المملكة التونسية بمجلس النواب
621 حرب الروسيا والجابون
622 نفثة مصدور
623 أحوال البلكان
624 الأحوال السياسية
625 مدرسة الصنائع
626 مسامرة حافلة
627 الإعانة الطبية
628 الطبع يغلب التطبع
629 المحاكم التونسية العدل أساس العمران
630 مظهر سياسي جليل
631 حقائق راهنة
632 المغرب الأقصى
633 الداء والدواء
634 تعطيل تعليم القرآن
635 المسألة الأفغانية
636 الروسيا
637 عيد 14 جويلية
638 محادثة علمية مع البارون أوبنهايم
639 وفاة الشريف عون الرقيق أمير مكة
640 حالة حرجة
641 كلمة في الخطابة
642 الحياة في الشعور
643 اليد العاملة
644 موسم الفلاحة القابل
645 سياسة التشريك
646 مستقبل الشبان والتعليم
647 مكتب الصنائع التونسي
648 منفعة تعليم الصنائع
649 جناب وزير الأشغال العامة بتونس
650 تأمين المخاوف
651 رأي ألمانيا في السياسة الحاضرة
652 جمعية الأوقاف

833 ـ 28 فيفري 1905
834 ـ 14 مارس1905
835 ـ 21 مارس1905
836 ـ 28 مارس1905
837 ـ 4 أفريل 1905
838 ـ 11 1905
839 ـ18ـ 1905
840 ـ 25ـ 1905
841 ـ 2 ماي 1905
842 ـ 9 ماي 1905
843 ـ 23 ماي 1905
844 ـ 30 ماي 1905
845 ـ 6 جوان 1905
846 ـ 13 جوان 1905
847 ـ 20 جوان 1905
848 ـ 27 جوان 1905
849 ـ 4 جويلية 1905
850 ـ 11 جويلية 1905
851 ـ 18 جويلية 1905
852 ـ 25 جويلية 1905
853 ـ 1 أوت 1905
854 ـ 8 أوت 1905
855 ـ 15 أوت 1905
856 ـ 22 أوت 1905
857 ـ 29 أوت 1905
858 ـ 5 سبتمبر 1905
859 ـ 12 سبتمبر 1905
860 ـ 19 سبتمبر 1905
861 ـ 26سبتمبر 1905
862 ـ 3 أكتوبر 1905
863 ـ 10 أكتوبر 1905
864 ـ 17 أكتوبر 1905
865 ـ 24 أكتوبر 1905
866 ـ 31 أكتوبر 1905

653 إدارة المعارف وشبان التونسيين	867 ـ 7 نوفمبر 1905
654 الجمعية الخلدونية	868 ـ 14 نوفمبر 1905
655 الخماسة والإجارة	869 ـ 21 نوفمبر 1905
656 مسألة الأوقاف	870 ـ 5 ديسمبر 1905
657 الاعانة الطبية	871 ـ 12 ديسمبر 1905
658 الأحباس الخاصة	872 ـ 19 ديسمبر 1905
659 مسألة مراكش	873 ـ 26 ديسمبر 1905
660 أهم حوادث سنة 1905 الغابرة	874 ـ 2 جانفي 1906
661 تفرير في أحوال المملكة التونسية	875 ـ 9 جانفي 1906
662 حب الوطن من الإيمان	876 ـ 16 جانفي 1906
663 انتخاب مسيو فليار رئيس الجمهورية	877 ـ 23 جانفي 1906
664 الصنائع المستظرفة العربية	879 ـ 13 فيفري 1906
665 العدلية التونسية	880 ـ 20 فيفري 1906
666 التعليم العربي: تعديل نظام الكتاتيب	881 ـ 27 فيفري 1906
667 التعليم العربي تابع ما قبله برنامج التعليم	882 ـ 6 مارس 1906
668 التعليم العربي تابع ما قبله الأسلوب	883 ـ 13مارس 1906
669 التعليم العربي تابع ما قبله الوسائل الفعلية	884 ـ 20 مارس 1906
670 عبرة تاريخية	886ـ 4 أفريل 1906
671 عبرة تاريخية تابع ما قبله	887ـ 10 أفريل 1906
672 الآستانة العلية في 29 مارس 1906	88 ـ 17 أفريل 1906 (1)
673 حسن الاختيار	890 ـ 6 ماي 1906
674 مبايعة محمد الناصر باي	891 ـ 15 ماي 1906
675 إشراق الطلعة السنية على الحاضرة التونسية	892 ـ 22 ماي 1906
676 صناعة البناء	893 ـ 28ماي 1906
677 المسكرات بين العرب	894 ـ 5 جوان 1906
678 مكتب البنات المسلمات التونسي	895 ـ 12 جوان 1906
679 سياسة عادلة	896 ـ 19 جوان 1906
680 العربية والمستعربون	897 ـ 26جوان 1906
681 الحذار الحذار من مزالق الأخطار	898 ـ 3 جويلية 1906
682 سماحة الإسلام	899 ـ 10جويلية 1906
683 التربية والتعليم	900 ـ 17 جويلية 1906
684 تعليم الأهالي بهمد الصين	901 ـ 24 جويلية 1906
685 سياسة الممالك	902 ـ 31 جويلية 1906
686 النهضة الأهلية بالجزائر	903 ـ 7 أوت 1906

1) عندما زار علي بوشوشة الآستانة للتأهل ـ كما يقول ـ للمرة الثانية، وتحول إلى مراسل للجريدة

687 العدل أساس العمران	904 ـ 21 أوت 1906
688 اتحاد الإسلام	905 ـ 28 أوت 1906
689 تنظيم العدلية التونسية	906 ـ 4 سبتمبر 1906
690 الفلاحة التونسية	907 ـ 11 سبتمبر 1906
691 العلم والعمل	908 ـ 18 سبتمبر 1906
692 أسباب مضار الخمر	909 ـ 25 سبتمبر 1906
693 تجار الحبوب والفلاحون	910 ـ 2 أكتوبر 1906
694 من المسؤول عن مستقبل شبابنا؟	911 ـ 9 أكتوبر 1906
695 القوة في الاتحاد	912 ـ 16 أكتوبر 1906
696 نظرة في سياسة أوروبا	913 ـ 23 أكتوبر 1906
697 حاجتنا إلى الصنائع	915 ـ 6 نوفمبر 1906
698 مقدونيا	916 ـ 13 نوفمبر 1906
699 الفتوى الظريفة والصنائع	918 ـ 4 ديسمبر 1906
700 قضية تالة والقصرين	919 ـ 11 ديسمبر 1906
701 المكاتب والكتاتيب	920 ـ 18 ديسمبر 1906
702 السنة العشرون لجريدتنا	921 ـ 25 ديسمبر 1906 (2)
703 نهضتنا الجديدة(بمناسبة خروجها من المطبعة الرسمية)	922 ـ 8 جانفي 1907
704 شاه العجم ومملكة إيران	923 ـ 15 جانفي 1907
705 المجلس المختلط العقاري	924 ـ 22 جانفي 1907
706 كلمة في المأمورين	925 ـ 5 فيفري 1907
707 قبل تحول ركاب جناب المقيم العام	926 ـ 12 فيفري 1907
708 الجمعية الشورية	927 ـ 19 فيفري 1907
709 صدى إصلاح الجمعية الشورية	928 ـ 26 فيفري 1907
710 الجمعية الشورية أيضا	929 ـ 5 مارس 1907
711 وظيفة جناب المقيم الجديد بتونس	930 ـ 12 مارس 1907
712 السجون	931 ـ 19 مارس 1907
713 مصير التونسي	932 ـ 26مارس 1907
714 الفلاحون من عرب قبلاط والبرويق	933 ـ 2 افريل 1907
715 كلمة في الإصلاح	934 ـ 9 افريل 1907
716 اليد العاملة الأهلية	935 ـ 16 افريل 1907
717 وراثة العرش العثماني	936 ـ 23 افريل 1907
718 وراثة العرش العثماني	937 ـ 6 ماي 1907
719 البركة في الحركة	938 ـ 14 ماي 1907
720 وراثة العرش الحسيني	939 ـ 21 ماي 1907

2) خروج الحاضرة من المطبعة العربية الرسمية

721 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة(1)	940 ـ 28 ماي 1907
722 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (2)	941 ـ 4 جوان 1907
723 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (3)	942 ـ 11 جوان 1907
724 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (4)	943 ـ 18 جوان 1907
725 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (5)	944 ـ 25 جوان 1907
726 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (6)	945 ـ 2 جويلية 1907
727 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (7)	946 ـ 9 جويلية 1907
728 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (8)	947 ـ 16 جويلية 1907
729 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (9)	948 ـ 23 جويلية 1907
730 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة (10)	949 ـ 30 جويلية 1907
731 المسألة المغربية	950 ـ 20 أوت 1907
732 الفلاحة والاستعمار	951 ـ 27 ˝أوت 1907
733 الدولة العلية والعجم	952 ـ 3 سبتمبر 1907
734 سياسة الاستعمار	953 ـ 10 سبتمبر 1907
735 الاستعمار وأبناء هذه الديار	954 ـ 17 سبتمبر 1907 (1)
836 هذا الدواء فأين الدواء	955 ـ 24 سبتمبر 1907
737 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة(12)	956 ـ 1 أكتوبر 1907
738 إصلاح الكتاتيب	957 ـ 7 أكتوبر 1907
739 نظرة في التعليم العام	958 ـ 15 أكتوبر 1907
740 نظام الحماية والجنسية الفرنسوية	959 ـ 22 أكتوبر 1907
741 الدعوة إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة(13)	960 ـ 29 أكتوبر 1907
742 الحالة الصحية	961 ـ 5 نوفمبر 1907
743 الجمعية الشورية	962 ـ 19 نوفمبر 1907
744 صدى الجمعية الشورية	963 ـ 26 نوفمبر 1907
745 وقاية الأطفال	964 ـ 3 ديسمبر 1907
746 وجوب احترام الأمير	965 ـ 21 جانفي 1908 (2)
747 العمل روح الحياة (1)	966 ـ 28 ˝جانفي 1908
748 العمل روح الحياة (2)	967 ـ 4 فيفري 1908
749 العمل روح الحياة (3)	968 ـ 11 فيفري 1908
750 العمل روح الحياة (4)	969 ـ 18 فيفري 1908
751 العمل روح الحياة (5)	970 ـ 25 فيفري 1908
752 العمل روح الحياة (6)	971 ـ 3 مارس 1908
753 الأمن العام	972 ـ 10 مارس 1908
754 صغار المتوظفين التونسيين	973 ـ 17مارس 1908

1) وبه الحلقة(11) من إصلاح التعليم بجامع الزيتونة
2) احتجبت عن الصدور بسبب مرض علي بوشوشة الذي أصبح يحررها بمفرده

789 وذكر إن نفعت الذكرى (4)
790 صناعة الشاشية
791 المجلس المختلط العقاري
792 التونسي والجنسية الفرنسوية
793 التونسيون في بلادهم
794 المجاعة بقطر تونس
795 قتل اللغة العربية قاتل الله قاتلها
796 سبب الاتفاق الألماني الفرنسي
797 اضطراب الأحوال بالممالك العثمانية
798 استقلال القضاء
799 الفلاحة التونسية
800 بعد المبايعة
801 مسألة التشبه
802 العدل أساس العمران
803 توضيح حقيقة
804 حيا الله اللغة العربية وناصريها
805 قضية ابن الربي
806 مستقبل شبان التونسيين في الصناعة
807 مستقبل شبان التونسيين في الصناعة تابع
808 الصحافة العربية والصحافة الإفرنجية
810 نظرة إجمالية في المستشفى الصادقي
811 نظرة إجمالية في المستشفى الصادقي
812 أخلاقنا
813 الفلاح المسكين
814 مستقبل المستعمرة الفلاحية بين الرجاء والخوف
815 انقلترا والهند
816 الأوقاف التونسية بمؤتمر إفريقيا الشمالية
817 الطائفة اليهودية والمحاكم التونسية
818 المجابي والجباة
819 المجبى
820 إدارة الغابة
821 المستعمرة الفلاحية
822 بعد انعقاد الجمعية الشورية
823 عبرة العبر مجلس الشورى في خطر

1013ـ 16 فيفري 1909
1014ـ 23 فيفري 1909
1015 ـ 2 مارس 1909
1016 ـ 9 مارس 1909
1017 ـ 16 مارس 1909
1018 ـ 23 مارس 1909
1019 ـ 30 مارس 1909
1020 ـ 13 أفريل 1909
1021 ـ 20 مارس 1909
1022 ـ 27 مارس 1909
1023 ـ 4 ماي 1909
1024ـ 11 ماي 1909
1025 ـ 18 ماي 1909
1026 ـ 25 ماي 1909
1027 ـ 1 جوان 1909
1028 ـ 8 جوان 1909
1029 ـ 15 جوان 1909
1030 ـ 22 جوان 1909
1031 ـ 29 جوان 1909
1032 ـ 13 جويلية 1909
1033 ـ 27 جويلية 1909
1034 ـ 10 أوت 1909
1035 ـ 24 أوت 1909
1036 ـ 7 سبتمبر 1909
1037ـ21 سبتمبر 1909
1038 ـ 5 أكتوبر 1909
1039 ـ 12 أكتوبر 1909
1040 ـ 26 أكتوبر 1909
1041 ـ 2 نوفمبر 1909
1042 ـ 9 نوفمبر 1909
1043ـ 16 نوفمبر 1909
1044ـ 30 نوفمبر 1909
1045 ـ 7 ديسمبر 1909
1046ـ 14ديسمبر 1909

824 فلاحة الزيتون	1047ـ21 ديسمبر 1909
825 المستشفى الصادقي	1048 ـ 4 جانفي 1910
826 تعديل المجبى	1049 ـ 11جانفي 1910
827 تعليم البنات المسلمات	1050 ـ 18 جانفي 1910
828 احتكار المعاش	1051 ـ 25جانفي 1910
829 سياسة فرنسا بتونس	1052 ـ 1 فيفري 1910
830 إصلاح الجامع الأعظم	1059 ـ 15 مارس 1910
831 مسألة الخماسة والإجارة	1063ـ 19 أفريل 1910
832 الضرائب الجديدة وتعديل العشر والمجبى	1065ـ 3 ماي 1910
833 الجمعية الشورية	1066 ـ 10 ماي 1910
834 التعصب الإسلامي والحقيقة فيه	1068 ـ 23 ماي 1910
835 التعصب الإسلامي والحقيقة فيه	1069 ـ 30 ماي 1910
836 المعاليم العدلية التونسية	1071 ـ 14 جوان 1910
837 جمعية الأوقاف	1073 ـ 10 أكتوبر 1910
838 جمعية الأوقاف	1074 ـ 17 أكتوبر 1910
839 تعديل الضرائب الجديدة	1075 ـ 25 أكتوبر 1910
840 التجنس بالجنسية الفرنسوية رأي التونسيين فيه	1076ـ 1 نوفمبر1910
841 مهاجرة الأهالي داؤها ودواؤها	1077 ـ 8 نوفمبر1910
842 الجمعية الشورية	1078 ـ 15 نوفمبر1910
843 المستعمرة الفلاحية الأهلية بالأنصارين	1079ـ 22 نوفمبر 1910
844 بعد انعقاد الجمعية الشورية	1080 ـ 29 نوفمبر1910
845 تعليم الفلاحة	1081ـ 6 ديسمبر 1910
846 المملكة التونسية لدى مجلس المبعوثان	1082ـ20 ديسمبر 1910
847 المجاعة وعلاء المعاش	1083ـ27 ديسمبر 1910
848 فكر غريب هل يمكن كتابة العربية بالأحرف اللاتينية	1084 ـ 3 جانفي 1911
849 الجمعية الشورية	1086 ـ 17جانفي 1911
850 الجمعية الخيرية الإسلامية	1087 ـ 24 جانفي 1911
851 الفلاحة التونسية	1088 ـ 31 جانفي 1911
852 احترام الأموات	1089 ـ 7 فيفري 1911
853 مسألة غلاء المعاش	1090 ـ 14فيفري 1911
854 فخامة رئيس الجمهورية بالديار التونسية	1091 ـ 21 فيفري 1911
855 القتل أنفى للقتل	1092 ـ 28 فيفري 1911
856 تعديل قانون العشر	1093 ـ 7 مارس 1911
857 تعديل عشر الحبوب	1094 ـ 21 مارس 1911
858 الصنائع التونسية	1095 ـ 28 مارس 1911

المصادر والمراجع

المصادر:

الحاضرة (1888 ـ 1911)

ملف الحاضرة سلسلة ظ كارتون 531 ملف 24 الصحافة التونسية، الأرشيف الوطني التونسي

المراجع:

دائرة المعارف الإسلامية فصل جريدة ط الجديدة (بالفرنسية) رئاسة التحرير المجلد[2] ص 482

محمد الحجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي المكتبة العلمية بالمدينة المنورة 1397 / 1977

محمد حمدان: أعلام الإعلام ط تونس 1991

خير الدين الزركلي: الأعلام ط[7] دار العلم للملايين بيروت 1986

الصادق الزمرلي: أعلام تونسيون تعريب حمادي الساحلي ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1986

محمد السنوسي: الرياض الناضرة بمقالات الحاضرة تحقيق وتقديم علي العريبي، سلسلة ذاكرو وإبداع ، نشر وزارة الثقافة ، تونس 2001

محمد البشير صفر: مقالات في الإصلاح تقديم وتعليق علي العريبي سلسلة ذاكرة وإبداع نشر وزارة الثقافة تونس 2004

محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس ط الدار التونسية للنشر 1972

علي العريبي: الحاضرة نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس 1995

علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ط الرباط 1980

محمد فريد: من مصر إلى مصر ط مصر 1902

عمر بن قفصية: أضواء على الصحافة التونسية ذ تونس 1972
عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين (أربعة أجزاء) ط مؤسسة الرسالة بيروت 1993
ابو القاسم محمد كرو: حصاد العمر المجلد الثاني ط دار المغرب العربي تونس 1998
علي المحجوبي: انتصاب الحماية في تونس ط تونس 1986
محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية دار الكتاب العربي بيروت المطبعة السلفية 1349

مراجع باللغة الفرنسية

Arrous (Albert) : Livre d'or Figure d'hier et d'aujourd'hui 1ed Tunis 1923
Canal (Albert) : La literature et la Presse Tunsienne de L'occupation a 1900 Ia Renaissance de livre, Paris , 1923
Chatelain (Yves) : La litteraire et intellectuelle en Tunisie de 1900 a 1937 Paris 1937
Lambert (Paul) : Choses et gens de Tunisie, dictionnaire illustre de la Tunisie,Tunis 1912
Pouvat (L) : La presse Islamique In Revue du Monde Musulman (R .E . I .) Octobre 1908 p 319 - 347 1937

وقد ترجم هذا الفصل إلى العربية المرحوم الطيب العنابي (الصباح 1 مارس 1983)

Zawadwski (S) :Index de la presse idigene de Tunisie , Revue des Etudes Islamique (R . E. . I.)Cahier Paris

وغيرها من المعاجم والدوريات والكتب التي ذكرت في الهوامش



د. علي العريبي

– ولد بسيدي خليف من ولاية سيدي بوزيد 1944
– تعلّم بالكتاب ثم بالمدرسة الابتدائية بالمكان
– انتقل إلى تونس فأكمل دراسته الثانوية فالعالية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
– باشرالتدريس بالمعهد الثانوي المختلط بباجة ثم بالمدرسة القومية لإطارات الشباب ببئر الباي فإدارة الطفولة، ثم بالمدرسة القومية للإطارات الطفولة بقرطاج درمش
– يعمل حاليا أستاذا محاضرا بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس
– نشر في أغلب الصحف والمجلات الصادرة بتونس
– من أعماله : أضواء على كتب السيرة النبوية (تونس 1991) والحاضرة نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس (1995) والرياض الناضرة تحقيق (تونس 2001) ومحمد البشير صفر دراسة وتجميع (تونس 2004) والفكر الاسلامي في نصف قرن من خلال المجلات الدينية التونسية (1904 – 1955) تونس 2006
– ومن أعماله المخطوطة : جسم الإنسان في القرآن – قرآن على قرآن – الخلاصة النقية في سيرة خير البرية – وجوه لا تنسى وغيرها.
– وله رواية مخطوطة بعنوان : ابحار في الوهم – مجموعة قصص قصيرة.

المحتوى



Conception et Réalisation
MEDIA HORIZON
Tél. : 71 802 557
Fax : 71 841 399

علي بوشوشة

علي بوشوشة رجل يستحق أن يحتلّ مكانة في تاريخ تونس الثقافي للخدمات الجليلة التي قدّمها في سبيل الحفاظ على أسس الثقافة الوطنية ومقوماتها. قال عنه الزعيم المغربي علاّل الفاسي : «إنه أبرز هؤلاء الشبان (جماعة الحاضرة) وأقواهم شخصيّة، استطاع أن يجمع من حول الجريدة كتلة قوية من أصدقائه وغيرهم».

عليّ العريبي

6،000 د.ت.